أنور الجندي

آفاق جديدة للدعوة الإسلامية في عالم الغرب

مؤسسة الرسالة



آفاق جديدة
للدعوة الإسلامية في عالم الغرب

الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م



مؤسسة الرسالة بيروت – شارع سوريا – بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ – ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

مطالع البحث

ما تزال حقيقة الإسلام تتكشف، وتزداد قوة ووضوحاً، بعد أن مرت بمرحلة مظلمة من الغبن والعقوق، واجهها به أولئك الذين كان «الإسلام» بفكره وحضارته وثقافته أساس نهضتهم وحضارتهم الحديثة.

ولقد واجه الإسلام منذ القرن الخامس عشر حملة منظمة كانت تستهدف أمرين:

١ ـ القضاء عليه في نظر الغربيين، والإنسانية جميعاً، وتشويه معالمه الحقيقية، حتى يسقط نهائيًّا.

٢ ـ إثارة الشبهات والشكوك فيه بالنسبة لأهله حتى ينتهي فيما بينهم كمقوم أساسي للحياة والفكر والحضارة.

وقد نجحت هذه الحملات إلى حد كبير في تحقيق الهدفين.

غير أن الإسلام بقوته الذاتية استطاع أن ينفذ إلى الفكر الإنساني من خلال الكتابات التي حملت عليه، وشوهته فأمكن أن يلقي ضوءاً على النفس الإنسانية خارج العالم الإسلامي، ولم يلبث أن اتسع حتى أصبح تياراً قويًّا، جمع إليه عشرات من أقلام الكتاب والفلاسفة والمؤرخين، والباحثين، هؤلاء الذين لا يشك أحد مطلقاً في أن الإسلام استعملهم أو حملهم على الإيمان به، وتقديره، إلا عن طريق وجدانهم وفكرهم الذي استطاع أن يصل إلى الحقيقة، ويقتنع بها.

ويمثل هذا التيار في الفكر الإنساني غزوة جديدة للإسلام، لا شك في قوتها وأصالتها. والنتائج البعيدة المدى المترتبة عليها.

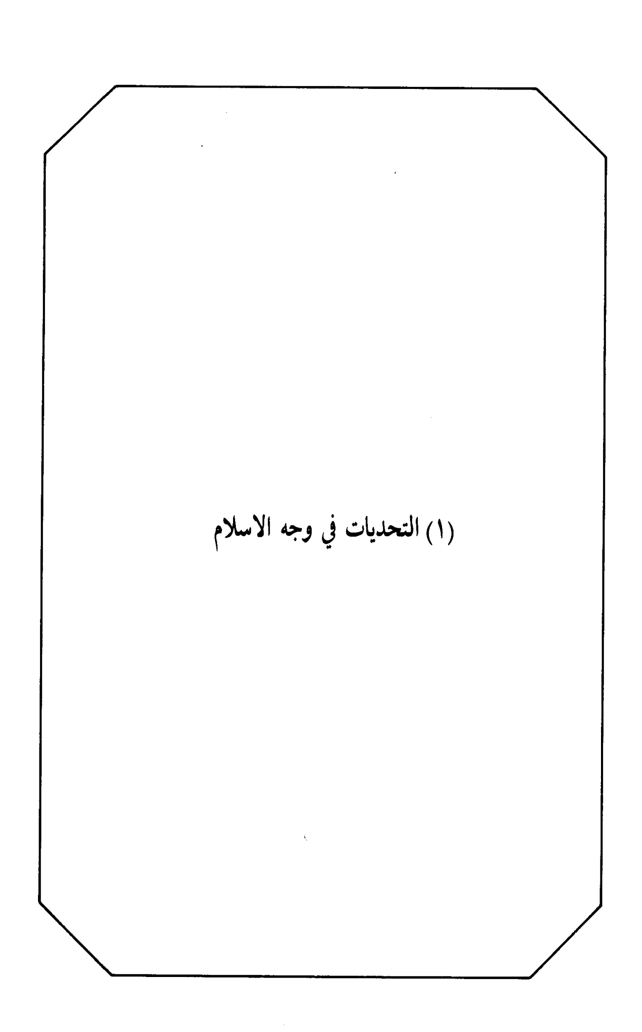
وجملة القول في آراء هؤلاء الكتّاب أن الإسلام دين عالمي إنساني لا شك فيه، وأن الإنسانية في أشد الحاجة إليه الآن لحل مشاكلها.

ولا يخلي بروز هذا التيار من المفكرين العالميين مسؤولية الفكر الغربي في حملته الظالمة على الإسلام. هذه الحملة التي لا تزال مستمرة منذ بدأت في القرن الخامس عشر، والتي تدفعها عوامل النفوذ الأجنبي، والتغريب والتسلط على العالم الإسلامي، وسحق مقوماته الأساسية، وتحويله عن قيمه وشخصيته ومفاهيمه، وفرض قيم عليه ليست من طبيعته، ولا من بيئته.

وعندي أن هذا العمل ينفع في مجال خدمة الإسلام العالمي، كما ينفع في خدمة المسلمين أنفسهم، ذلك لأنه إذا كان العالم الإسلامي ما يزال خاضعاً للرأي الأجنبي، مقدراً له، حتى ولو كان من أعدائه، فما أحره أن يقدر هذا الرأي الأجنبي المنصف الذي يدعوه إلى أن يتمسك بالإسلام والذي يدعو الإنسانية كلها أن تتخذه سبيلاً لحل أزمتها الكبرى.

وفي يقيني أن كثيراً من كتّابنا الذين أنصفوا الإسلام، لم يتجهوا إلى هذا العمل إلا بعد أن سبقهم إلى ذلك المنصفون من الغرب أمثال: جوستاف لوبون ـ وتوماس كارليل ـ وأميل درمنجم.

وبعد هذا عمل جديد في ميدان جديد لخدمة الإسلام وإزالة الشبهات عنه ـ أرجو أن ينفع الله به الإسلام.



(١) التحديات في وجه الاسلام

(١)

واجه الإسلام التحديات الخارجية منذ اليوم الأول لوجوده، واجهها في بيئة مكة، ثم في بيئة المدينة، ممثلة في مقاومة الوثنية واليهودية له.. ثم اتسع نطاق هذا التحدي، بعد أن فتح الإسلام بلاد الشام، ومصر، وشمال أفريقيا - حيث واجه تحدي الدولة الرومانية المسيحية. ثم امتدت هذه التحديات في صورة الدعوات الهدامة المتعددة التي واجهت الإسلام خلال دوله: الأموية، والعباسية، وما بعدهما. دعوة عبد الله بن سبأ، ومحاولات البرامكة والفرس، والراوندية، والمقنعة، والخزمية، والبابكية، والأقشين، وابن ديصان، والمزدكية، والمانوية، والقرامطة، وحسن الصباح، ثم التتار.

وكلها دعوات مؤيدة بقوة الفكر والسلاح انبعثت من قلب العالم الإسلامي نفسه، ولا يبعد أن تكون مؤيدة بقوى خارجية.

غير أن التحديات التي واجهت الإسلام من خارج نطاقه، ومن خلف حدود العالم الإسلامي. قد بدأت بالحروب الصليبية، حينما أحست أوروبا خطر الإسلام الذي نما واتسع سلطانه، ومن ثم جاءت هذه الحركة نتيجة أساسية لهذا المعنى، وإن اتخذت من ظهور السلاجقة - بمظهر القوة واتساع السلطان السياسي، واستيلائهم على بيت المقدس، واكتساحهم أملاك الامبراطور الأسيوية، حتى بحر مرمرة - سبيلاً مباشراً لإعلان الحرب.

وكان بطرس الناسك هو أول من دعا إلى هذه الحروب مطالباً بحماية البقاع المقدسة، فاستطاع أن يسوق جموعاً ضخمة في صورة حملات كانت صورة واضحة من الفوضى والاضطراب، ولم تكن في حقيقتها جهاداً دينياً منظمًا، وإن أسبغت البابوية نفوذها على هذه الحملات.

بدأت هذه الحملات ٤٩١ هـ - ١٠٩٨ م - حيث استولى (جودفروا دي بويون) وزملاؤه قواد الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس، وكثير من مدن الشام.. وثغوره، وأنشأوا المملكة اللاتينية، ثم توالت الحملات على الشام ومصر حتى عام ١٢٧٠ م - وبذلك استمرت حوالي ١٧٠ عاماً. وقد استطاعت هذه الحملات أن تسيطر على عكّا وطرطوس وإنطاكية وحلب وتمكنت من إقامة أربع إمارات لاتينية: هي بيت المقدس وطرابلس وإنطاكية والرها.

ثم بدأت حملات رد الفعل، ومواجهة التحدي من الجانب الإسلامي على الفرنجة، بدأها عماد الدين زنكي، ونور الدين زنكي سلطانا الموصل.. وتبعهما في حمل اللواء «صلاح الدين الأيوبي» الذي حقق انتصارات ضخمة، حيث احتل طبرية ١١٨٧ م - وانتصر في معركة حطين، وأسر لوسيتيان ملك أورشليم، ورفيقه الملك راجينا. ثم خان الأخير عهد صلاح الدين الذي أطلقهما، وكان أن قتله صلاح الدين بيده.

وأسلمت أورشليم قيادها إلى صلاح الدين ١١٨٨ م - ودانت له المدن الإفرنجية في سوريا، وفلسطين، وسقطت في يده أغلب القلاع، ولم يبق في حوزة الفرنجة إلا إنطاكية وطرابلس وصور وبعض المدن الصغيرة.

على أثر ذلك قدمت الحملة الصليبية الثالثة، وعلى رأسها امبراطور ألمانيا وملكا فرنسا وانجلترا، فردريك بربوسا، وفيليب أوغسطس،

ورتشارد قلب الأسد، وهاجمت القوة عكا، ووقف صلاح الدين يدافع عنها ـ ودام الحصار عامين. . كاملين، واضطرت عكا إلى التسليم أخيراً، وأسر الفرنجة زهاء ألفين وسبعمائة من المسلمين، ثم أطلق سراحهم بعد مفاوضات انتهت بأن يكون الساحل للآتين، والداخل للمسلمين ـ ومات صلاح الدين بعد ذلك بشهور قليلة.

ثم أخذت الحملات الصليبية تتجه إلى مصر مرتين. الأولى بقيادة جان دي برين ملك بيت المقدس، وكان في مائتي ألف رجل، هاجموا مدينة دمياط، ثم نفذوا منها زاحفين إلى القاهرة، وقد تمكنت قوات الملك الكامل من قطع جسور الترع التي تحيط بقوات الصليبيين فانهزموا، ثم هاجمت مصر حملة أخرى على رأسها لويس التاسع. حيث نزلت مدينة دمياط، وزحفت منها إلى قلب الدلتا ـ ولكنها لم تلبث ـ وقد انقطعت عنها الإمدادات، وتفشى فيها الوباء ـ أن انهزمت فأسر المصريون منهم مابقي بعد هلاك أغلب الجيش بين جريح وذبيح.

وخلف «الظاهر بيبرس» ـ صلاح الدين في توجيه الضربات إلى الصليبيين، فاحتل الكرك واقتحم قيسارية وإنطاكية ـ وانتزع حصن الأكراد من أيدي الفرسان. ثم واصل «قلاوون» خطة بيبرس، فاستولى على حصن المرقب بجوار طرابلس، ثم هاجم الملك الأشرف عكّا. وقد فتحها المسلمون بعد حصار دام شهراً كاملاً. ثم استولى على صور وصيدا. وبيروت وطرطوس. وكان أن ساق لويس التاسع عشر حملة صليبية أخيرة على تونس، وقد فشلت هذه الحملة، وقتل القديس لويس.

* * *

وبعد، فليس من هدفنا أن نرسم صورة كاملة لهذا التحدي الكبير الذي واجه الإسلام من خارج العالم الإسلامي، ولكنا أردنا أن نرسم ملامح الصورة. . التي نعتقد أنها «نقطة البدء» في حملة التحديات الضخمة

التي وجهها الغرب إلى الإسلام منذ ذلك اليوم، والتي ما زالت مستمرة إلى اليوم، وكيف واجه الإسلام هذه الحملة، وكشف عن أخطائها ومغالطاتها وزيوفها، واستطاع بقوته الذاتية أن يدفع الكثيرين من مفكري الغرب إلى تأييده على أساس اقتناع كامل بسلامته وصلاحيته للبقاء والحياة والتطور.

وإذا كانت الحملات الصليبية التي بدأت **٤٩١** هـ ـ **١٠٩٨** م ـ قد توقفت **٦٤٤** هـ ـ **١٢٥١** م. عسكريًّا، فإنها في الواقع لم تنته، أو أنها بعد أن استمرت مائة وثلاثة وخمسين عاماً. لم تقف بل تجددت في الأندلس حتى جاء اللورد اللنبي بعد ذلك بستمائة وسبعة وستين عاماً. ووقف في بيت المقدس عام **١٩١٨** م ليقول كلمته التي لا تنسى: «اليوم انتهت الحروب الصليبية».

ومعنى هذا أن الغرب حين توقف عن الحروب الصليبية في ميدانها العسكري. لم يكن قد توقف فعلاً، وإنما كان قد بدأمرحلة أخرى من الحرب في مجالات الفكر والسياسة وغيرها استطاع بها أن يحقق عام **١٩١٨** ما ظنه النصر الذي تخلف عنه عام **١٢٥١** م.

وفي خلال هذه الفترة الطويلة الممتدة مضى إلى غايته العمل الكبير، الذي أعده الغرب لمواجهة الإسلام، ومحاولة القضاء عليه، وفي خلاله برزت هذه التحديات الضخمة في صورة التبشير والاستشراق، والتأليف، والصحافة، والمؤسسات المختلفة. والإرساليات العديدة التي اندفعت إلى هذه المنطقة في ظل النفوذ الأجنبي المسيطر على الدولة العثمانية، وتحت سمع الحكومات المختلفة وتأييد القناصل لتبدأ عملية الغزو الكبرى التي واجهها الإسلام بقوة، وأدال منها.

* * *

وفي خلال هذه المرحلة أيضاً لم يتوقف الغزو العسكري. فإذا كانت

الحروب الصليبية قد انتهت ١٢٥١ م. فإن حرباً أخرى شنها الغرب على الإسلام في الأندلس. واستمرت أكثر من أربعة قرون تمثلت هذه الحرب في تضام الدويلات المسيحية في شبه الجزيرة. وأهمها قشتالة - ونفارة - وأربونة والبرتغال حتى استطاعت أن تهاجم الدولة الإسلامية وتستولي على قرطبة عام ٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م. وقد وقفت أوروبا كلها وراء هذه الحركة تمدها بالمال والسلاح، فسقطت بلنسية عام ٦٣٦ هـ - ١٢٣٩ م. وسقطت مرسية عام ٦٤١ هـ - ١٢٤٤ م. وأشبيلية عام ٦٤٤ هـ - ١٢٤٧ م. ذلك أن الغرب المسيحي بعد هزيمة الحروب الصليبية في المشرق كان قد صمم على إجلاء المسلمين والعرب نهائياً عن أوروبا. وكان قيام اتحاد مملكة قشتالة وأرجون بزواج ملكيها أزبيلا، وفرديناند الخامس هو «نهاية الشوط» في القضاء على الدولة الإسلامية في الأندلس. ولم يأت عام ٨٩٢ هـ - حتى سقطت في أيديها غرناطة. فقد زحفا في ٥٠ ألفاً لحصارها وقاتل المسلمون دونها شبراً فشبراً.

ثم نصب الصليب الفضي الكبير فوق برج الحمراء، وسلم أبو عبد الله آخر خلفاء المسلمين في الأندلس مفاتيح غرناطة إلى فرديناند، ثم اجتاز بر العدوة.

ومنذ ذلك اليوم بدأت معركة إبادة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً في الهول والشدة، والعنف والمرارة. فقد أمّن فرديناند المسلمين أول الأمر على أموالهم وأزواجهم وشريعتهم، وحرية عباداتهم، وشعائر دينهم، فلا يرغم مسلم على التنصر، ولا يولي عليهم يهودي، أو نصراني، وأن تعطي الفرصة لمن يريد أن يجوز إلى إفريقيا في سفن تقدم إليهم.

غير أنه لم يلبث أن غدر بهم غدراً شنيعاً. إذ أجبرهم على التنصر. وكان من أبرز الأحداث البربرية أن جمعوا المصاحف، وذخائر العلم

والفكر الإسلامي في ساحة المدينة فأضرموا فيها النار. وكان في مكتبة قرطبة وحدها مليون كتاب.

ثم رتبوا أنظمة كهنوتية لمحاربة المسلمين أسموها بأنظمة فرسان الهيكل، مما اضطر الألوف المؤلفة إلى أن ترتد خوفاً من القتل والتشريد، كما هاجرت جموع أخرى إلى ثغور إفريقيا. أما المسلمون الذين بقوا فقد استحالوا إلى طائفة من «الموريسكين» أي العرب المتنصرين. ولكن هذه الفئة أيضاً لم تلبث أن أبيدت في عهد فيليب الثاني. وفي عام ١٥٥١ صدرت إرادة ملكية تقضي على من في قشتالة وليون من المسلمين. إما بالرجوع عن دينهم أو الجلاء عن البلاد، ثم أمر المسلمون بالتخلي عن اللغة والعبادة. وفي عهد فيليب الثالث ١٦٠٩ - أمر المسلمون بالجلاء، فهاجر منهم فريق، وامتنعت طائفة بجبال البشرات ذات المعاقل الثلجية، ثم انفجرت الثورة واستمرت مشتعلة سنوات. بدأت موجة التعذيب والقتل والخيانة، ودافع المسلمون عن أنفسهم دفاعاً مجيداً. وانتقموا من خصومهم انتقاماً بالغاً، ومضى الدون جون ٩٧٨ هـ - ١٥٧٠ م يحرق القرى بمن فيها ويوقد النار على المختبئين بالكهوف والأغوار. وفي ١٠١٩ هـ - ١٦١٠ م كان قد بلغ من قتل من المسلمين، وحرق ونفي ثلاثة ملايين.

وقتل الراهب ميلدا ١٦١٠ م في حركة إجلاء المسلمين عن إسبانيا مائة ألف مهاجر في قافلة واحدة مكونة من ١٤٠ ألف مهاجر، وبنى الفرنجة الكنيسة الجامعة في قلب مسجد قرطبة، ووضعوا في المحراب صورة القديس فرديناند - في وسط دائرة من الذهب - وهو على ظهر فرسه، وأمامه ملك العرب يقدم مفاتيح المدينة. وهكذا حلت الأندلس من المسلمين من البيرنيه إلى صخرة طارق. ومن المحيط إلى شواطىء برشلونة.

وبينما كانت هذه المعركة التي تعد بحق المرحلة الثانية للحروب الصليبية مستمرة، كانت قد بدأت المرحلة الثالثة ـ وهي إخراج المسلمين من أوروبا الشرقية ـ هذه الدعوة التي علت صيحتها في أواخر القرن السادس عشر حين دعا البابا بيوس الخامس إلى حلف يضم ملك إسبانيا وجمهورية البندقية. ثم أعلنت الحرب المقدسة لاسترداد جميع الأقطار المسيحية، والأجزاء الأوروبية من دولة الخلافة العثمانية. وبذلك أخرج المسلمون من أوروبا نهائياً.

* * *

من خلال هذه المعارك الثلاث تبدأ خيوط التحديات الفكرية التي حمل لواءها الغزو الفكري الغربي لمواجهة الإسلام. فقد استطاع الغربيون عن طريق الحملات الصليبية، ومعارك الأندلس وتركيا. ومن خلال هذه المنافذ إحراز قدر كبير من آثار الفكر الإسلامي. حيث بدأت على الأثر حركة ترجمة ضخمة من العربية إلى اللغات الأوروبية. لكل ما ابتدعه المسلمون في ميادين العلم والأدب، والتشريع. ومن هذه الحصيلة الضخمة بدأ عهد الرينسانس «النهضة» لا شك ولا ريب بشهادة المؤرخين المنصفين.

وقصة الرواد الغربيين لإسبانيا، وتلقيهم العلم في جامعاتها أمر معترف به، فمن مدرسة طليطلة في القرن الحادي عشر أخذ العربية المستشرق سكوت رئيس مكتبة فردريك الثاني من مدرسة أشبيلية ١٢٠٤ تخرج كبار العلماء الغربيين، وبقيت اللغة العربية لغة الثقافة والمعاملات والعقود حتى عام ١٥٨٠. وظلت بعض قرى بلنسية تتكلم العربية حتى القرن التاسع عشر[١]. ومن آثار المسلمين في فرنسا مدرسة الطب في مونباليه ١٢٢٠، ومن هذه المدينة نشرت ترجمة القرآن باللاتينية في المجلة

(١) نجيب العقيقي: كتابه المستشرقون ص ٢٨ ـ بيروت ١٩٣٧.

الآسيوية، وانتشرت فلسفة ابن رشد وابن سينا والرازي إلى جامعات لومباردي وسويسرا ولوفان. وقد بدأت فعلاً نهضة ترجمة مشابهة للنهضة التي قام بها المسلمون أيام المأمون، حيث بدأت في طليطلة أكبر مراكز الترجمة والنقل منذ أوائل القرن الحادي عشر (فقد استرجعها الإسبان ٤٧٨ هـ ـ ١٠٨٥ م).

ترجم الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية إلى اللاتينية. فقد أصبح بلاط الفونس السادس مفتاح باب الثقافة الإسلامية لأوروبا، وبه ظهر روبرت انجليز (Robert Anglieus) أول مترجم للقرآن، ثم ظهرت أول مدرسة للترجمة في طليطلة ٥٣٠ هـ ـ ١١٣٥ م التي أنشأها الأسقف ريموند الأول، واستمرت حتى عام ١٤٨٢ وجذبت إليها الأساتذة من أنحاء أوروبا أمثال: ميخائيل سكوت، وروبرت أوف جستر. ثم ظهر في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الفونس الحكيم أكبر رسل الثقافة الإسلامية، وتنافست أشبيلية ومرسية في ترجمة العلوم والطب، وأنشأ جماعة المبشرين أول مدرسة للدراسات الشرقية في طليطلة عام ١٢٥٠ فدرست الفلسفة والفقه الإسلامي[1].. ولم يقف الأمر عند ترجمة الآثار اليونانية المعربة، بل ترجمت الآثار العربية ذاتها، فإن (روجر بيكون) يقول: إن الفلسفة أخذت عن العرب، وأن كتابات أرسطو لم تفهم، ولم تلق رواجاً في الغرب حتى أوضحتها كتابات ابن رشد وابن سينا. وترجمت تعليقات ابن رشد مع أرسطو ولاقت رواجاً حتى صارت تهدد الكنيسة، وترجمت كتب الكندي وابن عربي والغزالي.

وتأثر الغربيون بآثار هؤلاء الكتاب، فمنهم من تشيع لابن رشد أو للغزالي. وقد تأثر توماس أكوانياس الكاثوليكي بآراء الغزالي. أما ابن رشد

(١) تاريخ الحضارة العربية: ناجي معروف. وعبد العزيز الدوري: بغداد ١٩٤٨.

فقد أقام معارك وصراعاً لا حدّ له، امتد حتى القرن السادس عشر وأثرت فلسفته في نشوء العلم التجريبي الحديث.

ويعد الراهب جربرت (سلفتسر الثاني) الفرنسي أول من قصد الأندلس طلباً للعلم في مدارس أشبيلية وقرطبة. وقد كان اهتمامه بالتشريع الإسلامي والفقه. وقد انتخب حبرا أعظم عام ٩٩٩ - وكان له دور كبير في تطعيم الفقه الروماني القديم بالشريعة الإسلامية.

والكلام عن أثر الفكر الإسلامي في الثقافة الأوروبية طويل[١]. ومتشعب. وهو لا يقف عند ميدان معين من ميادينه. ففي مجال الفلسفة والدين والفقه. وفي مجال الأدب. وفي مجال الموسيقى، وفي مجال الطب والحساب والكيمياء، والفلك وعلوم البحار له آثار واضحة شهدُ بها كل المنصفين من الباحثين.

وجملة القول أن هناك ثلاث جبهات اجتاز الفكر الإسلامي منها إلى أوروبا بمختلف عناصره الأدبية والعلمية والفلسفية: منطقة الشام خلال الحرب الصليبية وما بعدها (١٩٠٨ م - ١٣٠٠) وصقلية في عهد الأغالبة (٨٣١ - ٩٠١ م) وإسبانيا في عهد الإسلام (٧١١ - ١٤٩٢ م) وقد أقام الإسلام في إسبانيا ٨٧١ عاماً.

ولذا كان هذا الفكر الإسلامي - الذي هو البذرة الأولى للثقافة الغربية، والحضارة الحديثة ضحية اتهام خطير. فإن الفكر الغربي لم يلبث أن اتخذ منه سلاحاً لمقاومة الإسلام نفسه، ومحاولة القضاء عليه في معركة من التحدي. تعددت ميادينها، واتسع مداها على النحو الذي تكشف عنه الفصول التالية.

---

(١) اقرأ كتابنا: شخصيتنا العربية، أو كتاب صفحات من أمجادنا، أو كتاب الفكر العربي الإسلامي.

(٢)

بدأت معركة التحدي منذ اليوم الأول الذي استطاع فيه الغرب أن يسيطر على عصارة الفكر الإسلامي، ويجعلها ركيزته الأولى لبناء النهضة. وقد شملت هذه المعركة العالم الإسلامي كله كمنطقة خصبة واسعة تمر بفترة من فترات الضعف والركود، ويجد فيها الغرب خاماته وأسواقه، ويتطلع إليها كجزء من مخططه في الاستعمار والغزو لكل ما سوى أوروبا.

وقد حملت النهضة الغربية في تضاعيفها عوامل التحدي للإسلام كرد فعل لقوته الذاتية التي استطاعت أن تديل من الغرب في أكثر من معركة، وأن تهزمه في عديد من المواقع.

وإذا كانت معركة الغزو الغربي للعالم الإسلامي، قد حملت عديداً من الخطط الفكرية التي أريد بها تمزيق وحدته، أو إخضاعه للسيطرة الاستعمارية. تمثلت في دعوات التجزئة والتغريب والقوميات الضيقة، والفرعونية والفينيقية والبربرية. فإن الخطة الكبرى فيما يبدو كانت في مواجهة الإسلام بالذات. كعامل ضخم يحول بين الاستعمار والنفوذ الأجنبي، وبين تحقيق أهدافه في السيطرة الكاملة على معتنقيه. ذلك أن الإسلام في صميم تعاليمه يحمل قوة للمقاومة والدفاع عن النفس لا حدّ لها. وقد كان تاريخه كله معركة متصلة لدفع الغاصبين والمعتدين.

فضلاً عن أن الإسلام لم يكن في صميم تعاليمه ديناً فحسب، ولكنه كان ديناً ومجتمعاً وحضارة، متصلة بشؤون الحياة والحكم والفكر، وهو بطبيعته قادر على مواجهة تطور الأزمان، واختلاف البيئات والأقطار، وله من القدرة الذاتية ما يمكنه من التبلور والتناسق. بحيث لا يتوقف ولا يجمد ولا يتعارض مع طبائع الأمم في حركتها الدافعة الممتدة عبر العصور. بل إنه في صميم تعاليمه قد حمى الحضارة وتألفها، واستمد من

حضارات الفرس والرومان، واليونان والهنود، كل ما فيها من عناصر القوة وأضافها إلى نفسه، ووسع بها كيانه، وظل مع ذلك محتفظاً بملامحه الأصلية وشخصيته الواضحة. كل هذا كان من شأنه أن يدفع النفوذ الغربي إلى مقاومة الإسلام الذي يقف حجر عثرة ضد توسعه وتسلطه، واستمرار هذا التوسع والتسلط إلى الأمد الطويل الذي قدره الاستعمار للسيطرة على العالم الإسلامي.. وخاماته وقواعده وموانيه وأرضه.

فإذا أضيف إلى عامل الإسلام «كقوة مقاومة» عامل التعصب الذي يحمله الغرب منذ هزيمته في الحروب الصليبية، وما تبع ذلك من توسع جديد للقوى الإسلامية. امتد على طول جبهة واسعة في آسيا الصغرى، ومنها امتد حتى بلغ نهر اللوار، كان موقف النفوذ الغربي عنيفاً في حملته على الإسلام، فقد نشأ جيل في الغرب يحمل عناصر الحقد على الإسلام والعالم الإسلامي، وارتبط هذا الجيل بدراسات في المدارس والمعاهد، ودراسات تخصص تحمل «التعصب» صورة الفكر، وترى في الإسلام رأياً مظلمًا بعيداً عن الحق، وتؤمن بأن كل ما سوى أوروبا عبيد وبرابرة. وأن الجنس الأبيض هو الذي يحمل لواء الحضارة، وله وحده السيطرة والحكم، وأن كل الشعوب غير البيضاء لا حقّ لها في الحياة.

وكان للكنيسة دورها الضخم في تأريث هذه الحملة الضارية على الإسلام. مما كان له أبعد الأثر في انعدام النظرة الصحيحة للإسلام وأهله. فلقد بدأت قوى التبشير المؤيدة بالعلم والمال تعمل، وتتخذ مراكزها في قلب العالم الإسلامي. كمقدمة للغزو العسكري والسياسي، وهي تحمل معها فكراً مضطرباً بالغ التعصب في إنكار فضل المسلمين على الحضارة، وإلغاء دورهم إلغاء من المدنية، وتغليف حقائق التاريخ بطابع الحقد. فالقرآن الكريم الذي ترجمه القساوسة قصد به التحريف. وأريد به أن يكون سلاحاً لحرب الإسلام. وسيرة النبي ﷺ زيفت، واتخذت

الروايات الضعيفة أسساً لتصوير حياة محمد في صورة بعيدة كل البعد عن الحقيقة، واتهمت أصول الإسلام وقيمه بالضعف والاضطراب، وأضيفت الشكوك والاتهامات إلى كل تاريخه الناصع، وهوجمت شريعته ووصف بالاضطراب والتخبط.

وقام على هذا العمل علماء لهم أسماء لامعة، استخدموا لهذه الحملة الضخمة على رأسهم فولتير، ورينان، ولامنس، وزويمر.

وقد حملت بعثات التبشير التي انبثت منذ عام ١٨٣٠ في أنحاء العالم الإسلامي. هذه الأفكار لإذاعتها في المسلمين أنفسهم، لتشكيكهم في دينهم ونبيهم وتاريخهم ولغتهم.

* * *

أما العلماء الذين حملوا أمانة الدراسات الإسلامية. فقد كان أغلبهم متصلاً بالدوائر السياسية الغربية، ووزارات المستعمرات التي كانت تتخذ من حملة التعصب والتغريب، وسيلتها إلى هدم القيم الأساسية للإسلام في العالم الإسلامي كوسيلة من وسائل دعم نفوذ الاستعمار، وتأكيد مركزه، وهؤلاء المستشرقون لم يكونوا في الواقع يتخذون روح العلم في أبحاثهم، فينظرون إلى القضايا نظرة مجردة خالصة من كل هوى نفسي، للوصول إلى الحقيقة أينما تكون الحقيقة، ولو فعلوا لكانوا أقرب إلى الإنصاف. فإن سلامة تعاليم الإسلام ومقاصده وقيمه كفيلة بأن تقنع الباحث المنزه عن الهوى، ولكنهم كانوا في الأغلب يضعون فروضاً معينة. أملاها الغرض الذي يهدفون إليه، أو التعصب. ثم يحاولون التماس الدليل إلى هذا الغرض، وهم في سبيل الحصول على هذا الدليل يخالفون أبسط قواعد البحث العلمي النزيه، فيأخذون جزئيات من الآيات والأحاديث، ويحاولون أن يفسروا ما يصلون إليه في تعسف على حد تعبير الدكتور

حسين الهراوي[1]. فإذا وجدوا في القرآن الكريم ما يهدم نظريتهم تجاهلوه، والتمسوا الآيات التي تتناسب والمعنى المراد، ولا مانع من بترها إذا اقتضى الحال، أو تحريف معناها حسب الرغبة، فيخرج القارىء من كلامهم وهو يَتَّهِمُ الإسلام بالتلفيق.

ونحن هنا لا ننكر فضل الاستشراق والمستشرقين المنصفين، وأثرهم البعيد المدى في بعث التراث العربي، ولكنا نقصد منهم من عملوا في خدمة أغراض الاستعمار. ولقد روى نجيب العقيقي في كتابه (المستشرقون) أنباء المستشرقين الذين كانوا يتطلعون إلى تشجيع الملوك والأمراء، وكيف كان الملوك يريدون منهم أمرين[2]:

الأول: الوقوف في وجه طغيان العرب على الغرب وقوفاً سياسيًّا ودينيًّا.

الثاني: الأخذ بثروة الشرق الأدبية التي كانت أساساً للثقافات الغربية طوال قرون.

نتيجة لهذا اتخذ هؤلاء المستشرقون أمناء سر للملوك. وانتدبوا سفراء وقناصل وتراجمة وموظفين في سلك الجيش والسياسة إلى بلدان الشرق، ومنحوا ألقاب الشرف الفخمة كبارون، وكنت. ومنحوا كراسي التدريس في أشهر الجامعات، وعضوية المجامع العلمية الكبرى.

وقد أشار الباحثون الذين عرضوا لدراسات المستشرقين إلى ما تتسم به كتابات هذا الصنف منهم بالتعصب فإذا كتب المستشرق المسيحي عن ديانات الشرق غير المسيحية، فإنه لا يكتب بذلك القلم الذي يكتب به في الأدب والأخلاق والتاريخ، لأنه لم ينس دينه ساعتئذ. فالتعصب الديني من

---

(١) كتاب المستشرقون والإسلام: للدكتور الهراوي.

(٢) ص ١٩٧ ـ نفس المصدر.

أبرز عوامل الانحراف في كتابات المستشرقين يضاف إلى ذلك أخطاء الترجمة والنسخ. فقد ترجم كازنوفا كلمة (أمي)، بكلمة شعبي، وترجم كازميرسكي قول الله للملائكة ﴿ اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبىَ ﴾ ترجمها (أعبدوا آدم). فضلاً عن ضعف الحاسة الفنية والذوق في مفاهيم البلاغة العربية. فقد جمع (جب) لورد على لوردين، وجمع (وستفلد) قطار على قطران. ولقد كان تطبيق مفاهيم الغرب للمسيحية على الإسلام خطأ من أكبر الأخطاء، فليس الإسلام كالمسيحية في مفاهيمه ومقوماته، ولم يقف الإسلام يوماً إزاء النهضة، ولم يقاوم العلم، ولقد كان الإسلام دائماً ديناً ودولة. ولذلك فقد كان من الظلم أن يحمل مفكرو الغرب على الإسلام نفس المعاول التي حملوها في محاربة المسيحية إبان عصر النهضة بغية إقصائها عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد أن تبين عجزها. . وجمودها عن مسايرة التطور. وبعد أن فسدت أساليب الكنيسة، وظهرت أخطاء رجال الدين، في تسلطهم واستبدادهم وجحودهم ووقوفهم في وجه الحرية والنهضة، وغلوهم في التعصب.

ولقد كان الإسلام إزاء النهضات والحضارة متطوراً دائماً وقادراً على الاستجابة للبيئات المختلفة والعصور المتوالية. وقد دخل هذه التجربة من قبل. ولم يكن له كهنوت ولا وساطة بين الله والخالق.

وإذا كان ثمة مغمز، فإنه لم يكن في الحق بالنسبة للإسلام كدين، وإنما كان للمسلمين أنفسهم. فقد كان الإسلام أبان الغزو الغربي محجوباً بالمسلمين.

أما الإسلام في جوهره ومقوماته وأصوله. فقد ظل حياً نابضاً بالحياة. هادياً مضيئاً طوال القرون، يعطي الإيجابية والحرية والقوة. ولكن الأمر كان في انصراف المسلمين عن مفاهيم الإسلام، وضعف الحكومات، وسيطرة الحكومات العثمانية أربعمائة عام، متخلفة في ميادين الحرب

والسياسة، مما أحل عصراً من الضعف والركود، والتواكل والقوقعة، وظهور طبقة من العلماء الجامدين التقليديين الذين أغلقوا باب الاجتهاد وأمنوا لصاحب السلطان، مما خلق عثاءاً رقيقاً من البدع والخرافات التي نسبت إلى الإسلام بغير حق، والتي حجبت في نظر الغربيين جوهره ونقاءه، وحملت في ظلها طبقة كثيفة من الزيوف.

(٣)

اصطنع الغرب في معركة التحدي للإسلام قوى ضخمة. كان أبرزها الكتاب المتعصبون من المستشرقين وإرساليات التبشير، وزوار العالم الإسلامي غير المنصفين الذين كانوا ينقلون صوراً سريعة قائمة على الاستعلاء، والتعصب. وكانت بعض الصحف الغربية أدوات رئيسية في هذه المعركة. وفي مقدمتها (جريدة التيمس) التي يمكن القول بأنها من أشد الصحف الغربية عداوة للإسلام، وتأريثاً لضرام الحملة عليه.

ويمكن القول بأن قوة الكلمة كانت تسبق حركة الإرساليات التبشيرية، وهي الأداة القوية لإمدادها بالوسائل التي تتيح لها النجاح في مهمتها.

وقد تمثلت هذه الكلمة في تأكيد السيطرة الغربية على العالم الإسلامي، واتسع نطاقها في مختلف ميادين: القومية والسياسة والاجتماع والتعليم، وكان ميدان الدين بالذات، والإسلام على وجه الخصوص أوسع ميادينها، وهو ما عنينا بالكشف عنه في هذه الدراسة على أن يكون للميادين الأخرى مجالها في دراسات مستقلة.

فالاستشراق الذي بدأ أول أمره لخدمة الكنيسة، ولترجمة القرآن، والرد عليه لم يلبث أن وسع نطاقه في خدمة الاستعمار، وعمد إلى مقاومة الامتداد والتوسع الإسلامي. هذا الامتداد الذي عبر إلى أوروبا، وسيطر

على إسبانيا، واجتاح جنوب فرنسا حتى توقف في معركة بواتيه (بلاط الشهداء)، ونفذ إلى جزيرة صقلية، وأخذ يسيطر على جنوب إيطاليا معقل المسيحية، وكان من نتيجة ذلك أن تألف عام ١٣١١ مؤتمر فينًا الذي ترأسه البابا كليان الخامس، وتقرر فيه تأسيس مدارس خاصة في برلين، وبولون، واكسفورد، وسلمنكة تـدرس فيها العربية والعبرانية والكلدانية لتخريج وعاظ يستطيعون تنصير المسلمين أو تشكيكهم في عقائدهم.

ومن ثم فإن البعثات التي حملت طابع العلم إلى العالم الإسلامي لم تكن خـالصة لـوجه العلم وحـده، وإن اختفت وراء أسماء الجـامعات والمعاهد العلمية. وإنما كانت بعثات سياسية تقدم تقاريرها إلى وزارات المستعمرات، وكيف كانت بعثات علمية في صحراء سينا، وجزيرة العرب قبل الحرب العالمية الأولى كمقدمة للغزو الذي قاده «لورانس» نفس الرجل الذي كان يدرّس علم الآثار في هذه البعثات العلمية.

ولم يقف الأمر عند هذه المدارس. بل توسع فيها بعد إلى إنشاء معاهد لتكوين من يعملون في السفارات والقنصليات والإرساليات. وقد صيغت لهذه المعاهد دراسات قوامها اللغة والدين والإسلام وفق مناهج مليئة بالشكوك والاتهامات تطبع هؤلاء على الاحتقار والكـراهية والمقت لكل ما هو إسلامي عربي.

* * *

أما «التبشير» فهو إحدى الحركات الكبرى للغزو الثقافي. وقد سبق الاستعمار، ومهد له، ثم سار في ركابه، ونفذ خطة واسعة للقضاء على العقائد والقيم والثقافات الأساسية للعالم الإسلامي والأمة العربية.

واتخذ التبشير سلاح المستشفى والمدرسة أساساً لعمله، مستعملاً جهل الشعوب وفقرها. وقد بدأ التبشير عمله ١٨٣٠ (وهو نفس التاريخ الذي بدأ فيه احتلال فرنسا للجزائر) بعد أن أقره البابوات، ورسموا

خطته، ووضعت الدول الاعتمادات الضخمة له في ميزانياتها. وقد اتجه التبشير إلى لبنان ومصر، واتخذ منها مركزين للوثوب على العالم الإسلامي، ولم يلبث أن وسع نطاقه عن طريق المرسلين الأمريكيين واليسوعيين (١٨٢٧ م بيروت - ١٨٥٥ م أسيوط).

ولم يكن من المتصور أن المبشرين في إنشائهم للمعاهد والمستشفيات والأندية، ومؤسسات البر والإحسان في ظل الاعتمادات الضخمة، والنفوذ القوي الذي يحميهم يقصدون الإحسان أو التعليم مجرداً. لذلك كان المبشرون دائمًا هم الطابور الخامس لأممهم، وعيونها على أهل هذه البلاد. وكان من عملهم الأساسي بث الفتن والقلاقل، وإثارة الاضطرابات التي من شأنها التمكين لدولهم في السيطرة على العالم الإسلامي. وقد اشتغل المبشرون بدراسات الفكر والتاريخ وعلوم الإسلام، وكانوا أوضح تعصباً، وأصرح في استهدافهم القضاء على مقومات العالم الإسلامي، وخصائصه، وإثارة الشبهات حول الإسلام، وخلق جو من الاضطراب الفكري الذي إن لم يحقق نقل المسلمين من دينهم إلى ديانة أخرى، فلا أقل من أن يزعزع عقائدهم الأساسية، وينقلهم إلى صفوف الملحدين.

وكان الهدف من هذا العمل القضاء على المقومات الأساسية التي تدفع إلى مقاومة الاستعمار والوقوف في وجهه بأسلحة الإسلام. ومن ثم تنشأ طبقة من المؤمنين بالفكر الغربي المعجبين بالحضارة الغربية، وما تحمله من عقائد ومذاهب، ومن ثم يستطيع هذا الرعيل أن يحكم ويسيطر على مراكز القيادة. وبذلك تزول نهائياً معركة المقاومة، ويستسلم العالم الإسلامي للغرب على أساس من الاعجاب والتجاذب والالتقاء مع القيم الجديدة بعد إقصاء قيمه الأساسية.

ذلك أن هذا الخضوع كان هو أساس بقاء الاستعمار والنفوذ الغربي في العالم الإسلامي بعد أن تنتهي المعركة العسكرية أو السياسية، وبعد أن

تنسحب أيضاً القوى المحتلة، حينئذ يجد النفوذ الأجنبي من الأجيال التي رباها وكونها في معاهده ومدارسه وجامعاته خير من يحمل لواء الولاء له، والإيمان به.

وبذلك تنتهي حقيقة قيم الإسلام القائمة على حرية الفكر. والتحرر من سلطان العقائد والمذاهب الأخرى، وبقاء عنصر المقاومة للمستغل والمستبد أساساً حقيقياً للفكر الإسلامي.

ومن هنا كان نفوذ التبشير أخطر أثراً في حملة التحدي في ظل ذلك المخطط التي رسمته الإرساليات التبشيرية، وعملت على تنفيذه فعلاً وهو:

* تشويه الإسلام والثقافة الإسلامية، والتشكيك في الأديان بصفة عامة.
* إفساد الخصائص القومية في العالم الإسلامي والعربي.
* خلق تخاذل روحي وشعور بالنقص مما يؤدي إلى الخضوع للمدنيّة الغربية.
* توسيع شقة الخلاف بين الأديان والمذاهب والطوائف. وإثارة النزاع، وتأجيج نيران الخلاف كلما هدأت.
* إخضاع العالم الإسلامي للاستعمار الغربي.
* اخضاع الثقافة والفكر الإسلامي للفكر الغربي.
* إعداد شخصيات قيادية لا تقاوم النفوذ الأجنبي، بل تؤيده.
* القضاء على اللغة العربية بتغليب العامية، والكتابة بالحروف اللاتينية.

ويمكن القول بأن نفوذ التبشير كما تصوره الرسائل العديدة، والأبحاث المختلفة، قد استطاع أن يصل لما يحقق جانباً كبيراً من رسالته في التشكيك في القيم الإسلامية، والتهوين من شأنها، وإدخال عناصر البلبلة والاضطراب إلى اللغة والدين والتاريخ. وغرس ثقافات متعددة متصارعة لخلق أجيال من مضطربي العقائد الذين لا يقيمون وزناً لتراثهم ولأمجادهم، ولا للغتهم، ومن المتسامحين مع الاستعمار والمتغربين.

وقد استطاع التبشير بقوة الكلمة، وبنفوذ الحكومات التابعة، والصحف، والبعثات أن يصل إلى شيء كثير مما أراد.

وإذا كان التبشير لم يستطع أن يحقق بعض ما كان يتطلع إليه بعد مائة عام، وهو تحويل مجموعات ضخمة عن دينها الأساسي، فإنه استطاع أن يحقق هدفاً لا يقل خطراً، وهو إثارة الشبهات، وخلق جو من الإلحاد والتحلل والتنكر للقيم الأساسية.

وقد أشار إلى ذلك «زويمر» في تقريره الذي نشر في ١٢ إبريل ١٩٢٦م يقول: «لقد جرّبت الدعوة إلى النصرانية في أنحاء كثيرة من الوطن الإسلامي، وأن تجاربي تخولني أن أعلن أن الطريقة التي سرنا عليها لا توصلنا إلى الغاية التي ننشدها. فقد صرفنا من الوقت شيئاً كثيراً. وأنفقنا من الذهب قناطير مقنطرة. وألفنا ما استطعنا أن نؤلف، وخطبنا، ومع ذلك فإننا لم ننقل من الإسلام إلى النصرانية إلا عاشقاً بنى دينه الجديد على أساس الهوى، فالذي نحاوله في نقل المسلمين إلى النصرانية هو باللعب أشبه منه بالجد. وعندي أنه قبل أن نبني النصرانية في قلوب المسلمين أن نهدم الإسلام في نفوسهم. حتى إذا أصبحوا غير مسلمين سهل علينا أو على من يأتي بعدنا أن يبنوا النصرانية في نفوسهم. إن عملية الهدم أسهل من عملية البناء في كل شيء إلا في موضوعنا هذا، لأن هدم الإسلام في نفس المسلم معناه هدم الدين على العموم».

ولعل هذا هو سر الحملات الضخمة التي شنها الفكر الغربي على الأديان، وهو يقصد بها أيضاً الحملة على الإسلام ذاته. ومن هنا نشأ ما أطلق عليه «حركة التغريب». وهي تحويل المسلمين عن مقومات دينهم على مراحل. وخلق الشبهات المختلفة أمامهم في مختلف ميادين الفكر والاجتماع حتى يتخلصوا تخلصاً كاملاً من القيم الأساسية لشخصيتهم الإسلامية، وهذا ما وصفه «خالد شلدريك» بالحرب الصليبية الجديدة.

ومن هنا حق لنا أن نكشف النقاب عن هذه التحديات لنعرف عمق جذور الهدف الذي يرمي إليه النفوذ الأجنبي في العالم العربي، عارضين ميادين هذه التحديات، وكيف اندفعت هذه الأقلام في تعصب أو جهل لخدمة أهداف الاستعمار الأساسية من محو معالم القيم الأساسية للإسلام، وإحلال قيم أخرى بدلاً منها. وإذا لم يكن ممكناً تحويل المسلمين إلى أديان أخرى، فلا أقل من تشكيكهم في أصول دينهم، وإسباغ جو من ضباب الشبهات من حولهم.

إن كل ما نهدف إليه هو إيقاظ الفكر الإسلامي لمواجهة الخطر الذي يراد به لكشف الحقائق وتصحيح الأوضاع.

مراجع الفصل

الإسلام وآسيا : أوجيه يونج............١٩٢٨ ـ القاهرة

الغارة على العالم الإسلامي: أ. ل. شانليه ترجمة محب الدين الخطيب..........١٣٥٠ القاهرة

المستشرقون : نجيب العقيقي..........١٩٣٧ بيروت

الإسلام والاستعمار : أنور الجندي............١٩٤٨ القاهرة

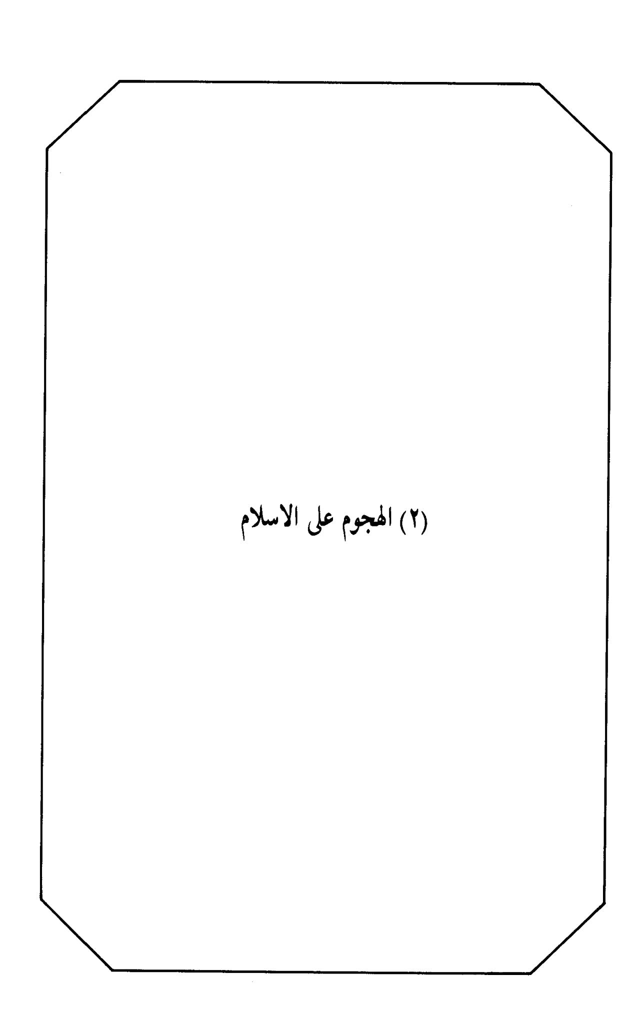
تاريخ الحضارة العربية : ناجي معروف وعبد العزيز الدوري..............١٩٤٨ بغداد

المستقبل للإسلام : محمد توفيق البكري.......١٩٠٨ القاهرة

التبشير والاستعمار : عمر فروخ............١٩٥٧ بيروت

الإسلام والنصرانية : محمد عبده............١٣٧٥ هـ مصر

الشرق الجديد : الدكتور هيكل...........١٩٦٢ مصر



(٢) الهجوم على الاسلام



أعلن الفكر الغربي هجومه على الإسلام منذ اليوم الأول الـذي استطاع فيه أن يسيطر على مقاليد هذا الفكر، ويترجمه، ويجعل منه القاعدة الأساسية للفكر الغربي الحديث، ولمعالم الحضارة الجديدة التي بنت قوائمها على الأسس العلمية الإسلامية في عالم الفلك والطب والكيمياء والجبر والحساب والفلسفة.

وكأنما أراد الغرب أن يعلن الفكر الإسلامي، لا فضل له على يقظته ونهضته، وأنه إنما استرد ثقافة الرومان وفكر اليونان القديم الذي ارتبط به منذ ألف سنة في ظل الحضارة الرومانية، الذي جاءت الحضارة الغربية ثمرةله، وكان من رأي علماء الغرب إذ ذاك أن المسلمين لم يكن لهم فضل. إلا أنهم ترجموا تراث اليونان والرومان، ثم استرده منهم خلفاء الرومـانية من أبناء أوروبا، إذن فليس هناك فضل يذكر، إلا فضل حفظ المسلمين لهذا التراث، بل إن بعضهم قد ذهب إلى إنكار حتى هذا الفضل القليل، فاتهم المسلمون بأنهم إنما قصروا في العمل الذي تصدوا له، وأنهم ترجموا علوم الرومان، ولم يترجموا آداب اليونان، وأن هذه الترجمات كانت مليئة بالأخطاء والأغلاط. مضطربة أشد الاضطراب، وأن الذين قاموا بهذه الترجمة لم يكونوا إلا جماعة من النساطرة والمسيحيين.

ومنذ اليوم الأول لترجمة القرآن، ظهرت هذه الترجمات محرفة أبلغ

التحريف، وظهر معها في نفس الصفحات كلمات فيها اتهام لهذا الكتاب ـ المنزل الوحيد، الذي لم يدخله تحريف ـ وقد اتصلت هذه الاتهامات بمعاني القرآن وأصول الإسلام وشرائعه، وبالنبي وحياته وأعماله.

ثم لم تلبث الأيام أن كشفت عن أسماء لامعة لها وزنها في مجال الفكر الغربي. وقد أخذت تتصدى للإسلام نفسه مهاجمة إياه، محاولة إلقاء الشبهات على أصوله وأسسه، في أسلوب مليء بالهجوم العنيف، والاتهام الصارخ على نحو بعيد كل البعد عن منهج العلم أو أسلوب العلماء، ولم تكن هذه الحملة بهذه الصورة القاسية إلا خدمة للإسلام نفسه. فإن كثيرين ممن جذبهم الإسلام إليه، وصحح مفاهيمهم فيه، إنما تأثروا بهذه الحملات وأنكروها، واضطروا إلى أن يعودوا إلى كتب أخرى. ربما تكون أكثر إنصافاً أو بعداً عن التعصب والمغالاة. فلم تلبث هذه الدراسة أن كشفت لهم عن جوهر الإسلام، وضيائه. وفي عصرنا الحديث ظهرت كتابات متعددة تحمل طابع الخصومة العنيفة، التي لا تحاول أن تعرض للإسلام كفكرة مجردة. يمكن أن تدرس دراسة موضوعية لا دخل فيها للهوى الخاص، ولا الدافع المختبىء وراءها حين يتصل هؤلاء الكتاب بدوائر الاستعمار. أو وزارات الخارجية أو غيرها.

فكتابات فولتير إمام حرية الفكر في الغرب عام ١٧٤٢ بمسرحيته عن التعصب أو النبي محمد، ودراسات الأب لامنس اليسوعي، ومقالات «هانونو» في الأهرام سنة ١٩٠٠ التي أثارت المعركة مع الشيخ محمد عبده، وحملات لويس برتران في كتابه (أمام الإسلام) وكتاب مصر والمصريين لدوق داركور الذي رد عليه قاسم أمين بالفرنسية بكتابة (المصريون) وحملة الكردينال لافيجري على «الرق في الإسلام» وقد رد عليه أحمد شفيق باشا وحملات كرومر في كتابه: مصر الحديثة. ومرجليوث في مقاله المشهور: مستقبل الإسلام. وسكوت ورينان وزويمر في كتابه: «الإسلام: ماضيه

وحاضره ومستقبله» وردم لاندو وماسينون. ودكتور واطسون مدير الجامعة الأمريكية (١٩٣٣) وسبيرز.

هذه الحملات كانت تمثل في مجموعها صورة من معركة التحدي العنيف للإسلام. وفق خطة مرسومة، على النحو الذي من شأنه أن يزلزل الرأي العام العالمي في حقيقة الفكر الإسلامي ومفاهيمه، وأن يثير الشكوك والشبهات في أهل الدين نفسه، في ظل نظم التعليم والثقافة التي بدأ الاستعمار يبثها في أقطار العالم الإسلامي المستعمرة فقد نشرت هذه الأبحاث في كل مكان. وقصد أن تصل إلى كل مكان ينتشر فيه الإسلام، أو توجد جماعات المثقفين كالجامعات والمجامع العلمية، ودوائر المعارف حتى توسم هذه الآراء بالسمة العلمية، وتحمل معنى قداسة الكلمة المكتوبة في مجلدات ضخام. ومن هنا ظهرت دائرة المعارف الإسلامية بإشراف المستشرق. فنسنك مشحونة بالأخطاء والأغلاط والاتهامات.

* * *

ومن عجب أن تجد فيلسوفاً عرف في تاريخ الفكر الغربي بحرية الرأي.. كفولتير يكتب عام ١٧٤٢ قصة عن نبي الإسلام، ويقدمها إلى البابا بنو الرابع. وقد أطلق على مسرحيته «التعصب أو النبي محمد» وشحنها بحوادث وشخصيات مفتعلة قائمة على التخيل أكثر مما تقوم على الواقع التاريخي. ثم لم يتحرز من الأخطاء الكبرى لحقائق يعرفها كل من يعرف تاريخ الإسلام، فيجعل الزبير زعيمًا لسادة قريش المناهضين لمحمد. وهو يوجه كتابه على نحو مثير، يفضح دخيلة النفس، ويكشف عن الضعف البشري لكاتب وصف بأنه حر الفكر، فيقول في تقديمه المسرحية:

إلى رئيس الديانة الحقيقية ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية. أضع عند موطىء قدميك الكتاب ومؤلفه. إن صاحب القداسة سيغفر ولا

شك الجرأة التي يأخذ أسبابها أحد المؤمنين المتواضعين في أن يهدي حبر أحبار الكنيسة الكاثوليكية الحقة هذه المسرحية.

ثم يعرف من بعد أن فولتير الرجل الذي حمل على المسيح والكنيسة والأديان على نحو أزعج الدوائر ذات النفوذ قد أراد أن يترضى مرة أخرى هذه الدوائر بمهاجمة الإسلام ونبيه على هذا النحو المزري بكرامة العلم والعلماء، وأحرار الفكر، وبمثل هذه المذلة والمهانة. فضلاً عن انتفاض كل قواعد البحث العلمي أو الواقع التاريخي. وقد كان لعمله هذا أثره الواضح في نفوس من كانوا قد أغرموا في العالم الإسلامي بالحديث عن نزاهة الفكر الحر، فقد فجعوا في كاتب وصف بأنه من مؤججي الثورة يتمسح بأعتاب أصحاب السلطان، ويقدم ثمناً لذلك أفكاره الحرة. وحتى أنصار هذا الكتاب والمعجبون به فقد حاولوا حين كتبوا عنه كفولتير مثلاً أن يتجاوزوا هذه القصة، فلا يعرضوا لها كعمل من أعمال الكاتب له قيمته الفنية أو التاريخية.

أما الأب هنري لامنس اليسوعي: فقد غلب عليه طابع التعصب المذهبي، ولم يتناول أبحاثه من وجهة النظر العلمية المحضة. بل كان حفياً بأن يتهم الإسلام في كل ما يعرض له، على النحو الذي يصطنعه الدعاة لا العلماء. وقد بدأ مذهبه هذا واضحاً في دراساته عن الأمويين، حيث كان ينسب إلى المسيحيين واليهود كل خير وفضل في شبه الجزيرة. أما المسلمون عامة والعلويون خاصة. فقد حرص على سلبهم كل الفضائل، وهو لم ينس عاطفته في كل ما كتب عن النبي، ومن ذلك مؤلفه عن حياة محمد الذي رفضت دوائر الفاتيكان نشره، حيث خيف أن يؤدي ما فيه من طعن، وتهجم إلى احتجاج العالم الإسلامي، ومن أردأ كتبه كتابه (فاطمة وبنات محمد) وهو على حد تعبير الدكتور: «زكي حسن» يتهم رواة السير بأنهم مخترعون، ويضرب كل فريق بالآخر، فإذا رأى

رواية في مصلحة الشيعة اتهمهم بوضعها. وإذا رأى رواية تعلي شأن السنّيّة ألصقها بكتابهم، فضرب كل فريق بالآخر ليقنعك باضطراب هذه العناصر التي قامت عليها السيرة، فإذا وجد في الإسلام موضعاً لفضل نسبه إلى مصدر غير إسلامي، أو فسره تفسيراً ماديًّا، فهو يصف عائشة بأنها «محظية»، ويحرض على استغلال بعض الاضطراب في النصوص العربية التاريخية.

ويقول الدكتور زكي حسن: حسب المرء أن يراجع النصوص التي يبني عليها لامنس كثيراً من أحكامه ليرى كيف كان يجحف في تفسير بعضها، وكيف كان يهمل ما لا يتفق ورأيه، وكيف أنه كان يغض الطرف أحياناً عن المناسبات، فيستنبط من الشواذ قواعد، ومن الحالات الفردية أحكاماً عامة[1].

وقال إن له طريقة غريبة في التهكم على النصوص العربية. فضلاً عن أنه يرهق النصوص، ويحملها أكثر مما تحتمل، ويستنبط منها أكثر مما تفيد، ويغض الطرف عنها إذا كانت تثبت خطأ رأيه. وقد هاجمه المنصفون من المستشرقين أمثال: بيكر وديموبين وماسيه. وقال فييت في نعي لامنس بجلسة ١٠ مايو ١٩٣٧ لأعضاء المجلس العلمي المصري: من الصعب أن تقبل كتاب (فاطمة وبنات محمد) في ثقة ودون تحفظ. فإن التعصب والاتجاه العدائي يسودانه إلى حد كبير. وقد لاحظ المستشرقون هذا التعصب في حينه.

وجملة القول فيه أن يقرأ النصوص ليفسر بعضها على هواه. أو يهمل ما لا يتفق مع رأيه، أو يستنبط من الشواذ قواعد، أو يتخذ من الحالات الفردية أحكاماً عامة.

---

(١) المقتطف (سبتمبر ١٩٣٧) ملحق خاص (في مصر الإسلامية) ص ١٦٢.

وقد حاول لامنس في أبحاثه المختلفة[1] عن حاضر الإسلام ومستقبله أن يثير الشبهات، وأن يتهم الإسلام بالاضمحلال والانهيار، وأن يعلن تشفيه لسقوط الخلافة، وهو حريص على أن يعلن أن الأقطار الغربية الحديثة هي عامل هام لهدم قوى الإسلام وكيانه، حريص على أن يؤجج الخلاف بين السنة والشيعة، ثم بين الحنفية والشافعية والمالكية. وهكذا ثم هو يحاول أن يقسم المفكرين إلى متطرفين ووسط وسلفيين، ثم هو يحاول أن يفض من قدر وحدة الفكر الإسلامي، ويقلل من إحصاء المسلمين.

ثم هو يعلن أن التعليم القرآني في تأخر مستمر، ومطرد في البلاد الإسلامية، وأن تطور التعليم الرسمي في المعاهد العالية والثانوية يتحرر شيئاً فشيئاً من تأثير الدين «حتى يصبح لا دينيًا محضاً» وأن دعاة التطور العصري قد مدوا أصابعهم حتى داخل الجامع الأزهر، فاغتنموا فرصة حاجته إلى الاصلاح، وتدخلوا في إدارة الدروس التي حورت دون نتيجة تذكر وأشار إلى القلق الذي أحدثته آراء الدكتور طه حسين، وحاول أن يصل من ذلك إلى القول بأن الإسلام يتلقى صدمات متوالية من شأنها أن تدفعه إلى الانهيار.

ولهنري لامنس أسلوب مليء بالمكر والتعصب[2]. واللؤم في عرض الاتهامات للإسلام. فهو لا يستطيع أن ينكر أن الإسلام حرم قتل الذرية، ووأد البنات، ولكنه يعرضه على نحو ماكر. حيث يقول إن النبي دفع إلى هذا التحريم «بحنينه إلى الذرية بعد أن صار لطيًا في طفولته» ويستنكر ما نسبته السيرة للنبي من بنين وبنات. فيقول أن كتاب السيرة فعلوا ذلك رغبة في إعلاء شأن النبي. وهو إذا قرأ أن النبي لم يرغم بناته على ترك

(١) نظرة في حاضر الإسلام المشرق (تشرين أول ١٩٣٠).
(٢) الدكتور زكي محمد حسن: المقتطف (ديسمبر ١٩٣٧).

أزواجهن الذين تأخروا عن إعلان إسلامهم، فسره بأن النبي كان يتشرف بهؤلاء الأصهار، ويعمل على الانتساب إليهم، ويحرص على ودهم، وهو أن تكلم عن السيدة عائشة لم يجد من مفردات اللغة الفرنسية العتيقة إلا كلمة: (Fararite) ليصف بها زوج النبي، وأقرب ترجمة لها بالعربية (محظية). وهو يحرص على استغلال بعض الاضطراب في النصوص العربية التاريخية، ليثبت أن الصحابة كانوا لا يقبلون عن طيب خاطر أن يصاهروا النبي، ولكنه يذكر في موضع آخر: أن رقية ابنة النبي كانت جميلة. وأن عثمان بن عفان إنما اعتنق الإسلام ليتزوجها. وينسى لامنس أنه يذكر في موضع ثالث. أن النبي ﷺ كان يحرص على مصاهرة ذوي الحسب والنسب من المشركين، وذهب لامنس إلى أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة استولوا على أزِمَّةِ الحكم بعد وفاة النبي ﷺ. وذلك تنفيذاً لخطة سابقة بينهم.

وقد وصف هنري لامنس بين كتاب أوروبا بالمؤرخ المتحزب على حد تعبير محمد كردعلي. الذي يقول: «لقد أصبح العارفون هناك يأخذون كل قول له بتحرز شديد»[1].

* * *

وإذا تركنا هنري لامنس، وجدنا أمامنا متعصباً خطيراً مثل «فنسنك» وله مبحثان في دائرة المعارف الإسلامية يحملان هذه الروح من الاتهام والتعصب. أولهما عن إبراهيم، وثانيهما عن الكعبة. وقد ترجم الدكتور حسين الهراوي[2] ما قاله عن إبراهيم «كان اسبرنجر[3] أول من لاحظ أن شخصية إبراهيم كما في القرآن مرت بأطوار قبل أن تصبح في نهاية

---

(١) م. سنة ١٩٤٦ مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق).

(٢) الهلال - ١٩٣٦.

(٣) أحد المستشرقين المتعصبين.

الأمر.. مؤسسة الكعبة». وجاء (سنوك هرجونية)[1]. بعد ذلك بزمن، فتوسع في بسط هذه الدعوى. فقال إن إبراهيم في أقدم ما نزل من الوحي هو رسول الله، أنذر قومه كما تنذر الرسل، ولم يذكر لإسماعيل صلة به، ولم يذكر قط أن إبراهيم هو واضع البيت، ولا أنه أول المسلمين. أما السور المدنية. فالأمر فيها على غير ذلك، فإبراهيم يدعى حنيفاً مسلمًا، وهو واضع ملة إبراهيم وقواعد البيت الحرام. وسرّ هذا الاختلاف أن محمداً كان قد اعتمد على اليهود في مكة، فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء، فلم يكن بد من أن يلتمس غيرهم ناصراً هنالك هداه ذكاء مسدد إلى شأن جديد لأبي العرب إبراهيم، وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره، ليصل حبله بيهودية إبراهيم، تلك اليهودية التي كانت مجهدة للإسلام. ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول أصبح إبراهيم أيضاً المشيد لبيت هذه المدينة المقدس «ولا شك أن عبارة فنسنك لها طابع يوحي بأنه باحث دقيق المراجعة لمستندات من آيات القرآن أحصاها ورتبها» ولكنه في واقع الأمر بعيد كل البعد عن الحق.

أما مرجليوث المستشرق البريطاني فإنه يقول في كتابه تاريخ العالم: إننا نشك فيما إذا كنا نعرف شيئاً عن والد النبي. لأن لفظة (عبد الله) تطلق على الشخص المجهول، وربما كان لها هذا المعنى عند إطلاقها على والد النبي، وادعى مرجليوث أن النبي كانت تنتابه النوب، وأن المسلم معناه في الأصل «الخائن». وعلل ذلك بأن هذه الكلمة مشتقة من اسم مسلم. ورغم أن النبي ﷺ عاشر بعض النصارى، فاستفاد كثيراً من القصص، واقتبس بعض أساليب التعبير. وقد ظهر كتاب مرجليوث عن النبي عام ١٩٠٤ ـ وله فصل مطول عن مستقبل الإسلام[2]. رد فيه قول

---

(١) سنوك هرجونية مستشرق هولندي. له أبحاث محملة بالهوى.

(٢) الهلال ـ ص ٩٠ م ١٦.

المؤرخ السياسي برايس الذي قال إنه لم يبق من عمر الإسلام إلا قرنان.

وردد آراء خصوم الإسلام فقال: إن أحد المبشرين في آسيا الصغرى أعلن عام ١٨٧٠ أن الإسلام لا يلبث أن يذوب ذوبان الثلج بين يدي العلم، والتمدن والنصرانية، ونقل عن الدكتور بردين في كتابه عن العرب والإفريكان. إن بعض الأعراب قال: إن الإسلام يذهب بذهاب الدولة العلية. ونقل عن ليز في ختام كتابه عن سياحة في تومبكتو أن الإسلام قد يبقى إذا ترك لنفسه. أما إذا احتك بالتمدن الحديث. فإنه يموت لا محالة. وقال إنه ليس من غرضه تمحيص هذه الآراء، ولكنه يورد ملاحظاته الخاصة التي لاحظها في أثناء زيارته للبلاد الإسلامية، وعنده أنه لا يخلو قول القائلين بسرعة ذهاب الإسلام من وجه يستدعي النظر إذا استطاعوا أن يثبتوا خلوه من عوامل تنازع البقاء التي في النصرانية واليهودية، ثم خلص إلى القول بأن المسلمين في الدولة العثمانية تحت سلطة الأوروبيين، وأن جميع أعمال الحسابات والمال في أيدي أهل الذمة، وأن المسلمين لا عمل لهم إلا تقطيع الحطب، وحمل الماء والعتالة وسوق الحمير، وأن الجيش العثماني يقوده ضباط من الإفرنجة وقال: إن السلطة الإسلامية السياسية قد أخذت في التقهقر منذ مدة طويلة حتى أصبح المسلمون الخاضعون لغير المسلمين عام ١٨٧٠ م نحو ثلثي المسلمين كافة، وأخذت هذه النسبة تزداد بتوالي الأعوام حتى أصبح الآن المسلمون تحت سلطة غير المسلمين. ومنهم نحو النصف تحت سلطة الإنجليز.

أما أرنست رينان فقد حمل على الأديان: وعلى المسيحية بالذات حتى عد من أشد الفلاسفة انتقاداً عليها، ومؤلفاته (حياة يسوع، وتاريخ الرسل). وأصل الإنسانية، والقديس لويس، طافحة بالانتقاد فهو ينكر لاهوت السيد المسيح، ويزعم أنه فيلسوف يميل إلى الأمور الرمزية الغامضة.

وقد هاجم «الساميين» وقال أنه ليس في فطرتهم الفلسفة، ولا البحث عن الجديد ولا المقدرة على السياسة ولا الحرب ولا النظام. وكان هجومه على الإسلام في أول الأمر عنيفاً وعاصفاً. فقد صور النبي محمداً كرجل مخادع، ودجال. وقرر أن الذي أسس الإسلام، وشيد صرحه هو: «عمر» لأنه يماثل القديس بولس في المسيحية... وقال: إن الفلسفة الإسلامية ما هي إلا الفلسفة اليونانية مخطوطة بخطوط عربية، ولم يهضمها العرب. لأن الإسلام لا يسمح بحرية التفكير، وروح النقد. وقال رينان: إن الإسلام بعد كفاح دام عدة قرون ترك قلوب العرب معلقة بين سور مختلفة من التوحيد السامي فهو بعيد كل البعد عن كل ما يصح أن يدعى اعتماداً على النظر العقلي أو العلمي. فالإسلام كان في الواقع مضطهداً دائمًا للعلم والفلسفة. وقد انتهى به الأمر إلى كظم أنفاسها. ومن أجل هذا لم تبد في حضارة الإسلام حركة فكرية ذات طبيعة غير دينية[1].

* * *

أما مستر سكوت فقد ذكر في كتابه عن الإسلام الذي أصدره ١٩١٥ أن المسلمين يرون أن أول واجب عليهم هو: نشر الإسلام، والطريقة التي يؤدى بها هذا الواجب هو: محاربة غير المسلمين حروباً غير منقطعة وذلك لتحويلهم عن دينهم، ولا يمكن أن توجد للمسلمين إلا سياسة واحدة. ووجهة واحدة هي الحروب الدائمة مع غير المؤمنين حتى تتبع الهيئة الاجتماعية شريعة محمد.

* * *

أما كيمون الذي نقل رأيه هانوتو في حملته على العالم الإسلامي. فقد دعا إلى نسف الكعبة، ونقل قبر محمد إلى متحف اللوفر.

---

(١) السياسة اليومية - ١٩٢٣/٤/٥ محاضرة الشيخ مصطفى عبد الرازق عن رينان في الجامعة المصرية.

وليس هانوتو إلا صورة من عديد من كتاب الغرب السياسيين الذين يحملون في تضاعيف كتاباتهم محاولة إخضاع العالم الإسلامي للنفوذ الأجنبي أمثال: لويس برتران في كتابه (أمام الإسلام) الذي يقول فيه أن المسلمين متأخرون وقذرون. ولا شرف لهم، ومتعصباً تعصباً شديداً. وغير قابلين للتمدن إلا بواسطة الغرب الذي يحمل أمانة تمدين العالم. وفي نفس المجرى تجري كتابات دوق داركور (مصر والمصريون) ومثل هذا وفي نفس الخط ما قاله الدكتور راطسون مدير الجامعة الأمريكية[1]. نلاحظ أن المعتقدات الدينية الإسلامية والمبادىء الخلقية آخذة في الانحلال. وأن تلك المعتقدات والمبادىء غير ملاءمة للحالة المتأخرة، أينما وجدت. فالمعتقدات القديمة آخذة في التفكك. لأن الجيل الناشىء الذي نتصل به نراه مهتمًا كل الاهتمام، لا بالإسلام، بل بالمسائل المادية وبالإلحاد.

وأن «الإسلام» آخذ في الانحلال باعتباره قوة لضبط الحياة والأخلاق، ولكنه حيثما لا يزال يقاوم فأمر غير وافٍ، وهو من الناحية الكلامية متناقض مع العلم أشد التناقض من الناحية الخلقية ولم يبحث قط ظروف الحياة المدنية.

وقال إننا في سياستنا الدينية نهتم بالمحتويات، لا بالأسماء. فنحن نسر حين نستطيع أن نجعل فتًى مسلمًا يقبل مبادىء المسيحية، ووحي المسيح ودعوة الناس لاتباع الله وطريقه في الحياة. فإن هذه المبادىء تنمو بنفسها في حياة ذلك الفتى، فلا بد من يوم يأتي إليه فيه من يسميه باسم آخر يميز طابع حياته عن الطابع العادي للعالم الإسلامي. إن الطالب الذي يتركنا يمكنه أن يعتبر نفسه مسلمًا غير أنه في هذه الحالة يكون شخصاً آخر غير الذي جاءنا.

---

(١) السياسة الأسبوعية: ١٠ يوليه ١٩٣٣.

وقال إن خطيب جبل الزيتون أعلن أن الغرض هو قتل الإسلام لاستعباد المسلمين، كما أعلن أن السياسة الاستعمارية لما قبضت من نصف قرن على برامج الدين في المدارس الابتدائية. أخرجت منها القرآن الكريم، ثم تاريخ الإسلام. وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا مسيحية ولا يهودية، ناشئة مضطربة مادية الأغراض، لا تؤمن بعقيدة، ولا تعرف حقاً، فلا للدين كرامة، ولا للوطن حرمة، وقال مدير الجامعة الأمريكية أنهم يراقبون سير القرآن في المدارس الإسلامية، ويجدون فيه الخطر الداهم، فالقرآن، وتاريخ الإسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير المسيحية.

* * *

وهكذا امتدت هذه الحملة من نطاق البحث العلمي إلى الصحافة إلى المؤلفات المختلفة، وبرز قادتها الفرنسيون والإنجليز والأمريكيون من المسيحيين واليهود جميعاً، ولم تقف عند هذا الحد، بل تعدته إلى دوائر المعارف المختلفة وجميعها تحمل هذه المعاني، وأبرزها دائرة المعارف الإسلامية. وقد عرضنا لصورة من مباحثها فيما كتب فنسنك في مادة «إبراهيم».

وقد حملت مواد هذه الموسوعة «نزعة من التعصب» على حد تعبير ـ (محمد كرد علي) في خطابه إلى صديقه «هوتسما»[1] الهولندي رئيس تحريرها. وأن هذه المواد ممثلة في كتابات: لامنس (البلجيكي)... وكراتشكوفسكي (الروسي) وهوار (الفرنسي).

ومنهجهم في ذلك[2] هو تحريف آيات القرآن الكريم، وحذف ما لا

(١) مذكرات محمد كرد علي جـ ٣ صفحة ٨٤٢.
(٢) مجلة المجمع العلمي العربي م ٢.

يرزقهم، وخلط الآيات القرآنية بأبيات من الشعر، وجعل الأحاديث النبوية من كلام بعضهم، فهم مثلاً يقتطعون جملة واحدة من نص طويل، أو يوردون الخرافات المنقولة من كتب الوضاعين والقصاصين، ويدعون أنها منقولة من كتب الثقافات.

كما تعمد كتاب دائرة المعارف تجاهل كثير من الأعلام. وقد أحصى كرد علي من هؤلاء كثيرين منهم: عبد الحميد الكاتب، وأحمد بن يوسف، وعمرو بن مسعدة، وعبد القاهر الجرجاني، وأبو عبد القاسم بن سلام. وأبو هلال العسكري، وابن الخياط الكفيف. وابن خاتمة الأندلسي، وابن عيينة، وابن الصيرفي، والداهراتي. وملك اليمن المؤلف عمر بن يوسف، وعمارة بن حمزة، وابن طولون الصالحي. ووصفها الباحثون[1] بأنها ناقصة فيها عبارات نابية عن الحق مغموسة بالتعصب.

* * *

وإذا كنا نتجاوز عن كتابات أمثال دوق داركور مثلاً الذي يقول في كتابه: (Egyple dles Egypt lens) (I) إن السر في تأخر الفكر في مصر يرجع إلى الإسلام. فالدين هو السبب الأساسي لهذا التأخر الذي لحظه في كل بلد إسلامي. ذلك لأن الإسلام لا يحض على البحث في العلوم غير الدينية. وبذلك احتقر المسلمون علوم الغرب، واعتقدوا أن القرآن قد حوى بين دفتيه علوم الأولين والآخرين. وأن كل ما عداه باطل... إذ كنا نتجاوز عن هذا. لأن كاتبه رجل سياسي متصل بنفوذ دوائر الاستعمار. أو نتجاوز عن أقوال كرومر باعتباره ممثلاً لدولته، وليس مفكراً.

أو نتجاوز عن قول القس صمويل زويمر في كتابه عن (الإسلام: ماضيه وحاضره ومستقبله) لأنه «مبشر» وداعية لدينه في قوله: مثلاً لقد

(١) صدر عام ١٨٩٣.

تساءل اللورد كرومر مرة، هل يبقى الإسلام إسلاماً إذا دخل عليه الإصلاح. فأنا أقول بصفة قطعية. إنه لا يبقى كذلك. لأن الاصلاحات تجهز عليه، فالأركان الأساسية الموجودة في الدين الإسلامي كالحج. وتعدد الزوجات. والطلاق لا تستطيع الثبات في وجه تيار المدنية الغربية الجارف.

مثل هذا أو غيره قد يحتمل، وإن كان يمثل جزءاً من حملة التحدي الضخمة المتسعة الأطراف المنبثة في الآفاق، لتشويه الإسلام وهدم مفاهيمه، وتزوير معالمه في نظر الغربيين أولاً والمسلمين بعد ذلك. ولكن كيف يقبل مثل هذا التزوير من العلماء. فالمسيو «سينوبوس» أكبر مؤرخي فرنسا. وقد أمضى أكثر من ستين عاماً يتعلم التاريخ ويعلمه، ومع ذلك فما استطاع أن يتحرر من لوثة التعصب. فهو يقول: في كتابه «تاريخ الحضارة» أن صاحب الرسالة كان رجلاً جباناً سوداوياً تنتابه عوارض من الحمى وتعروه نوبات عصبية.

أو «دوزي» مثلاً الذي يقول: إن معظم آيات القرآن الكريم كتبت بلغة عربية تكاد تكون آية في الركاكة.

أو قول صاحب كتاب فلسفة الحضارة، نقلاً عن (جيبون) في كتابه عظمة المملكة الرومانية وانحطاطها من أن الفاتحين من العرب في ديار الغرب كانوا من أبناء النصرانيات اللائي تزوجن من المسلمين فأخذوا منهن أطهر ما في الدم المسيحي، ولئن دانوا بالإسلام وهم عرب بألسنتهم وأسمائهم، وأصول آبائهم، فإنهم لم يكن في دمهم من الدم العربي غير واحد من ستة عشر فقط. أو أن المسلمين عند ما وصلوا إلى شمال أفريقيا ألفوا شرب الخمر.

أو قول يونج إن الجيش الإسلامي الذي غزا فرنسا عام (٧٣١ كان خمسمائة ألف على الأقل مع أن جيش الأندلس كان ١٢ ألفاً. ومن ذلك

ما أصدره رينان من أحكام جائرة على المسلمين في كتابه (بعثة فينيقية) عندما زار الشام ١٨٦٠ ليجري بعض حفريات في جزيرة أرواد، فرأى من سكانها بعض غلظة. فقال إن المسلمين كلهم منحطون، وجعل معاملة فردية في حادث معين مبرراً لإصدار أحكامه[١].

وعلى هذا النحو سار كتّاب الغرب وفلاسفته ومستشرقوه وباحثوه وهو اتجاه مضلل منحرف، كان يستهدف تدمير قيم الإسلام، وتحطيم مقوماته. وإن كان كتّاب الإسلام لم يتوقفوا لحظة عن متابعة هذه الحملة، والرد عليها، أولاً بأول. في يقظة واضحة، وكان أقدرهم على ذلك رشيد رضا في المنار. ومحب الدين الخطيب في الفتح. وفريد وجدي، وعلي يوسف، ومصطفى الغلاييني، وعبد القادر المغربي، والدكتور هيكل، وعشرات من أبرز الكتّاب. فضلاً عما كان للصحف المصرية من اهتمام واسع، أتاح لها أن توسع لها المجال، كما فعل المؤيد، والبلاغ، وكوكب الشرق، والسياسة اليومية.

غير أن هذا التحدي على الصورة التي وقع بها، وأتيحت له فرص الإذاعة والنشر ـ وما صورناه ليس إلا جزءاً ضئيلاً منه ـ كما يمثل هدفاً ضخماً واضح المعالم في حرب الإسلام، ودعوته ونبيه وتشريعه.

كتابات خصوم الإسلام

مرجليوث: مستقبل الإسلام (الهلال م ١٦) نوفمبر ١٩٠٤ ـ محمد وظهور الإسلام ١٩١١.

هانوتو: الإسلام والمسلمون ١٩٠٠ (رد عليه الشيخ محمد عبده).

زويمر: الإسلام ماضيه، حاضره، ومستقبله.

(١) محمد كرد علي ـ أغلاط الإفرنج، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق.

لويس برتران: إمام الإسلام (كوكب الشرق ١٧ مارس ١٩٢٦).
دوق داركور: المصريون (رد عليه قاسم أمين) ١٨٩٣.
كردينال لافيجري: الرق في الإسلام (رد عليه أحمد شفيق باشا).
كرومر: مصر الحديثة (رد عليه محمد فريد وجدي ومصطفى الرديني سنة ١٩٠٨).
الأب لامنس اليسوعي: نظرة في حاضر الإسلام (المشرق) (تشرين أول ١٩٣٠).
فولتير: مسرحية التعصب أو النبي محمد - ١٧٤٢ م.
دكتور واطسون (مدير الجامعة الأمريكية): الإسلام في العصر الحديث (السياسة الأسبوعية ١٠ يوليو ١٩٢٣).


(٣) من الهجوم إلى الدفاع

كان الفكر الإسلامي بلا ريب، وبـإجماع البـاحثين من المصـادر الأساسية للثقافة الغربية المعاصرة، وللفكر الإنساني العالمي الحديث، كما كانت علوم الإسلام من أسس هذه الحضارة. وقد جحد الفكر الغربي هذه الحقيقة، وحمل على الإسلام حملته الظالمة دون تقدير لأي إنصاف أو رعاية لحق غير منكور. وأذاع على لسان أعلامه وكتابه أن الفكـر الإسلامي مضطرب وناقص. وأن الإسلام نفسه مليء بالقصور والعجز على النحو الذي كشفت عنه كتابات فولتير، ولامنس، وفنسنك وغيرهم من أقطاب الفكر الغربي الحديث.

وتوالت هذه الاتهامات، وتتابعت على ألسنـة السياسيـين، ودعاة الكنيسة، ورجال التبشير، والمؤرخين والصحفيين.

وحاولت أن تأخذ طابع العلم والبحث القائم على الأصول والمراجع والوثائق، وهدفها أسـاساً تـأكيد المشـاعر الأسـاسية في النفس الغـربية بكراهية الإسلام، والحقد عليه. واحتقار أهله، وحتى تكون حجاباً كثيفاً أمام المثقفين، فلا يصلوا إلى حقيقة الإسلام وجوهره إلا من خلال هذه الأبحاث.

غير أن الإسلام بقوته الذاتية، وقدرته الكامنة في أصوله وأسسه

وقيمه. قد استطاعت أن تشق طريقها بقوة، وأن تحفر مجرى جديداً في الفكر الغربي. لم يلبث هذا المجرى أن توسع فأصبح تياراً قويًّا.

١ ـ لقد استطاع الإسلام عن طريق كتابات الغربيين أنفسهم التي تحمل الخصومة والتعصب أن يكشف عن نفسه، وأن يصل إلى قلوب الباحثين... المنصفين المتطلعين إلى الحقيقة، والذين لم يتورطوا في هوى خاص أو صلات سياسية مع دوائر الاستعمار. ومن ثم اقتحم هذه النفوس والقلوب في بساطة ويسر وإشراق وتمكن من السيطرة عليها حتى دفع أهلها إلى أن يكتبوا كلمة الحق، وأن يتحولوا عن معتقداتهم القديمة، وأن يؤمنوا به إيماناً كاملاً، وأن يثقوا به ثقة فكر وثقافة، ومنهم من أنصفه بخير ما أنصفه به أهله، ومنهم من آمن به إيماناً. واعتنقه سرًّا أو علانية وقد آمن هؤلاء وأولئك بأنه السبيل الوحيد إلى خير الإنسانية، والنظام الأمثل للحياة البشرية. والسناد الحقيقي للحضارة الحية، وأنه هو الذي يستطيع أن يحميها من الدمار، والهزيمة والسقوط.

وبذلك استطاع الإسلام بقوته الذاتية أن يحقق «غزوة جديدة» للفكر الغربي. هي أشد قوة وبأساً من غزوته القديمة التي أنكرها جحود الغرب، وتمكن من أن يحفر مجرى قوياً لتيار ضخم يرى في الإسلام منفذاً من اضطراب البشرية، وأمناً لقلق الإنسانية.

وليس معنى هذا أن الفكر الغربي منصف، أو أنه قد تخلى عن عقائده الأساسية في الإيمان بالوثنية اليونانية، والثقافة الرومانية التي صاغ على أسسها «المسيحية الأوروبية» التي تختلف اختلافاً كاملاً، وأساسيًّا عن المسيحية الحقيقية التي نعرفها في الشرق. هذه المسيحية التي قادت المعارك الصليبية، وحملت لواء سحق كل ما سوى الغرب من قوى، والتي بعدت بعداً كبيراً عن الأسس التي جاء بها المسيح سلاماً على الأرض ومحبة للناس. ليس معنى هذا أن الفكر الغربي قد تخلى عن تعصبه العميق

وحملاته العنيفة، وطعناته المستمرة للإسلام، وقيمه وتاريخه ولغته وفكره.

ولكن معنى هذا التيار هو: أن للإسلام قوة ذاتية تفرض سلطانها على العقول المجردة. وأن المقارنة المنصفة بينه وبين العقائد تكشف عن جوهره البسيط السمح النقي.

ولقد حملت كتابات المنصفين صورة الاعتذار عن عنف الخطأ الذي ساقته كتابات المتعصبين، حتى أن كارليل وهو في مقدمة من تصدوا لكشف الحقيقة يقول: لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خداع مزور، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة إثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا. أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر، والإحصاء كذبة وخدعة.

أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً. ولو أن الكذب والغش يروجان «عند خلق الله» هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة. كان الأولى بها ألا تخلق. فوا أسفاه ما أسوأ مثل هذا الزعم، وما أضعف أهله. وأحقهم بالرثاء والمرحمة - وبعد فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات ألا يصدق شيئاً البتة. من أقوال أولئك السفهاء، فإنها نتائج جيل كفر، وعصر جحود وإلحاد. وهو دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر، وموت الأرواح في حياة الأبدان. ولعل العالم لم ير قط رأياً أكفر من هذا وألأم. وهل رأيتم قط معشر الإخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً عجباً. والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب، فهو إذا لم يكن عليمًا بخصائص الجير والجص

والتراب، وما شاكل ذلك. فما ذلك الذي يبنيه بيت، وإنما هو تل من الأنقاض، وكثيب من أخلاط المواد، نعم وليس جدير أن يبقى على دعائمه إثني عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم. فكأنه لم يكن، وإني لأعلم أن على المرء أن يسير في جميع أموره طبق قوانين الطبيعة، وإلا أبت أن تجيب طلبته، وتعطيه بغيته، كذب والله ما يذيعه أولئك الكفار زخرفوه حتى خيلوه حقاً.. هو زور وباطل. وإن زينوه حتى أوهموه صدقاً، ومحنة. والله ومصاب أن ينخدع الناس شعوباً وأمماً بهذه الأضاليل، وتسود الكذبة، وتقود بهاتيك الأباطيل، وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة، ويحيق مصابها بالغير لا به، وأي مصاب وأبيكم؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنساوية وأشباهها من الفتن والمحن تصبح بملء أفواهها «هذه الأوراق كاذبة»[1].

٢ ـ أما «جوستاف لوبون» فإنه يكشف عن عجز النفس الغربية في الاعتراف بالفضل لأصحاب الفضل وينعي ذلك عليهم في عبارة صريحة.

«عزيز على أبناء قومنا أن يقرروا بأن الرواية المسيحية لم تخرج من ظلمات الهمجية إلا بفضل الكفار، وليس بهيِّن قبول هذا الأمر المحض ظاهراً».

ويقول إن استقلالنا الفكري لم يكن في غير الظواهر، وأننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات. وقد تراكمت أوهامنا الموروثة في الإسلام والمسلمين بتعاقب القرون، فصارت جزءاً من مزاجنا، وتشبه هذه الأوهام المتأصلة التي أصبحت طبيعة ثانية فينا حقد اليهود الخفي العميق على النصارى. فإذا أضفنا إلى أوهامنا الفاسدة الموروثة على المسلمين الزعم

(١) كتاب الأبطال تأليف توماس كارليل: ترجمة محمد السباعي ـ ١٩١١.

الباطل الآتي، الذي زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية التقليدية البغيضة: وهو أن اليونان واللاتين هم وحدهم منبع العلوم والآداب في الزمن الماضي أدركنا السر في جحودنا لفضل العرب العظيم في تمدن أوروبا.

ويتراءى لبعض الفضلاء أن من العار أن تكون أوروبا مدينة في خروجها من دور التوحش للعرب الكافرين، ولكن من الصعب أن يحجب مثل هذا العار الوهمي وجه الحقائق.

ويقول «والسهولة التي تنتشر بها شريعة القرآن في العالم باهرة. والمسلم حيث يمر يترك خلقه ودينه. والإسلام ينتشر أينما حل، ولم تستأصل شأفة الإسلام. بعد أن رسخ. ولقد أصاب مسيو دوفال حيث قال: من فضل الإسلام وإحسانه: زوال الأصنام والأنصاب عن الدنيا، وتحريم القرابين البشرية، وأكل لحوم الإنسان. وحفظ حقوق المرأة، وتقييد مبدأ تعدد الزوجات، وضبطه، وتوطيد أواصر الأسرة، وجعل الرقيق عضواً فيها، وفتح أبواب كثيرة لتحريره، وتهذيب الطبائع العامة، ورفع مستواها بالصلاة والزكاة، وتثقيف المشاعر بالعدل والإنصاف، وإقامة المجتمع على أسس قوية قويمة.. ومقاومة المنكرات بالعدل الإلهي»[1].

٣ ـ ويصف خالد شلدريك المستشرق البريطاني المسلم كيف أن كتب الخصومة للإسلام. هي التي هدته إلى الإسلام، وكشفت أمامه الطريق إلى الحق فيقول: لم أتلق هذا الدين في أول الأمر من كتبه، ولكني تلقيته من كتابات الطاعنين عليه. لقد حملني البحث والتأمل إلى درس الديانات الأخرى. فدرست البوذية والبرهمية وسائر الأديان. وفي دور الكتب العامة بإنجلترا بحوث عن كل دين ما عدا الإسلام. فإن الكتب

---

(١) حضارة العرب، تأليف جوستاف لوبون، وترجمة عادل زعيتر ـ ١٩٤٥.

التي ألفت عنه مملوءة بالتحامل والمطاعن والعرض الظالم، وزعموا أن الإسلام ليس ديناً مستقلاً، ولكنه أقوال محرفة عن كتب المسيحيين. وقد تساءلت في نفسي: إذا كان الإسلام لا أهمية له إلى هذا الحد، فلماذا هم يبذلون كل هذه الجهود... للتحامل عليه ومقاومته، وتوجيه المطاعن إليه. وقد وَقَر في نفسي أنه لولا الإسلام دين يخشاه هؤلاء الناس، ويحسبون حساباً كبيراً لما فيه من القوة والحيوية، لما بذلوا كل هذه الجهود لمقاومته، والطعن فيه، وتشويه سمعته. لذلك عزمت على قراءة هذه الكتب التي كتبت عنه واحداً واحداً. والإسلام لا يخفيه انتقاد منتقديه، فمنتقدو الإسلام إنما يظهرون وجهة نظر خصومه. ومن هذا مصلحة له، وقوة ودعوة. والحق يبدو مهما حاول المبطلون إخفاءه.

٤ ـ أما «أميل درمنجم» فإنه يمثل قوة المد في هذه الحركة، حيث يعلن في جرأة أخطاء المستشرقين وتحيزهم ويقول: «إنه لا يوجد أحد في الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد، ولكن وجد من ينكرون بعض ما جاء في ترجمة محمد في الكتب العربية. أما من الجهة الأوروبية فقد كانت الأوهام والعداوات الدينية تحول دون درس حقيقي علمي لعظمة منشىء الإسلام».

وقال إنه من القرن الثاني عشر إلى القرن التاسع عشر ارتكبت أغلاط كثيرة ارتكبها أمثال باسكال، وريموندول، وبوستل، ورولان، ورينان، وفولتير، منتسكيو.

وقال إن أكثر العداوة بين المسيحيين والمسلمين إنما جاءت من قبل المسيحيين. وقد أيد هذا (لـ. جوفارا) في كتابه مائة مشروع لتقسيم تركيا[١].

---

(١) حاضر العالم الإسلامي، تلخيص شكيب أرسلان لكتاب حياة محمد لإميل درمنجم.

٥ ـ وقد عاد فولتير فغير رأيه في قاموسه الفلسفي فقال: لقد نسبنا إلى الإسلام كثيراً من السخافات وهو في الحقيقة خلو منها. ولكن كهنتنا كتبوا كتباً كثيرة في ذم الأتراك. واتفق أن كان الأتراك مسلمين. فأصيب على حساب غيره[1].

٦ ـ واعترف هنري شامبون مدير (ريفويارلمنتر) الفرنسية بالآثار التي عادت على أوروبا نتيجة لتوقف المد الإسلامي في أوروبا بعد معركة بواتيه عام ٧٣٢ م ـ لولا انتصار جيش (شارل مارتل) الهمجي على تقدم المسلمين في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى، ولما أصيبت بفظائعها. ولا كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الديني والمذهبي، ولولا ذلك الانتصار البربري على المسلمين لنجت إسبانيا من وصمة محاكم التفتيش، ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون، ونحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة. مع اننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة على جميع الشعوب العريقة في الفضائل، وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشري في مدة ثمانية قرون، بينما كنا يومئذٍ مثال الهمجية، وإنه لكذب وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى.

٧ ـ ومثل هذا ما ردده كلود فارير حين اعترف بأنه قد أناخت على الإنسانية بعد السبعمائة للميلاد كارثة لعلها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى تخبط من جرائها العالم الغربي سبعة قرون أو ثمانية في الهمجية قبل أن تظهر النهضة هذه الكارثة. هي ذلك النصر الهائل الذي أحرزته في بدايته جماعات الهركاس المتوحشين يقودها شارل مارتل على فرق العرب والبربر، في مثل هذا اليوم المشؤوم تقهقرت الحضارة ثمانمائة سنة، وحسب

---

(١) المؤيد ـ ١٩ مارس ١٩٠٨.

المرء أن يذكر ما كان يمكن أن تصل إليه فرنسا. لولا أن الإسلام النشيط الحكيم الحاذق الرصين المتسامح - إذ الإسلام هو كل هذا - استطاع أن ينتزع وطننا فرنسا من فظائع لا نجد لها إسمًا[1].

٨ - ولعل هذا الاتجاه يبدو أشد وضوحاً حين تعرض لقصة ليون روش السياسي الفرنسي الذي أقام في بلاد الإسلام ثلاثين عاماً. وتعلم اللغة العربية وفنونها، وقرأ العلوم الإسلامية، وعاشر المسلمين في الجزائر وتونس. والأستانة ومصر والحجاز. ولندع ليون روش نفسه يروي تجربته، كما سجلها في كتابه الصادر ١٩٠٤ بعنوان «ثلاثون عاماً في الإسلام»[2].

يقول: اعتنقت دين الإسلام زمناً طويلاً لأدخل عند الأمير عبد القادر الجزائري. دسيسة من قبل فرنسا. وقد نجحت الحيلة، ووثق بي الأمير وثوقاً تامًّا. واتخذني سكرتيراً له، فوجدت هذا الدين الذي يعيبه الكثيرون أفضل دين عرفته، فهو دين إنساني طبيعي اقتصادي، أدبي، ولم أذكر شيئاً من قوانيننا الوضعية إلا وجدته فيه «مشروعاً». بل إني عدت إلى الشريعة التي يسميها (جول سيمون): الشريعة الطبيعية، فوجدتها كأنها أخذت أخذاً من الشريعة الإسلامية، ثم بحثت في تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين، فوجدته قد ملأها شجاعة، وشهامة، ووداعة وجمالاً، وكرماً. ثم وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من نفوس الخير والرحمة. والمعروف في عالم لا يعرف الشر واللغو والكذب. ولقد وجدت في الإسلام حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طراً:

(الأولى) في قول القرآن ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية.

(الثانية) فرض الزكاة على كل ذي مال وتخويل الفقراء حق أخذها

---

(١) ترجمة محمد لطفي جمعة - البلاغ الأسبوعي (٤ سبتمبر ١٩٢٩).
(٢) ترجمة (المنار) هذا الفصل ونشرته م ٧ ص ٥٢٠.

غصباً إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعاً. إنه دين المحامد والفضائل. ولو أنه وجد رجالاً يعلمونه الناس حق العلم. ويفسرونه تمام التفسير لكان المسلمون أرقى العالمين وأسبقهم إلى كل الميادين.

٩ ـ ويكشف «حقيقة الإسلام» رجل اتصل بأهله قنصلاً لبلاده، في تقرير رسمي طبع ونشر عام ١٨٧٨ هو السير ريتشارد وود الذي عمل في دمشق والجزائر يقول في تقريره[1].

إن من أوهام الناس أن الإسلام يمنع مساواة أهل الذمة بالمسلمين فيما لهم وما عليهم، وينبو عن الأخذ بأسباب التقدم والحضارة. لأنه لا يحبذ انتشار المعارف والتحلي بالعلوم، وهذه الأوهام باطلة.

إن كثيراً من مؤلفي الإفرنج يزعمون أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء في معارج الحضارة، ما داموا مقيدين بنصوص القرآن التي يقولون إنها لا تلائم المعارف، واكتساب الفنون. وهذا وهم نشأ من الجهل بمقاصد القرآن، ويكفي برهاناً على بطلانه تاريخ صدر الإسلام. وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون، ودرسهم كتب الحكماء الأقدمين. أمثال: أرسطو وأقليدس، وأبقراط. وبطليموس. وأكبر بواعث الفهم هو انتشار الظن في أوروبا بأن الإسلام دين القوة والسيف. وهذا الظن مخالف للواقع.

والذي يبحث بحثاً دقيقاً عن أسباب الفتن التي سفكت فيها الدماء في الشرق. يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها، هو أصبع السياسة الأجنبية التي تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتنة بين ذوي الأحقاد. ومن هذا القبيل واقعة الدروز والموارنة، وواقعة الصقالبة. والبلغاريين. فقد تبين أن الاعتداء إنما يبتدىء من جانب النصارى. (وكان ريتشارد وود قنصلاً

(١) ترجمه السيد محب الدين الخطيب وطبعته المطبعة السلفية (القاهرة).

لدولته في دمشق عام ١٨٦٠ عند حدوث فتنة الدروز والموارنة).

١٠ ـ فإذا انتقلنا إلى باحث آخر كالدكتور بول دي ركلا نجد صورة جديدة من صور الدفاع عن الإسلام والاعتراف به على نحو منصف مستنير.

إن لنا أن نعرف ويعرف العالم[1] أجمع جوهر هذا الدين. لأن معلوماتنا عنه ليست قليلة فحسب. بل هي سيئة جدًّا. وأرى من جهة ثانية أنني أكون أسديت إلى قومي الفرنسيين خدمة إذا أوقفتهم على حقيقة دين جاء بمبادىء فيها كل الفوائد لأعمالهم إذا انقادوا للحق واتبعوا أوامره الجليلة.. دين يجب ألا نكتفي بتسميته ديناً. بل ونقف لنعطيه اسمه الحقيقي، ولنسميه فلسفة دينية. فنكون قد أعطيناه مركزه بين الأديان.

ولست بمغالٍ إذا صرحت علناً. وقلت إن الإسلام مفتوح بابه على مصراعيه، وهو واسع الأرجاء لتلقي الرقي الحديث الذي أنتجته الأجيال الطويلة. وليس كما يزعم البعض بمحدود الأطراف، وضيق المدخل. لأن تعاليمه الرفيعة وضعت لكرور الدهور، وستبقى خالدة، وضاءة الأنوار. تكشف كل مدنية تتمخض عنها العصور.

ويكفيه فخراً أنه لا يقر مطلقاً القاعدة الشاملة (لاسلام خارج الكنيسة). التي يتبجح بها كثير من الناس. وقد أظهرت لنا الأيام وخيم عاقبتها.

وهو الدين الوحيد الذي حل بعدل مشكلة حقوق البنين. وواجباتهم باعترافه بالمولود ضارباً عرض الحائط بالترتيب الغريب المخالف لنظام الطبيعة ونواميسها الذي أوجده الدين الكاثوليكي بحق الأولاد الشرعيين وغير الشرعيين. إذ فرق الدين الكاثوليكي بينهم، فأعطى الأول كل

(١) مجلة العرفان (صيدا ص ١٦٦ م ٢٢ ـ١٩٣١ ـ (١٣).

الحقوق، وحرم الآخر من كل الحقوق. فعمل كهذا منافٍ لسنن الطبيعة، وجريمة كبرى نقترفها في حق الأولاد غير الشرعيين.

وإن الإسلام هو الدين الوحيد بين جميع الأديان الذي أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب إلى الفسق والفجور. ويكفيه فخراً إنه قدس الأنساب وعظمها ليرغب الرجل بالزواج. ويعرض عن الزنا المحرم شرعاً وتشريعاً.

وأن الإسلام قد حل بعقلية عادلة أغلب المسائل الاجتماعية التي لم تزل للآن تشغل مشرعي الغرب بتعقيداتها. فالإسلام هو الدين الديمقراطي الوحيد سواء أكان بتعاليمه، أم بشرائعه، أو بعاداته، فهو لا يعترف مطلقاً بالزعامة الدينية، وما الرتب والألقاب سوى نعوت شرقية تعطى لبعض الأشخاص الذين لهم مركز بيِّن في الهيئة الاجتماعية، ولا تورث للأعقاب. فالإسلام: يستحق ولا ريب أن تدرس تعاليمه من قبل عظماء رجالنا الموكول إليهم أمر نشر نفوذنا. ومع الأسف قد أساءوا العمل باحتقاره. لأنهم يجهلون جوهره الثمين، وهم مسوقون إلى اتباع خطى أسلافهم، فهم مقلدون ليس إلا..

١١ ـ ويكشف (ايتان دينيه) عن تعصب قومه، في كتابه: محمد نبي الإسلام. فيقول: لقد مضى عليهم ثلاثة قرون، وهم يهاجمون هذا الإسلام بدعوى أنهم يعدونه أساطير ليقيموا على أنقاضها حقائق. وها هم. بعد طول العناء لم يعملوا شيئاً. وإذا قارنا النظريات الحديثة التي تفنن فيها المستشرقون من فرنسيين وإنجليز وألمان وبلجيكيين وهولنديين. وعارضنا بعضها ببعض افتضح حينئذ ما انطوت عليه أقوالهم من اختلاط وتلبيس، لأن نظرياتهم مبنية على الباطل، ولذلك تولى بعضها تحطيم البعض الآخر. فالذي يقوله (دنهارت دوزي) في كتابه (مسلمو الأندلس -

١ ـ ١٨) من أن محمداً شذ عن قومه العرب بأن له خيالاً. وأن العرب مجردون من الخيال. فيكذبه (هنري لامنس) في كتابه (مهد الإسلام. ص ٤ ـ ٥) لأنه ينسب فوز الإسلام إلى المطابقة بين محمد وبيئته.

ويذهب (دوزي) إلى أن نبي الإسلام كان سوداويًّا صموتاً يميل إلى النزهة الطويلة. بينما لامنس يكذب ذلك. ويقول: إن هذا الزعم لا يتفق مع نفور محمد من الوحدة وكراهيته للنسك.

والذي يقوله نولدكه في الوحي المحمدي يكذبه دي خويه في مباحث شرقية (ج ١ ص ١ ـ ٥) ثم يهدم (سبرنجر) هذين الزعيمين في كتابه: حياة محمد وعمله (١ ـ ١٥٧) ويناقضهم (سنوك هرجرونجه) فيذهب في مجلة تاريخ الأديان (٣٠: ٥٧) إلى غير ذلك.

ويقول جريميه في كتابه محمد (ص ١٥) أن النظام الإسلامي نظام اشتراكي. أكثر منه ديني، ويرد سنوك هرجرونجه عليه بأن اشتراكية الإسلام نشأت من شظف جزيرة العرب، ثم يأتي اليهودي مرجليوث فيزعم أن بداية الإسلام كانت جمعية سرية كالماسونية تأسست في دار الأرقم. وأن «السلام عليكم» شعارها[1].

وإتيان دينيه مصور فرنسي عاش في شمال إفريقيا. واقتنع بحقيقة الإسلام. وقرأ كل ما كتبه المستشرقون عن الإسلام، ورأى كيف تضاربوا. ومن رأيه أن الأب لامنس في علم المشرقيات كبطرس الناسك في الحروب الصليبية جهز بهمة لا تعرف الكلل حملة صليبية دعية في العلم طمعاً في أن يصرع الإسلام صرعة لا مقام منها.

وأن نفراً من النصارى في أوروبا دانوا بالإسلام في الأعوام الأخيرة،

(١) ص ٢٦٢ م ١٨ المنار.

ويكثر عددهم على مر الأيام. وأن الكنت هنري دي كاستري. قال في كتابه: الإسلام (ص ٢١١) أن الإسلام هـو الدين الـوحيد الـذي لا مرتدون فيه[1].

١٢ ـ ويرد درمنجم على لامنس وشيخـو في كتابـه (حياة محمـد) فيقول: إن كتب الأب لامنس قد شوهت محاسنها بما بدا في تضاعيفها من كراهية الإسلام ورسوله، فاستعمل في التاريخ طرقاً بالغ فيها بالنقد. ومثل لامنس، شيخو. فإنه لم يأل جهداً في إثبات دعواه أن العرب قبل الإسلام وبعده لا شأن لهم في المدنية. وإذا كان هناك من حضارة فإنـه يثبتها لنصارى العرب.

١٣ ـ ويرد فلكس فالي المستشرق المجري[2] اتهام الإسلام بالجمود. فيقول: إن دعوى كون الإسلام جامداً لا يتحرك دعوى لا دليل عليها. والحق أن الإسلام كان في كل عصوره مثالاً للحركة الفكرية في التاريخ. وأن التشريع في الإسلام ليكشف عن خبايا التشريع الروماني. وقد أقام الدليل على مرونة الإسلام جولد زيهر في كتابه دروس في الإسلام.

إن الإسلام الذي ليس لانتشاره مثل في تاريخ الإنسانية ليس مبنياً على الاعترافات الدينية.

ومن رأي فليكس، فإلى أن هذه البعثات التي تذهب إلى الشرق، كانت تصدر حكمها قبل أن تصل إلى بلاد إسلامية. ولهذا كانت آراؤها خطأ. لأنهم لم يعرفوا الإسلام إلا من المسيحيين الوافدين من الشام. وكل هم هؤلاء أن يستفيدوا من الآراء الجائرة من الأوروبيين أو الأمريكيين ضد المسلمين.

* * *

(١) آراء غربية في مسائل شرقية (عمر فاخوري).

(٢) ٩ يناير ١٩٢٣ جريدة الأخبار.

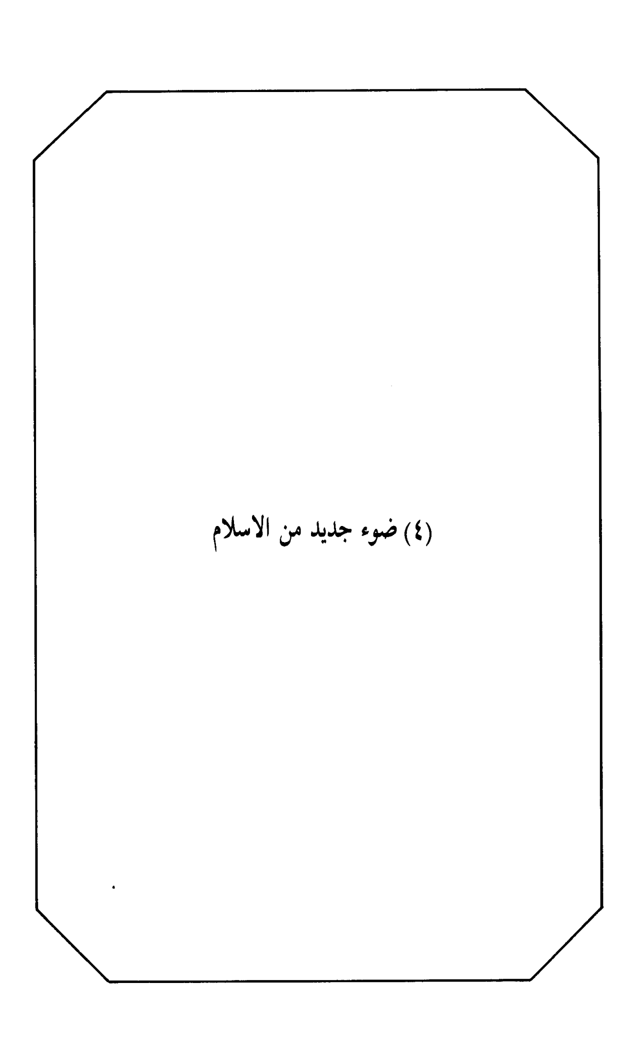
وبعد: فإن هذه النصوص الواضحة الصريحة التي أوردناها لكوكبة من المفكرين والعلماء والباحثين تكشف عن حقيقة ما ذهبنا إليه من أن جوهر الإسلام التقى، وقوته الذاتية ـ بالرغم من الضباب التي رسمت صورته من خلاله. وهذه الاتهامات المريرة الذاهبة في أطواء الحقد والتعصب ـ قد استطاع هذا الجوهر أن يكشف عن نفسه، وأن يدل على مفاهيمه الأساسية.

ولا شك أن هذه الكلمات تعطي الحقائق الآتية:

* إن كتّاب الغرب كانوا متعصبين أساساً في النظر إلى الإسلام، ولم يكن لديهم استعداد للإنصاف.
* إن فضل المسلمين على الحضارة الغربية أمر لا شك فيه. وأن اليونان واللاتين ليسوا هم وحدهم منبع العلوم والآداب.
* اهتمام الغربيين بمقاومة الإسلام مقاومة فعالة. على حدّ قول خالد شلدريك: من أن الإسلام لو كان لا أهمية له. فلماذا هذه الجهود في التحامل عليه ومقاومته، وتوجيه المطاعن إليه.
* الاعتراف بأن موقعة شارل مارتل التي أوقفت تقدم المسلمين في أوروبا هي التي أخرت سير المدنية ثمانية قرون.
* كرامة المسلمين في فتوحهم واتصالهم بالشعوب، وبربرية الغرب في هذا المضمار.
* تقدير ما في أصول الإسلام من حلول لمشاكل الإنسانية في الأخوة والاشتراكية والزكاة.
* بطلان الادعاء بأن القرآن الكريم مقيّدٌ لطريق الارتقاء والادعاء بأن الإسلام انتشر بالسيف.
* ليس الإسلام ديناً فقط. ولكنه دين وحضارة ومجتمع.. وأنه دين المستقبل. وستبقى تعاليمه خالدة وضاءة الأنوار.

* حلَّ الإسلام بعقلية عادلة أغلب المسائل الاجتماعية التي لم تزل للآن تشغل مشرعي الغرب.
* اضـطراب المستشرقـين في آرائهم وبعدهم عن روح البحث العلمي وتعارض آرائهم مما يوحي بأنها مبنية على الباطل.
* الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا مرتدون فيه.
* لم يكن الإسلام جامداً. وإنما كان مثالاً للحركة الدائمة.
* البعثات التي كـانت تبحث عن الإسـلام لم تكن تتصـل بمصــادره الأساسية. بل تعتمد على بعض خصومه وعملاء الاستعمار.





(٤) ضوء جديد من الاسلام



(١)

أصول الإسلام

لطالما ردد كتّاب الغرب الآراء حول تعصب الإسلام واضطرابه وامتلائه بالأساطير والخرافات. ولم يكن هذا هو الحق، لأن أصحابه لم يصلوا إليه عن طريق دراسة منصفة. وإنما على سبيل الاتهام والتعصب.

١ ـ ومن عجب أن رينان الذي هاجم الإسلام في كثير من مؤلفاته يعود في كتابه (تعليقاتي على تاريخ الأديان) فيواجه هذه المسائل بروح علمية. يقول رينان[1].

إن بعض الأديان قد أسستها أيدي النساء، ولكن الإسلام الذي قام على سواعد رجال أولي عزم كمحمد، يعرف فيه كل منصف أنه قدسي الأهداف. بل هو دين الحزم والجد. دين البساطة والمساواة والعدالة، والحرية.

لم ينصف الغربيون الإسلام باتهامهم إياه بقساوة الجهاد والفتوحات. مع أن هذا الجهاد كان ضرورياً لنشر العدالة التي تزدان بها التعاليم الإسلامية المشرفة.

ونضرب مثلاً على ذلك بإيراد السؤال الآتي لعلمائنا المؤرخين

(١) نقلاً عن كتاب الديانات والحضارات (طه المدور ـ بيروت ١٩٥٦).

كالكونت كرادون الذي اتهم الإسلام بالتعصب وحدة الجهاد، وحجب المرأة فيقول: ترى كيف، ولماذا قلب نصارى سوريا ظهر المجن لأباطرة الرومان المسيحيين، والتجأوا إلى حمى أبي عبيدة بن الجراح المسلم، وعاونوه في الجهاد لطرد الرومانيين من الديار السورية. ذلك بأنهم تذوقوا العدالة التي جاء بها الإسلام وفضلوها بالطبع على الجور الذي كانوا يلاقونه ويعانونه من أبناء دينهم الرومانيين.

وفي الرد على فلسفة كانت أقول إنه ليس في الإسلام أساطير ولا خرافات. فالمجهود العلمي والمنطقي بارزان في معظم التقاليد الإسلامية. فإذا درست مذاهب الإسلام الأربعة (الشافعية، والحنفية، والمالكية، والحنبلية) لا تجد غير دساتير خلقية متينة، ومشاعر روحية سامية، وقواعد تعبدية منسجمة، ترمي بالنتيجة إلى تحرير الحق من كل باطل.

وما البروتستانتية التي نشر الاصلاحيون (لوثر وأنصاره) المجددون لواءها في أواخر القرون الوسطى بأوروبا إلا صورة لتقاليد البساطة الإسلامية. سواء في طقوس العبادة، أو في استئصال الزخرفة المقتبسة من أساطير الإغريق، ولا يحق لأوروبا أن تلجأ إلى طبع الأديان غير المسيحية بطابع حضارتها. وأن توسعها طعناً وتزييفاً. إذ أن لكل دين وجهة دنيوية بجانب وجهته الدينية.

٢ - ويرى القس إسحاق بتلر رئيس الكنيسة الإنجليزية[1]. «أن الإسلام ينشر المدنية التي تعلم الإنسان ما لا يعلم، والتي تقول بالاحتشام في الملبس، وتأمر بالنظافة والاستقامة. فمنافع الإسلام لا ريب فيها. وفوائده من أعظم أركان المدنية ومبانيها.

---

(١) المنار - م ٣ - ١٩٠٢.

(حقوق المرأة)

٣ ـ ويدافع واصف بطرس غالي[١]: عن مقاصد الإسلام في رسالته (البطولة عند العرب) ويرد على كل ما يثار في هذا الصدد من اتهامات. يقولون إن الإسلام قد حط من قدر المرأة. وجهلوا أن محمد ﷺ، بذل أقصى الجهد في تحريرها، وضمان مصالحها، وتحسين مركزها المادي والأدبي، وما على المتشككين إلا أن يرجعوا إلى تعاليم النبي ليعرفوا كيف رفع المرأة إلى المكان اللائق بها. وكيف كانت تعاليمه وفاقاً لحاجة الناس والتطبيق الدقيق لأحكام القرآن ونصوصه تكفل للمرأة المسلمة الحديثة التمتع بالحقوق المدنية التي يمكن في دائرة المعقول التي نصبو إليها.

٤ ـ ويصف ولز الإسلام[٢] بأنه «مملوء بروح الرفق والسماحة والأخوة، وأنه عقيدة سهلة يسيرة الفهم، وأن محمداً عليه السلام قد أوصل مبادىء الإسلام الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية دون أي فرية مبهمة، ودون أن يقيم للهياكل أي أهمية، ولقد أدخل الإسلام في أعمال الخلق أوسع فكرة سياسية وأحيا فكرة سياسية عرفها البشر، ومدّ إلى البشرية يد المعونة.

(الزكاة)

٥ ـ ويتعرض ماسينون في كتاب «وجهة الإسلام» للزكاة باعتبارها نظاماً اقتصاديًّا دقيقاً فيقول: للإسلام الفضل في أنه يمثل لنا فكرة عادلة عمّا يقوم به كل فرد من أبناء الوطن بدفع عشر ريع الأرض للخزانة العامة. إنه يشن الغارة على المبادلة المطلقة، ورأسمالية المصارف، وقروض الدولة والضرائب غير المباشرة على الأشياء ذات الأهمية الجوهرية، ويقف

(١) في كتابه: (البطولة عند العرب) منقولة من جريدة الأخبار ٢٠ مارس ١٩٢٣.
(٢) كتاب معالم تاريخ الإنسانية لولز.

وسطاً بين الرأسمالية والبورجوازية والشيوعية والبولشفية.

٦ - ويصور (كارليل[١]) طبيعة الإسلام: وكيف يرمي «بطريقته الخاصة إلى إنكار الذات وقمع النفس». ويقول: هذه هي أسمى حكمة كشفتها السماء لعالمنا الأرضي، وإني لأجد في محمد وفي قرآنه الصدق والإخلاص والتحرر الكامل من الزيغ والضلال قبل كل شيء. وقد ظل دينه طيلة هذه القرون الإثني عشر مرشداً لخمس الجنس البشري، وظل قبل كل شيء موضع إيمان قلبي عميق، لقد كان العرب شعباً ضيق الأفق، فبعث إليهم بنبي بطل. فلم ينقض قرن حتى كان العرب قد وصلوا إلى غرناطة من ناحية وإلى دلهي من ناحية أخرى.

٧ - أما (هـ. ج. ولز) في كتابه مختصر تاريخ العالم، فيرسم صورة أخرى على هذا النحو. هؤلاء البدو انبعثوا فجأة، وبلغوا في قرن قصير غاية الرفاهية. فلقد نشروا حكمهم ولغتهم ما بين إسبانيا وبلاد الصين. ولقد أمدوا العالم بثقافة جديدة، ونشروا ديناً لا يزال حتى اليوم قوة من أهم القوى الحيوية في هذه الدنيا. إن في ذلك الدين الذي نشره محمد في العرب كثير من أسباب القوى والوحي. ومن أبرز خصائصه الوحدانية المطلقة التي لا تعرف هوادة، وعقيدته السهلة المتحمسة في الله وحكمه، وخلوه من التعقيد المذهبي، والتحرر المطلق من الرهبة والمعبد، وثم عنصر هام من عناصر القوة في الإسلام، وذلك تأكيده الإخاء والمساواة بين المسلمين أمام الله مهما تكن ألوانهم وأجناسهم وأوضاعهم.

٨ - أما (جب) في (وجهة الإسلام[٢]) فيقول: لا يزال الإسلام في العالم العربي يسلك سبيلاً وسطاً بين المتناقضات الشديدة، وهو على

---

(١) - (ك) الأبطال، وعبادة الأبطال: ترجمة (محمد بدر الدين خليل).

(٢) ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة - طبعة ١٩٣٣ القاهرة.

معارضته لفوضى القومية الأوروبية، وللنظام العسكري لروسيا الشيوعية لم يقع بعد فريسة للهجمات الاقتصادية الملحة التي تمتاز بها أوروبا وآسيا).

٩ ـ أما (تريتون) في كتابه: (الإسلام عقيدته[1] وعبادته) فيعرض لجانب آخر هو «الوحدة». التي تجمع بين المسلمين في طابع واحد.

يقول: إذا صح في العقول أن التفسير المادي للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً في تعليل بعض معظم الظواهر التاريخية الكبرى. وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها. فإن هذا التفسير يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب في أن يعلل وحدة المسلمين وغلبتهم على غيرهم، وقيام حضارتهم، واتساع رقعتهم، وثبات أقدامهم، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة، فرأوا أنها تقع في هذا الشيء الجديد. ألا وهو «الإسلام».

رأوا أن الإسلام قوة هائلة، فيه حيوية دافقة. وديناميكية حية وهو مفتوح على العمران، وسبيل الحضارة، وهو الطريق إلى جمع الكلمة ونشر السلام، وتحقيق العدل بما يؤلف بين القلوب ويربط بين الشعوب.

١٠ ـ وعارض واصف بطرس غالي[2] «دعوى القدرية التي وجهت للإسلام» فقال: يزعمون الإسلام لا يشجع على بذل الجهد. لأن هناك كلمة تقول (إن كل شيء مكتوب) والحقيقة في ذلك أن التسليم للقضاء والقدر في الديانة الإسلامية ليس معناه الجمود، ولا حبس الجهد فهو لا ينكر العمل ولا يقف في سبيل التطور.

---

(١) ملخص للكتاب في مجلة الثقافة م ١٩٥١.
(٢) كتابه «البطولة عند العرب» وبالفرنسية.

(شعور العزة)

١١ ـ ويلخص (ولفرد كاتبول سميث)[1] عظمة الإسلام في شعور العزة الذي يملأ نفوس معتنقيه فيقول:

ما من دين استطاع أن يوحي إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع. وأن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة، وكون الإنسان مسلمًا باعث من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين. وأن الغربي لا يفهم الإسلام حق فهمه، إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً. وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بفكره.

١٢ ـ وقال وليم كاسن إن الإسلام هو الدين المختار، فكثير من الرسل الذين عرفوا منذ القدم جاء ذكرهم في القرآن، تحوطهم الجلالة والتقديس، بل لعيسى بن مريم بين هؤلاء الرسل، مكانة خاصة، فقد جاء ذكره في السورة الرابعة. رسول الله يحمل كلمته، ويستمد الروح من عنده.. ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾.

١٣ ـ ويرى المستشرق (وامبري) أن روح نظام المسلمين هو الدين، والذي أحياهم هو الدين، والذي يكفل سلامتهم في المستقبل هو الدين ليس غير.

١٤ ـ ويرى إدوار مونته: أن روح الإسلام صعب على الغريب عنها أن يقف على سرها.

١٥ ـ ويرى (انشتين) أن عظمة الإسلام تتركز في عوامل ثلاث: أنه أحدث الأديان، وأنه لم يخاصم العلم، وأنه يستطيع أن يعالج أزمات العالم الحاضر.

---

(١) كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث» المترجم في سلسلة كتب سياسية.

الإسلام والسيف

كان الاتهام الـذي وجهه كتّـاب الغرب إلى الإسـلام أنه انتشـر بالسيف، وأنه ما كان من المستطاع أن يتوسع في هذا الزمن القصير، ويقيم هذه الامبراطورية الضخمة لولا السيف.

وقد واجه الكتّاب الغربيون هذا الاتهام وفندوه.

١ ـ يقول ويفالنج لنجرميش[1]: لم يحدث في التاريخ أن انتشر دين بهذه السرعة، واعتقد الغرب أن توسع الإسلام ما كان يمكن أن يتم، لو لم يعمد المسلمون إلى السيف، ولكن البـاحثين لم يقبلوا هـذا الرأي. فالقرآن الكريم صريح في تأييده لحرية العقيدة. والدليل قوي على أن الإسلام رحب بشعوب مختلف الأديان. ما دام أهلها يحسنون المعـاملة ويدفعون الجزية.

ولا شك أن حروباً قد نشبت بين المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود. وفي بعض الأحيان كان سبب ذلك أن أهل الديانات الأخرى أصروا على القتال. وفي القرآن الكريم آيات تصور العنف الذي استخدم في هذه الحروب، ولكن الرهبان قطعوا بأن أهل الكتاب كانوا يعاملون معاملة طيبة. وكانوا أحراراً في عباداتهم.

٢ ـ ويقول السير ريتشارد وود في تقريره: إن من أكبر بواعث سوء التفاهم بين أوروبا والإسلام، هو انتشار الظن في أوروبا بأن الإسلام دين القوة، والسيف. ولكن هذا الظن مخالف للواقع لما جاء في القرآن الكريم ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا . . . ﴾ الآية.

٣ ـ أما ريفونويت في كتابه «اعتذار إلى محمد والإسلام»[2] فيقول إنه

---

(١) مجلة المختار ـ فبراير ١٩٥٦.

(٢) م ١٣ جـ ص ٧٠٥ المنار.

من الحماقة أن نظن أن الإسلام قام بحد السيف وحده، لأن هذا الدين الذي يهدي للتي هي أقوم يحرم سفك الدماء. ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

٤ ـ ويتحدث غاندي عن تسامح الإسلام، وينكر أكذوبة السيف يقول: لم يكن الإسلام في إبان مجده عديم التسامح. فقد أحرز اعجاب العالم كله. ولما كان الغرب غارقاً في الظلمات أشرق نجم في سماء المشرق، وأضاء عالماً متألماً، ومنحه التعزية. ليس الإسلام ديناً باطلاً، فليدرسه الهندوس باحترام، ويحبوه كما أحبه أنا. وقد غدوت مقتنعاً كل الاقتناع أنه ليس السيف هو الذي جعل للإسلام مكانة في معترك الحياة. بل إن بساطة النبي التامة، وإنكاره الكلي لذاته واحترامه الدقيق لعهوده وإخلاصه الشديد لأصدقائه وأتباعه وشجاعته وبسالته وثقته الكاملة بالله. ورسالته هذه ـ لا السيف ـ هي التي جرفت كل شيء أمام المسلمين الأولين.

٥ ـ ويتحدث واصف بطرس غالي في كتابه: (البطولة عند العرب) عن تسامح الإسلام: فيقول: إن هناك الأمثلة العديدة التي تدل على روح التسامح عند المسلمين سواء في علاقاتهم مع غير المؤمن، أو مع إخوانهم في الدين. فلاسفة كانوا أو شيعيين، إباحيين كانوا أو ملحدين. فإنا نسجل هنا شهادة رينان الذي لا يستطيع أحد أن يتهمه بالعطف على الإسلام قال: إن حب العلم والكمال. قد حقق في القرن العاشر في تلك البقعة الممتازة من العالم (الأندلس) تسامحاً ليس في وسع العصور المدنية أن يوجد ما هو أعظم منه، فإن المسيحيين واليهود والمسلمين كانوا يتعلمون لغة واحدة، ويتغنون بأغانٍ شعرية واحدة، ويدرسون معاً دروساً واحدة في الآداب والعلوم. ولقد سقطت جميع الحواجز التي تفصل الناس بعضهم عن بعض، فكانوا جميعاً متضامنين في العمل على خير المدنية المشترك. وأصبح جامع قرطبة حيث كان طلبة العلم يعدون بالألوف مركزاً حياً للدروس الفلسفية والعلمية.

معاملة أهل الكتاب

اتهم الكتاب الغربيون الإسلام بأنه أساء معاملة أهل الكتاب.. والحقيقة أنه ليس غير الإسلام من أنصف أهل الكتاب وأحسن معاملتهم..

١ ـ دافع عن هذه النظرية السير ريتشارد وود قنصل انجلترا في خطابه السري الأزرق ١٨٧٨. يقول: من أوهام الناس أن الإسلام يمنع مساواة أهل الذمة بالمسلمين فيما لهم، وما عليهم، ومعلوم أن أهل الذمة لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم إذا ثبت أن غايتهم الوطنية موافقة لغاية المسلمين، وأنهم مثلهم في إيثار مصالح الوطن والخير العام.

وقد نص القرافي وابن حزم على أن لهم حق الحماية إذا دخل الحربيون البلاد. يقول القرافي ما معناه: «إن من واجب المسلمين للذميين الرفق بضعفائهم، وسدّ خلة فقرائهم، وإطعام جائعهم، وإلباس عاريهم ومخاطبتهم بلين القول، واحتمال أذى الجار منهم مع القدرة على الدفع، وإخلاص النصح لهم في جميع أمورهم».

ولا يخفى على المتأمل في هذه الفتوى أنها تنتج أمرين:

الأول: أن الإسلام يجيز استشارة أهل الذمة فيما يتعلق بالنظامات الدنيوية. وإلا لما كان يجيز للإمام أن يستعين برأيهم، ويعمل بمشورتهم، ويقبل مفاوضتهم في نوازل المسلمين.

الثاني: أن الإسلام لا يمنع من استخدام النصارى واليهود أكثر مما يقتضي الحال، وتستلزمه الضرورة الوقتية.

وصاحب الشريعة الإسلامية قد ميز بين أهل الكتاب وهم النصارى، واليهود، وبين المشركين من العرب، وقد وقع بين الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وبين بطريق بيت المقدس اتفاق يتضمن حرية النصارى، ومنحهم امتيازات وفىّ بها.

٢ ـ وقد تناول الكثيرون موقف المسلمين في العصر الحديث من الأقليات على نحو يكشف عن حقيقة موقف الإسلام، ومصدر الفتنة الحقيقي في مختلف المؤامرات التي وقعت. فالكابتن غوردون كانتج[١]. يقول عن الأقليات المسيحية واليهودية أنها كانت تعامل على الدوام خير معاملة في البلدان الإسلامية. إلى أن تأتي دولة أوروبية، وتستخدم تلك الأقليات لقلب الحالة كما حدث في مسألة الأرمن والأتراك. إن زعماء العرب في هذا العصر وفي العصور السابقة كانوا دائمًا يعملون على تلافي هذا التنافر. وإصلاح ذات البين. فإذا كان التعصب قد أخذ مجراه في زمن من الأزمنة. فقد كان المسلمون على مذهب الحاكم ينالهم من الاضطهاد ما ينال المسيحيين. ومن الواجب أن تتخذ مبادىء نجران كالمثل الأعلى للزعيم المسلم: «إن دم الذميّ كدم المسلم».

٣ ـ ويشير السير ريتشارد وود قنصل إنجلترا في دمشق إبان وقوع المجازر بين الموارنة، والدروز، في تقريره الذي رفعه إلى دولته ١٨٧٨ فيقول:

والذي يبحث بحثاً دقيقاً في أسباب الفتن التي سفكت فيها الدماء في المشرق، يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها هو أصبع السياسة

---

(١) الأهرام ـ ٢٨ أكتوبر ١٩٢٩.

الأجنبية التي تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتنة بين ذوي الأحقاد. ومن هذا القبيل واقعة «الدروز والموارنة» وواقعة الصقالبة والبلغاريين. فقد تبين أن الاعتداء إنما يبتدىء من جانب النصارى».

(لا إكراه)

٤ ـ ومن ناحية أخرى يشير المؤرخ الإنجليزي أرنولد تـوينبي إلى انتفاء صفة الإكراه في الدعوة الإسلامية فيقـول[١]: «من الميسور أن نسقط الدعوى التي شاعت بين جوانب العالم المسيحي غلوًّا في تجسيم أثر الإكراه في الدعوة، إذ لم يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الإسلام والسيف، وإنما كان تخييراً بين الإسلام والجزية، وهي الخطة التي استحقت الثناء لاستنارتها».

٥ ـ وقد شهد الدكتور تريتون في كتابه «الإسلام معتقداته وطقوسه» بأن الإسلام ينظر إلى أتباع الأديان الأخرى نظرة تسامح ورفق، وفي العصور الوسطى كان اليهود سعداء بالعيش بين المسلمين أكثر مما كانوا بين المسيحيين.

الإسلام دين ومجتمع

كان كتّاب أوروبا يقيسون أمور المسيحية على الإسلام، ويحاولون تطبيق ما وقع بالنسبة للمسيحية مع الفكر الغربي، والحضارة الغربية على الإسلام غير ناظرين، تحت ضغط الضباب الكثيف المثار في وجه الإسلام. من أن الإسلام دين ومجتمع.

غير أن بعض كتاب الغرب المنصفين تنبهوا فعلاً إلى هذه الحقيقة.

(١) نقلاً عن العقاد في كتابه ما يقال عن الإسلام ص ٢٧.

من أن الإسلام ليس ديناً فقط، ولكنه دين ومجتمع وحضارة.

١ ـ يقول سير موريسون «إن الحق الذي لا يماري فيه أحد. إن الإسلام أكثر من معتقد ودين، إنما هو نظام اجتماعي تام الجهاز، هو حضارة كاملة النسيج، لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها. وقد انقضى ما انقضى من العهد الذي ما برح فيه الإسلام والنصرانية على نضال ونزاع. فما وهن جانب من جوانب الإسلام قط. بل ما انفك على الدوام يشد بعضه بعضاً متماسكاً متعاضداً.

٢ ـ أما جورج سارتون (جامعة هارفارد) في كتابه الشرق الأوسط في مؤلفات الأمريكيين، فيقرر أن الإسلام من أصح النظم الدينية والاجتماعية. وأجملها. ويقول: «وهو عندنا أصح تلك النظم على الإطلاق».

(٢)

التشريع الإسلامي

ما أظن أن جانباً من جوانب الإسلام لقي من عنت الاتهام، كما لقي التشريع الإسلامي. ذلك أن الغرب كان يحرص على أن يثير حول الشريعة الإسلامية ضباباً كثيفاً. وقد حاول (دافيد سانتيلانا)[1] أن يقول إن المشرع الإسلامي وجد التشريع الروماني سائداً في الشام ومصر وإفريقية إلى مراكش. فنسخ منه ما نسخ، أو قول هنري ماسه في كتابه: الإسلام المطبوع في باريس ١٩٣٠ حيث ادعى أن الفقه الإسلامي لم ينشأ عند العرب بمحض تفكيرهم الخاص من غير تأثير خارجي فيهم، أو قول جولد زين المستشرق النمساوي في كتابه (عقيدة الإنسان وقانونه). المترجم إلى الفرنسية ١٩٢٠ من أن هناك تشابهاً وتماثلاً بين الحقوق ـ الإسلامية والحقوق الرومانية.

وقد انبرى من أعلام الفكر الغربي المنصفين من كذب هذه الاتهامات، واعترف بأن التشريع الإسلامي مستقل استقلالاً كاملاً، ولا شبه عليه في الارتباط ـ بالقانون الروماني.

١ ـ ويعترف العلامة «شيريل» عميد كلية الحقوق بجامعة فينا ـ (الكاثوليكي المذهب) بفضل الشريعة الإسلامية، ففي كلمة أمام مؤتمر

---

(١) مقدمته على مشروع القانون المدني والتجاري التونسي ١٨٩٠ تونس.

الحقوقيين عام ١٩٢٧ قال بالنص: «إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد إليها. إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي عام.

٢ ـ وفي مؤتمر عام ١٩٥١ (شعبة الحقوق الشرقية في المجمع الدولي للقانون الروماني) المعقود في كلية الحقوق في باريس. وضع المؤتمرون قراراً جاء فيه.

«أثبتت الأبحاث بجلاء أن الفقه الإسلامي يقوم على مبادىء ذات قيمة أكيدة لا مرية في نفعها. وأن اختلاف المذاهب الفقهية في هذا الجهاز التشريعي الضخم ينطوي على ثروة من الآراء الفقهية وعلى ـ مجموعة من الأصول الفنية البديعة التي تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونته لجميع مطالب الحياة الحديثة».

٣ ـ وأصدر مؤتمر القانون الدولي المقارن. في لاهاي (أغسطس ١٩٣٧) قراراً هو: «أن الشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور، ومسايرة المدنية الحديثة، وأنها لذلك جديرة بأن تشغل مكانة ممتازة بين مصادر القانون المقارن».

٤ ـ وقال المستشرق المجري: إن فقهكم واسع جدًّا إلى درجة أنني أقضي العجب كلما فكرت في أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لبلادكم وزمانكم.

٥ ـ وقال كتشنر القائد القائد البريطاني للقوات البريطانية في الشرق الأوسط إبان الحرب العالمية الأولى: إن[1] الدولة العثمانية لا تصلح بالقوانين التي تقتبسها منا معشر الأوروبيين ـ حيث لم تصلح لنا هذه

(١) المنار م ١٧ ص ٧٧.

القوانين ألا بعد تربية تدريجية في عدة قرون كنا نغير منها، ونبدل بحسب اختلاف الأحوال، وأن عندكم شريعة عادلة موافقة لعقائدكم ولأحوالكم الاجتماعية. فالواجب على الدولة أن تعمل بها، وتترك قوانين أوروبا فتقيم العدل، وتحفظ الأمن، وعندي أنها لا تصلح بغير هذا.

٦ ـ وقال فيلسوف ألمانيا جوته: أية شريعة لم تتمكن من أن تعلو فوق شرع محمد. وأن التشريع في الغرب ناقص على الرغم من تقدمه، ناقص بالنسبة للتعاليم الإسلامية، وإننا أهل أوروبا بجميع مفاهيمنا لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد[١].

٧ ـ وقال ليفي أولمان: (حقوق باريس: إن الشريعة الإسلامية في المعاملات مصدر حي للقانون العصري ومناط للحق.

٨ ـ وقال العلامة «سانيتلانا» في كتابه: الفقه الإسلامي المطبوع في تونس ١٨٩٩ ـ إن في الفقه الإسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم المدني. إن لم نقل إن فيه ما يكفي الإنسانية كلها.

٩ ـ ويقول العلامة كيهلر (العالم القانوني الألماني) بعد أن قرأ بحثاً للدكتور محمود فتحي عن مذهب الاعتساف في استعمال الحق عند فقهاء الإسلام:

إن الألمان كانوا يتيهون عجباً على غيرهم في ابتكار نظرية الاعتساف في القانون المدني الألماني الذي وضع سنة ١٧٨٧ م ـ أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحي، وأفاض في شرح هذا المبدأ عند رجال التشريع الإسلامي، وأبان أن رجال الفقه الإسلامي تكلموا طويلاً ابتداء من القرن الثامن الميلادي، فإنه يجدر بالعالم القانوني الألماني أن يترك مجد العمل بهذا

(١) العرفان ص ١٢٥ م ٣٧ (١٩٥٠).

المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون. وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية.

١٠ ـ أما هوكنج الأمريكي، أستاذ الفلسفة في جامعة هارفارد في كتابه روح السياسة العالمية[١]. فقد صور مشاعره تجاه الثقافة الإسلامية.. إزاء الشريعة الإسلامية فقال:

إن سبيل تقدم الممالك الإسلامية ليس في اتحاد الأساليب الغربية التي تدعي أن الدين ليس له أن يقول شيئاً عن حياة الفرد اليومية، وعن القانون والنظم السارية، وإنما يجب أن يجد المرء في الدين مصدراً للنمو والتقدم.

وأحياناً يتساءل البعض عما إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة، وإصدار أحكام مستقلة تتفق مع ما تتطلبه الحياة العصرية. والجواب هو: أن في نظام الإسلام كل استعداد داخلي للنمو، بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيراً من النظم المماثلة، وعندي أن الصعوبة لم تكن في انعدام وسائل النمو والنهضة في الشريعة الإسلامية. وإنما في انعدام الميل إلى استخدامها، وإنني أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادىء اللازمة لنهضتها.

١١ ـ ويقول كارليل في كتابه (الأبطال وعبادة الأبطال): إن في الإسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها، وهي التسوية بين الناس. وهذا يدل على صدق النظر، وصواب الرأي، فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض، والناس في الإسلام سواء. والإسلام لا يكتفي بجعل الصدقة سنّة محبوبة. بل يجعلها فرضاً حتّماً على كل مسلم، وقاعدة من قواعد الإسلام. ثم يقررها بالنسبة إلى ثروة الرجل، فتكون جزءاً من أربعين من الثروة تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين.

---

(١) الكتاب طبع في أمريكا عام ١٩٣٢.

١٢ ـ ويقول الدكتور انسباتو الإيطالي في كتابه: (الإسلام وسياسة الخلفاء) المطبوع ١٩١٩: إن الكرم العلمي والصدق الفكري صفتان من صفات الإسلام شأنهما أن يجعلا الأمة العاملة بهذا الدين أهلاً لأن تبلغ من الحضارة ذروتها العليا.

ولما كان أمين الريحاني في السفينة الشراعية على ساحل جزيرة العرب قاصداً ساحل الإحساء أثقل الهواء جفنه فنام قليلاً، ثم أيقظه صوت الملاحين. وهم إذ ذاك يشتغلون في قلب الشراع طوعاً للريح ويرددون ﴿ لا إله إلا الله ﴾. فقال الريحاني في كتاب: ملوك العرب وربك أيها القارىء ما سمعت في أنغام الليل في الماء أطرب من صوت المؤذن في الخليج، وهو يؤذن الفجر، ليس في صلوات الأمم كلها أدعى إلى الورع والخشوع، وليس هناك أجمل وقعاً في النفس من صلاة الملاح في ظل الشراع.

١٣ ـ وقالت مسز ساروجيني نايدو الشاعرة الهندية: لقد دعا الإسلام قبل اليوم بثلاثة عشر قرناً إلى المساواة والأخوة. وقد أسس الإسلام أول جمهورية كان القانون الإلهي رائدها. والفقير والغني فيها سواء. ولا شك مطلقاً أنه سيأتي يوم يبتلع فيه الإسلام جميع الأديان.

١٤ ـ وقال شيلي شميل: إن في القرآن أحوالاً اجتماعية عامة، حتى في أمر النساء، فإنه كلفهن بأن يكن مقصورات عن الريب والفواحش، وأوجب على الرجل أن يتزوج بواحدة عند عدم إمكان العدل. وقد فتح القرآن الكريم، أمام البشر أبواب العمل للدنيا والآخرة، ولترقية الروح والجسد، بعد أن أوصد غيره من الأديان. تلك الأبواب، فقصر وظيفة البشرية على الزهد والتخلي عن العالم الفاني.

١٥ ـ ويقول[1] الفيلسوف فاندنبرغ الألماني: لقد وضع للرقيق في

(١) الرسالة م ١٩٤٦ ص ١٣٣٣.

الإسلام قواعد كثيرة تدل على ما انطوى عليه الإسلام من الشعور الإنساني النبيل، ففيها نجد من محامد الإسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التي كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعي أنها تمشي في طليعة الحضارة.

١٦ ـ ويقول (هولتزندرون وريفي) الألماني: أنه يوجد في الفقه الإسلامي جميع القواعد الجوهرية التي تتعلق بشريعة الحرب، ولم تقتصر على الفتح والغنيمة، بل تجاوزتها إلى فرض الضرائب، وذكر المواد المحرمة على التجارة ونظائرها مما لا يختلف في الاسم عما يستعمل في يوم الناس هذا.

(٣)
تاريخ الإسلام

كانت حملات كتاب الغرب على تاريخ الإسلام موصومة بالاتهام، مليئة بالتعصب، حريصة على أن تشوه هذه الصور النقية الواضحة من القوة ـ والبطولة، والعدالة التي يتسم بها تاريخ الإسلام كله.

١ ـ ولكن نيتشه مثلاً يتنبه إلى هذا المعنى حين يقول: لقد حرمتنا المسيحية من ميراث العبقرية القديمة، ثم حرمتنا بعد ذلك من الإسلام، فقد ديست بالأقدام. تلك المدنية العظيمة، مدنية الأندلس المغربية لماذا؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة، من غرائز شريفة، من غرائز رجال تلك المدنية التي لم تنكر الحياة. بل أجابتها بالإيجاب، وفتحت لها صدرها.

٢ ـ ويصور ماكود فارير (أستاذ اللغات الشرقية) بالكوليج دي فرانس توقف الحضارة الإسلامية يقول: في عام ٧٣٢ حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في القرون الوسطى، وكان أن غمرت العالم الغربي مدة سبعة أو ثمانية قرون ـ هذه هي معركة بواتيه برابرة المحاربين من الإفرنج بقيادة: شارل مارتل.

ويكفي أن نطوف في حدائق الأندلس في أشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطلة، لنرى ماذا عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمراني الفلسفي المتسامح.

٣ ـ أما هنري بيرين فيتحدث في كتابه (محمد وشرلمان) عن أثر الإسلام في التاريخ الأوروبي، وعنده أن الإسلام كان هو القوة الهائلة التي حولت مجرى التاريخ الأوروبي حتى يمكن أن يقال إن العصر الوسيط، والنهضة الحديثة، هما ثمرتان من ثمرات ظهور الإسلام. ونقطة التحول في التاريخ الأوروبي هي التي سقطت عندها الامبراطورية الرومانية، فما هي القوة التي أدت إلى ذلك؟.

أجمع أغلب المؤرخين على أن الشعوب الجرمانية، التي كانت تعيش على تخوم الامبراطورية الشمالية. هي التي اجتاحت حدود الرومان، وقضت على دولتهم، ويرى هنري بيرين أن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن، وضيق الحياة إلى درجة تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة العبد إلى السادة. فما كان يخطر لها، بل وما كانت ترغب أبداً في أن تناوىء روما. وتقضي عليها.

أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أرقى وأسمى من اليونان في جميع أسباب الحياة، ولا سيما من الناحية الدينية التي كانت مبعث مؤنهم، ومصدر تشريعهم، فلم يحجموا عن منازلة الرومان، ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم.

ويرى بيرين: أن المسلمين كانوا أحق بسيادة العالم، وكانوا يرون أنفسهم جديرين بأن يقدموا للإنسانية دنيا جديدة ترشدهم إلى مدنية أخرى. وقد ظلت الدولة الرومانية قائمة، وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الجرمان حدودها، وانتقل مركزها من روما إلى بيزنطة، فلم تكد تهب ريح الإسلام، وتسير كتائبه إلى أرض الرومان حتى تلاشى كل ما كان لها من الآثار. وقامت في العالم دولة جديدة، وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوروبا من الشرق والجنوب.

(٤)
حضارة الإسلام

أنكر الغرب حضارة الإسلام وفضلها على حضارة أوروبا الحديثة، ولكن عشرات من أعلام الفكر الغربي قاوموا هذا الاتجاه وزيفوه. منذ كتب جوستاف لوبون كتابه حضارة العرب ١٨٨٤ حتى اليوم بكتابات أرنولد توينبي في آخر مؤلفاته سنة ١٩٥٤ «الحضارة في فترة اختبار» حيث يقول: عندما كادت حضارة الغرب (يقصد الحضارة الرومانية) تنحدر إلى الهاوية في القرن السابع المسيحي، وظهرت الحضارة الإسلامية الفتية، حتى أصابت الغرب نوبة هستيرية لظهور هذا الخط الجديد، وأشد ما خشيه الغرب من الحضارة الإسلامية الناشئة أنها كانت تستند إلى مثل أعلى فوق المادة ولا ينفع في دفعه ما لدى الغرب من أسلحة مادية.

ويؤكد توينبي أن الإسلام لم يدخل في معركة مع رسالة عيسى، ولكن مع الكنيسة المسيحية التي استولت على عقول الروم، واستسلمت إلى ما دعت إليه الوثنية الإغريقية من الشرك وعبادة الأصنام.

ويقول إن الإسلام قد استنكر هذا الشرك، واسترد عبادة الإله الواحد، الذي دعا إبراهيم إلى عبادته من قبل، وهكذا حمل الإسلام شعبة التوحيد بين المسيحيين المشركين من جهة، والهندوس المشركين من جهة أخرى. وعنده «أن عقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم، وأن في بقاء الإسلام أملاً للعالم كله».

ويقول إن الإسلام قد قضى على النزعة العنصرية، والصراع الطبقي بتقرير مبدأ الإخاء الإسلامي، والمساواة المطلقة بين المسلمين.

ويدعو توينبي العالم إلى الأخذ بهذا المبدأ الإسلامي، كما يدعو الغرب إلى نبذ معاداة المسلمين. وبذلك تنجو المدنية الحالية مما يدب إليها اليوم من عناصر العداء.

٢ ـ ويصور لوثرب ستودارد في كتابه: «حاضر العالم الإسلامي» عظمة الحضارة الإسلامية فيقول: إن العرب «موئل الإسلام» ما كانوا أمة تحب إراقة الدماء، وترغب في الاستلاب والتدمير. بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة عظيمة الأخلاق، تواقة إلى ارتشاف العلوم. تلك النعم التي انتهت إليها من الحضارات السالفة.

٣ ـ وأشار واصف بطرس غالي إلى اتهام الإسلام بأنه عدو المدنية فقال: زعموا أخيراً وتلك هي التهمة العظمى أن الإسلام عدو المدنية، وجوابنا على هذا الزعم يمكننا أن نسوقه للتدليل على بطلانه هو تاريخ قرون عديدة، وفي الواقع لا يستطيع أحد أن ينكر أنه كانت للعرب مدنية زاهرة.

٤ ـ ويقول رينان:[1] إن محمداً العظيم أتى بديانة انبعثت عنها مدنية عالية لا يصح بجانبها اتهام أتباعها المتأخرين بالجمود، ففترات الازدهار، والانحطاط مرت على رأس جميع الأمم بما فيها أوروبا المتعجرفة، وما يدرينا بأن يعود العقل الإسلامي الولود، والكثير المواهب إلى إبداع مدنية أرقى من زميلتها المندثرة. بل وما يدرينا ما عساه أن يصبح بعد قليل مصير المدنية الأوروبية الحالية التي هي وليدة التمدن الإسلامي القديم.

---

(١) ص ٢٨٥ من كتابه تعليقاتي على تاريخ الأديان (نقلاً عن طه المدور في كتابه الديانات والحضارات).

٥ ـ ويقرر المستشرق لوسين بوفا[1] أن الإسلام يتفق مع مدنية زماننا الحاضر تمام الاتفاق وفي الواقع أن التقدم الذي نشاهده في الممالك الإسلامية منذ قرن دليل على أن الإسلام يسير مع المدنية جنباً إلى جنب. والإسلام سيظل موجوداً دائمًا. والانحطاط الذي وقع فيه المسلمون له أسباب متعددة، ليس الذنب في أكثرها على المسلمين، بل على الحكم المطلق، وجهل الحكومات مما أدى انتشار الجهل، واضطرار دول الإسلام إلى خوض حروب كثيرة، وسوء خطة الغربيين في معاملة المسلمين.

٦ ـ ويصور كمال ولف شحوماكو (أستاذ ـ بـ جاوه) في كتابه بحوث عن الثقافة الإسلامية أثر الإسلام في الحضارة فيقول:

إن المنصفين من رجال التاريخ لا يسعهم أمام الحقائق الواضحة إلا أن يعترفوا بأن الإسلام هو العامل القوي في نفخ روح البحث والتنقيب وحب العلم في البلاد المجاورة لأوروبا. وفي إسبانيا. وأن لهذه البلاد تأثيراً عظيمًا في كيان الثقافة الغربية السريعة النمو في القرون الوسطى، فحيثما كانت تعاليم النصارى بأوروبا توقد نيران الحروب، وتشن الغارات على كل بحث علمي، وكل تفكير حرّ، وكادت تفنى البقية الباقية من الثقافة اليونانية الرومانية. في أسر الأوهام الكنسية، في ذلك الوقت كانت المدنية الإسلامية في أوج رقيها المنقطع النظير، وكان لها نفوذ قوي، وتأثير لا يقاوم في عقول أهل العلم بأوروبا. الذين بدأوا يدركون حياة علمية أرقى مما أدركه غيرهم من الأوروبيين، فانبعثوا يقاومون كل ما يصدهم عن العلم من معتقدات. في تلك القرون الوسطى، حينما كانت أوروبا منسلكة في دياجير الظلمات نفذ إلى أوروبا شعاع من أشعة الحضارة المشرقة من بلاد الإسلام. إن تعاليم القرآن الكريم وأحاديث النبي نفخت في الأمة الإسلامية روحاً قوياً أوجدت تقدماً باهراً ورقياً عظيمًا. هذه الروح

(١) مجلة الزهراء (محب الدين الخطيب) م ـ ١ ص ٤٩٦.

سرعان ما تسربت إلى أوروبا، ولا سيما عن طريق إسبانيا، فهيأت عوامل نهضتها في أواخر القرون الوسطى، وسببت وجود مقاومة تجاه الاضطهادات الروحية الآتية من قبل الكنيسة، وهي المقاومة التي استمرت إلى القرن الثامن عشر.

إن «للإسلام» في تاريخ الغرب معنًى عظيمًا، وأهمية كبيرة لم يستطع أحد بعد إدراك كنه ذلك وغايته. وقد حاول البعض إنكارها تعصباً. كما فعلوا بتعاليم الإسلام وما فيها من العقائد الطاهرة وتربية الأخلاق العالية. وما عليه أكثر الشعوب الإسلامية اليوم من التأخر والانحطاط ليس من الدين في شيء. وقد أصبح المسلمون ضعفاء مع أن لهم ديناً سامياً يبعث على التقدم والرقي. الروحاني، وسارت الأمم الغربية قوية راقية. مع أن دينهم يضطهد العقول، ويقهر حرية الأفكار.

والفضل للإسلام في إيجاد روح البحث والانتقاد بأرض أوروبا. حتى استطاعت إضعاف التعصب للمعتقدات الوهمية المناوئة لتقدم العلم ورقي الفكر.

موقف الإسلام من العلم

كان أبرز مظاهر التحامل على الإسلام، ما ذهب إليه قادة الحضارة الغربية من اتهام الإسلام بأنه لم يكن له فضل على العلم، وأن دوره كان قاصراً على نقل علوم اليونان والرومان، دون أن يضيف إليها شيئاً. وكان قول أغلبهم أن حضارة أوروبا الحديثة في عهد النهضة اتصلت بحضارة أوروبا القديمة (الحضارة الرومانية) وبينهما فترة ظلام أطلق عليها اسم العصور الوسطى مقدارها ألف سنة.

وكان هذا هو غاية الجهود في النظر إلى دور الإسلام من العلم والمدنية.

١ ـ وقد اعترف المنصفون في هذا المجال بفضل الإسلام. ومنهم هورتن الألماني[١] الذي أعلن في صراحة أن المسلمين في القرون الوسطى، وإلى سنة ١٥٠٠ تقريباً أساتذة أوروبا.

وقال: لم ينشأ ظن الأوروبيين بأن الدين الإسلامي لا يتمشى مع المدنية إلا نتيجة مبهمة لهذا الدين، ولعدم تعمقهم فيه. بل لتعلقهم بالقشور التي لا يفهمون منها إلا ما يكتبون.

وفي «الإسلام» وحده نجد اتحاد الدين والعلم. فهو الدين الوحيد الذي يوحّد بينهما. فنجد فيه الدين ماثلاً متمكناً في دائرة العلم، ونرى وجهة الفيلسوف، ووجهة الفقيه متعانقتين فهما واحدة لا اثنتان. ولقد كان إيمان «ابن رشد» الفيلسوف بالله عظيمًا، وكان معتصمًا بالقرآن حتى بكل كلمة في القرآن، ومع ذلك لم يمنعه دينه. والقرآن الذي يعتصم به من مطابقة الفلسفة اليونانية. والأخذ من أثار أرسطو والبناء عليها.

ولا تجد في الإسلام سدًّا يمنع نفوذ الثقافة الغربية عنه. بل ترى أن له استعداداً غير محدود لقبول الثقافة. ولا شك أن استعداد الإسلام لقبول أي ثقافة غير إسلامية لا حدود له.

٢ ـ أما جوستاف لوبون: فقد اعترف بفضل المسلمين في أكثر من موضع في مؤلفاته. وأهمها: «حضارة العرب» هل من الواجب أن نذكر أن العرب. والعرب وحدهم هم الذين هدونا إلى العالم اليوناني واللاتيني القديم، وأن الجامعات الأوروبية، ومنها جامعة باريز عاشت مدة ستمائة سنة من ترجمات لكتبهم وجرت على أساليبهم في البحث، وكانت المدنية الإسلامية من أدهش ما عرف التاريخ.

إن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب، وأن

---

(١) من كتاب استعداد الإسلام لقبول الثقافة الروحية ـ نقله المنار ـ ج ـ ٢ م ٣٠.

جامعات أوروبا عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب. وأن العرب هم الذين مدنوا أوروبا في المادة والعقل والخلق، وأن الشعوب التي دانت الأرض لسلطانها قد عفت الأيام آثارهم، ولم يبق سوى ذكريات ألسنتهم وأديانهم، ولكن أهم عناصر مدنية العرب. وهي الدين واللسان والفنون لا تزال حية.

ولا شك أن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين.

٣ - ويقول لويجي رينالدي العلامة الإيطالي: أن أمة هذه مدنيتها. وتلك آثارها ومفاخرها جدير بنا أن نحفظ لها تلك اليد التي قدمتها إلينا وأسلفتها، وأنه بعد سقوط الدولة الرومانية لم يكن هناك شعب يستحق أن يعرف غير الشعب العربي.

أما المؤرخ الفرنسي لاريل (La ralle) في كتابه مدنية الإسلام بإسبانيا. فقد اعترف بمزايا المسلمين في الصناعة والزراعة والبناء، وخصائص الهندسة العربية. وقرر أن المسلمين هم أول من استعمل المدافع - النارية في أوروبا، وأنهم فاقوا الغربيين في جميع الفنون[1].

٥ - ويقرر المستشرق سبنسر فاميري فضل المسلمين على العلم: لا يستطيع عالم واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ إسمًا عربياً، ولا يستطيع عالم طبيعي أن يحلل ورقة من الشجر، أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درساً عربيًّا، ولا يقدر أي قاضٍ أن يبت اليوم في اختلاف دون أن يستدعي مبدأ أملته العرب، ولا يسع أي طبيب أن يتأمل دائرة أحد الأمراض المعروفة منذ القدم، إلا أن يهمس بآراء طبيب عربي، ولا يستطيع أي رحالة أن يدلف إلى أبعد زوايا آسيا وإفريقيا دون

---

(١) نقلاً عن خلاصة تاريخ الأندلس للأمير شكيب أرسلان، ص ٣٦٥.

أن يعمد إلى اللغة العربية. فإن انتشارها قد بلغ من الذيوع والسعة بحيث يؤكد البعض مبالغة بأن خمس شعوب الكرة الأرضية يتكلمون العربية، وأن يؤكد أن أي لغة أخرى لا يتكلم بها شعوب بلغ اختلاف أجناسها وتباينها مبلغ المتكلمين باللغة العربية.

فإذا ذكرنا أن العرب طوال قرون ثمانية في الأندلس مستودع أعظم العلوم في ذلك الحين، فإنه بوسعنا أن نعتقد أن مادة غير محدودة من التاريخ والعلوم والاجتماع والحقوق قد وصلتنا من تلك الأرض المقدسة.

٦ ـ ويدافع جيبون في كتابه (سقوط المدنية الرومانية) عن موقف عمر بن الخطاب، وعمرو بن العاص من تهمة التآمر على إحراق مكتبة الإسكندرية، وأثبت أن الذي أحرقها. إنما هم الرومان بمراكبهم الحربية في حصارها لجيوش كليوباترة بقيادة يوليوس قيصر، وكان قد ألصق هذه التهمة بالمسلمين الرحالة عبد اللطيف البغدادي.

٧ ـ ويقول ديفونويت في كتابه (اعتذار إلى محمد والإسلام)، يجب أن نعترف بأن علوم الطبيعة والفلك والفلسفة والرياضيات التي أنعشت أوروبا منذ القرن العاشر مقتبسة من القرآن. بل إن أوروبا مدينة للإسلام بأكثر من ذلك. لأن الدين الذي أمر بالدستور والديمقراطية، ونهى عن الاستبداد في قوله تعالى: ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ و﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ قد فتح أمام الإنسانية الحقوق المدنية.

ولتذكر أوروبا أنها مدينة للمسلمين بحفظ آداب الغرب القديمة حينما كانت هي في ظلام دامس فحفظوا آثار فلاسفة اليونان، وآثار علوم الطب والهندسة. وبالجملة فالمسلمون هم أساتذة أوروبا[١].

٨ ـ وقد دافع «واصف بطرس غالي» في كتابه بالفرنسية (البطولة عند

(١) المنار: ص ٧١٥م ١٣ جـ ٩: ٣٢.

العرب) عن موقف الإسلام من العلم، ورد على الحملة التي شنها رينان في محاضرة له في باريس (٢٩ مارس ١٨٨٣) حمل فيها حملة شعواء على المدنية الإسلامية، فزعم أنها ليست في الواقع إلا المدنية اليونانية. أخرجت من الظلام لا على يد العربي. وإنما على يـدي السوريـين والكلدانيين والفرس. والاسبانيين بعد أن أصبحوا مسلمين بالغزو واللغة.

وقال إن الإسلام قد حث على العلم في عديد من أحاديث نبيّه:

* طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.
* أفضل الناس المؤمن العالم.
* من سلك طريقاً يطلب به علمًا. سلك الله به طريقاً إلى الجنة.
* يوزن مداد العلماء يوم القيامة بدماء الشهداء.

٩ ـ وقـال تريتـون في كتابـه: الإسلام: معتقـداته وطقـوسه: إن الإسلام يكبر من شأن العلم إكباراً لا شائبة فيه. فهو فريضة على كل مسلم ومسلمة.

(٥)

الإسلام والاستعمار

كان هدف الاستعمار من الحملة على الإسلام، إفساح المجال للنفوذ الأجنبي، وتثبيت أركانه، فالإسلام عقبة ضخمة في سبيل مقاومة الاستعمار بقيمه، وتعاليمه، ومفاهيمه الداعية إلى التوحيد والجهاد والحرية والوحدة. ولقد كان الغربيون يظنون أن حملاتهم على الإسلام ستقضي عليه، وتحول أهله عنه إلى مفاهيم الغرب وقيمه، فيسقط على النحو الذي كانوا يتوقعونه.

ولكن الإسلام لم يسقط. وقد أكد قدرته على المقاومة غير واحد من كتّاب الغرب المنصفين.

١ - يقول الدكتور «كريسينان سنوك هيرجرونجيه»[1] وقد صاحب الإسلام ربع قرن في جاوه، والملايو. الإسلام لا يقاوم النصرانية، لأن الإسلام في المستقبل سيشكل نفسه حسب حاجات العصر الحديث، ولكن لن يدع النصرانية تغلبه وتسلبه أبناءه الذين كسبهم من مئات الأجيال. وقد طبعوا بطابعه، وصاروا جزءاً منه، وهم يمثلونه في سائر بقاع الأرض.

فالمسلمون سيستمرون في دينهم مهما اتخذوا من الثقافة والمدنية الغربية. وفي الجامعات الكبرى تجد الكثيرين من المسلمين، ولكن مجرى

(١) البلاغ الأسبوعي - ٢٧ نوفمبر ١٩٢٩.

عقولهم لا يزال إسلامياً. كنت أعرف الطالب المسلم من غير المسلم في جامعتي بمجرد الاطلاع على مبحثه الذي كتبه، ففي المسلمين ميل قوي إلى التمسك بدين آبائهم، وتطبيقه على الحاجات الحديثة.

٢ - أما القس إسحاق طيلر رئيس الكنيسة الإنجليزية[١]. فيرى أنه لن يترك المسلمون دينهم. يقول: لا يدخل في العقل أن يترقب رسومات مرسلي النصارى الضيقة الذين يجتهدون في أن يردوهم عن دينهم.
وتهمة أخرى. هي: أن الإسلام غير متقدم. والواقع أن الكنيسة أبطأ من الإسلام. والتقدم بين أتباعها أقل جداً مما هو بين المسلمين.

٣ - أما مستر (جب) وله الباع الواسع في دراسة أحوال المسلمين المعاصرة فيتساءل: هل من الممكن أن يحتفظ المسلمون بوحدتهم الدقيقة أمام هجمات العلوم الأوروبية، وتجاه الفوارق السياسية. ثم يجيب على ذلك بأن الإسلام ليس عدوًّا للمدنية الغربية، ويقول: «لا شك أن البلاد العربية المتجانسة كمصر والجزيرة العربية وفلسطين. وسوريا والعراق ستلعب دوراً يكون له الشأن الأول في نصر الإسلام، فلهذه البلاد ثقافة راقية تتقدم يوماً بعد يوم بفضل اللغة العربية الفصحى، ويقول: ولن يجري في البلاد العربية ما جرى في بلاد الترك. فالعرب متمسكون بلغتهم وأدبهم، ويتغنون بمجد الإسلام، ولم تقم في بلادهم أي حركة وطنية، إلا وكانت الروح الإسلامية أساسها وستبقى الروح الإسلامية تسود بلادهم وتتقدم».

٤ - ويرى الأستاذ تريبون (أستاذ اللغات الشرقية بجامعة لندن) في كتابه: (الإسلام معتقداته وطقوسه) أن الدين عند المسلمين حقيقة واقعة،

---

(١) كتبها في صحيفة سنت جمس غازيت الإنجليزية ١٨ إبريل ١٩٨٨ بعد زيارة لمصر والعالم الإسلامي، ونقلتها مجلة المجلات العربية (١ أكتوبر ١٩٠٢).

وجزء متمم لحياتهم اليومية، وهو ليس رداء يرتديه الأحبار والعلماء، ومن ثم فهو يجعل المسلمين إذا وقعت الواقعة، وأدلهم ليل الخطوب ثابتي الإيمان لا تزعزعهم العواصف والأنواء.

٥ ـ ويعرض الأستاذ مونته (كلية جنيف) لحاضر الإسلام ومستقبله في محاضراته[1]. فيقول: إن الإسلام ينتشر في إفريقيا بنفسه بواسطة المسلمين أنفسهم. لأن كل مسلم في البلاد الوثنية داعية دين بحد ذاته. ويقول: إن الإسلام ينتشر بنفسه بواسطة القوافل التي ترحل في البلاد الوثنية أو الفيشية، ودعاة الإسلام لما عرفوا به من الغيرة يعمدون إلى ذرائع مختلفة تناسب كل حال بحسب الأقطار والشعوب، التي يبثون دعوتهم بين أهلها.

وهكذا نرى الدعاة المسلمين. قد أنشأوا قرى يسكنها المهتدون إلى دينهم من المحدثين في الإسلام، ولطالما انتفعوا من القحط الذي كان يلقى بجرانه على أصقاعهم.

والمدرسة هي إحدى العوامل الفعالة في نشر الدين أيضاً. فالمسلمون على الجملة عندما ينزلون ويتوطنون في بقعة جديدة يصرفون أول عنايتهم إلى إنشاء مسجد، ويجعلون بجانبه مدرسة، وينظرون إلى المسلم في بلاد زنوج الوثنيين في إفريقية. بأنه أرقى من غيره، وترى المرأة عند قبائل البجة النازلة بين النيل الأزرق وأعالي البلاد الممتدة من شمال سطح بلاد الحبشة أرقى بعقلها من الرجل. لذلك يختار دعاة الإسلام تعليمهن، والاعتماد عليهن في بث الدعوة على نحو ما فعل السنوسية بالزنجيات. وهذه الطريقة في الدعوة قد اشتهرت هناك، والإسلام من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية نراه في إفريقيا قوة أسمى من غيره. والإسلام باقٍ

---

(١) مجلة المقتبس م ٦ ص ٣٧١.

في مكانه إذا كتبت له الغلبة في الشعوب الإفريقية، وبه خاصية تلائم الشعوب الإفريقية، ولا سيما السود منهم. وقد تبع الزنوج الإسلام ليحفظ حياتهم لما في الإسلام من الإدارة والتنظيم.

٦ - ويرى «شانليه» أستاذ العلوم الاجتماعية في إحدى جامعات فرنسا. «أن المسلمين يتبعون على الرغم من اختلاف لغاتهم وأجناسهم في العبادات الدينية، والنواميس الاجتماعية، وسائر المظاهر الأساسية للمدنية الإسلامية. يلتقون في صور واحدة. الصلاة والاتجاه إلى الكعبة، ومجتمعهم يعطي صورة هيئة اجتماعية تتنزل بمنزلة الأسرة الواحدة. الحفيظة على تقاليدها الموروثة.

واللسان العربي الذي نزل به القرآن لهم رابطة وعروة وثقى، وتجري قراءة القرآن به في بلاد الصين، وجزائر الفليبيين ومراكش، والكتابة به بين سائر المسلمين، وتجد الكلمات العربية شائعة في لغات الأوردو الهندية، ولغة السواحلية، وغيرها من لغات بربر إفريقية فضلاً عن الفارسية.

على أن الإسلام بالرغم من وحدة تعاليمه، وتشابه عقائده القائمة على التوحيد لا ينفي التغيير والتبديل في المسائل الفرعية، والشؤون الثانوية مجاراة لحكم الوسط ومقتضيات الزمن، وأساس الدين الإسلامي: التوحيد وعماده وحدة التعاليم.

٧ - ويصور (جورج رو) موقف الإسلام من التبشير فيقول: إن الوصف المميز للإسلام أنه دين عالمي معمول به أكثر من أي دين غيره، فمن بين سكان الكرة الأرضية نجد المسلمين أكثر الأمم اعتداداً بتعاليم دينهم، فلا تصادف مسلمًا يرتد عن دينه. وقد نجح بعض المرسلين في حمل المسلمين على حبهم، ولكنهم خابوا في حمل مسلم واحد على تغيير دينه.

وكتب الكردينال (لافيجري) أن تنصير المسلمين مشروع لن يؤدي إلا إلى الخيبة. وأن الإسلام من بين جميع الأديان العالمية يجاري المسيحية في تقدمها، فلا يغيب عنا الكسب العظيم الذي تناله الكاثوليكية باستمرار في الهند والصين بفضل المرسلين الدينيين. ومع ذلك فإن الإسلام يكسب هناك بقدر ما يكسب ديننا. ولكن القاعدة تنعكس في إفريقيا. فالإسلام ينفرد بالكسب وحده هنالك.

فعدد المسلمين يزداد في جزيرة مدغشقر يوماً بعد يوم، وأعظم نجاح يصيبه الإسلام هو في إفريقيا السوداء. فالسودان الذي كان موطناً للوثنية، أصبح اليوم معقلاً من معاقل ديانة محمد، وبلاد السنغال وغينيا حتى الكونغو يدخل أهلها في الإسلام أفواجاً أفواجاً.

٨ ـ وهذا رأي «جوستاف لوبون» الذي أعلن منذ أكثر من ثمانين عاماً بأن الإسلام ينتشر كل يوم في إفريقية من دون أن تبذل همة في سبيل نشره، ويحقق المبشرون من الأوروبيين في سبيل دعوتهم إلى دينهم اخفاقاً شنيعاً.

٩ ـ وفي تقرير لمسيو لويس ماسنيون من كتابه «الإسلام والغرب»[1]: أن الإسلام محتفظ بقوته في أقصى الشرق، ويرجو أن يزداد قوة في مستقبل الأيام. أما في الغرب (يقصد المغرب). فالإسلام واقف موقف الدفاع الطبيعي، ومتعاون مع بعضه تعاوناً حقيقياً في سبيل المطالبة بالاستقلال.

ومن الإرهاصات أن الجنود المسلمين المجندين في الجيش الفرنسي وغيره من جيوش الدول الأوروبية في إفريقيا الغربية الفرنسية والنيجر ـ والهند والقوقاز محافظون على دينهم. وأن الأتراك المؤمنين قد أخذوا ينفرون نفوراً متزايداً من الكتابة اللاتينية التي أوجبها عليهم كمال أتاتورك. كما أن إيران أحجمت عن استعمال الحروف اللاتينية في كتابتها. وقد بلغ

(١) مجلة لسان الدين (المغرب) مارس ١٩٤٨.

التضامن الاجتماعي والثقافي بين المسلمين، هذه المرتبة من النشاط في أقصى المشرق وأوسطه. والحالة في أوروبا على خلاف هذا. فإن أوروبا لم توفق إلى الآن إلى المطابقة بين أساليبها الثقافية والدينية العصرية، وكفى به انحطاطاً.

وهذا ما جعلني أعطي أهمية كبرى لفلسفة السيد محمد إقبال: الذي زرت ضريحه بمسجد لاهور في الهند.

إن المسلمين الذين توجد منهم جماعة كبيرة في اسطنبول وطنجة، وبور سعيد وعدن وكراتشي وسنغافورة وانطاكية واقعون تحت مراقبة وهم في مأمن من هجوم الأجانب عليهم. إلا من الناحية الاقتصادية. غير أن النفوذ الأجنبي في العواصم العلمية يوجب على الإسلام التفكير طويلاً في أمره. فإن كلا من مدينتي تونس والقدس ليس فيهما أكثرية إسلامية، وأصبحت مدينة القاهرة شبه عاصمة للعرب وللمسلمين.

١٠ ـ ويقول طيلر[1] عن التبشير في إفريقيا. إن القبيلة الإفريقية إذا اعتنقت الإسلام لا ترجع أبداً إلى الوثنية، ولا تعتنق الديانة المسيحية، ولعمري أن الإسلام قد خدم المدنية خدمة لم تقدر عليها النصرانية.

١١ ـ وقد أعلن[2] (غاندي) بأن الأوروبيين يخشون الإسلام، لأن الذين يعتنقونه يحتمل أن يطالبوا البيض بالمساواة، ومن حق هؤلاء أن يخافوا لو كانت الأخوة خطيئة. فإذا كان البيض يخافون من المساواة بالعناصر الأخرى. فإن المخاوف من الإسلام تقوم على أساس صحيح أي رأيت الزروسي الذي يعتنق المسيحية لا يصعد بطبيعة الحال إلى مستوى المسيحين على حين أنه إذا اعتنق الإسلام يشرب من نفس قدح المسلمين، ويأكل من قصعتهم.

(١) جريدة التيمس ـ ٧ أكتوبر ١٨٨٧.
(٢) المنار، ج ٢ ـ م ٣٢ عن مجلة ذي لايث (لاهور).

(٦)
مستقبل الإسلام

عني كثير من الباحثين بالنظر إلى مستقبل الإسلام، هل يبقى، هل يسقط، هل يستطيع أن يواجه التطور والمدينة، وذهبوا في ذلك مذهب المتشائمين، حين قال بعضهم أن الإسلام سيسقط عندما يواجه المدنية الحديثة، ولكن «سنوك هيروجرونجيه[1] الهولندي الذي عاش في الملايو وأندونيسيا أكثر من ربع قرن يدرس الإسلام، فلسفته وشريعته، وتاريخه، وعلاقته بالمؤسسات السياسية والاجتماعية، وقضى عاماً كاملاً في المدينة المنورة، متخفياً لا يرى هذا الرأي.

* * *

«لا أعتقد أبداً» أن الدين الإسلامي سيسقط يوماً ما أمام النصرانية. لأن المسلم محتاط أشد الاحتياط لمقاومة النفوذ الأجنبي، فهو يعرف المسيحية التي ليست عنده شيئاً جديداً غير مألوف. فقد عرف أصلها وطريقة نشوئها، وهو يعتبر ديناً تطور بالتدريج، ولا يمكن أن يقع انحطاط تدريجي في الإسلام، لأنه توجد بواعث خارجية تمتعه، فالإسلام قوي ولم يضعف. وزد على ذلك أن الإسلام يربح أكثر من النصرانية، فالذي يصير مسلماً لا يطلب منه شيء كثير. إذ لا يوجد تقديس ولا طقس ديني، ولا تعليم طويل، كل ما يطلب منه أن يعترف بالله، أنه كل القوة.

(١) البلاغ الأسبوعي - ٢٠ نوفمبر ١٩٣٩ وم ١٧ ج ٣ (المنار) ص ٢١٢.

ومن ثم يتدرج إلى تعلم الفرائض. وعندما يصير مسلمًا يتغير مركزه الاجتماعي. ولكن إذا تنصر فإنه يبقى دون غيره. وأن القول بأن الإسلام محتاج إلى النصرانية للترقي هو أسوأ قول أو رأي، فالمسلمون قد احتاطوا أعظم احتياط لهذا الأمر (التبشير) حيث قضيت سبع عشرة سنة ملتصقاً بهم تمام الالتصاق بالمؤسسات الإسلامية، ولا يستطيع المبشر المسيحي أن يربح تابعاً واحداً لدينه حيث الإسلام معتقد قديم ثابت وليس ديناً حديثاً، وسيجدون صعوبة كبرى في تنصير المسلمين. وبالجملة فإن نشوء الإسلام في القرن الجاري لا يكون شيئاً باعثاً على الدهشة. بل سيكون مطابقاً للحركة العمومية التي تقرب بين الأمم والأديان دون زوال الاحترام للتقاليد الموروثة عن السلف.

٢ ـ أما «جورج برنارد شو» فقد واجه هذه المسألة على نحو آخر في بحث له بعنوان (الإسلام بعد مائة عام). يقول: إن المستقبل العاجل عندما يريد الرجال المفكرون أن يلجأوا إلى دين يحمي الفضيلة، ويقي المجتمع، ويكون سبباً للحياة السعيدة في البشر، فسيجدون الإسلام هو الدين الوحيد الذي يضمن لهم التقدم والنجاح. وأول البراهين على ذلك. أن الإسلام لا يمنع أي تقدم سواء كان في النهضة الفلسفية أو الكيماوية.

فالإسلام هو الدين الذي نجد فيه حسنات الأديان كلها، ولا نجد في الأديان حسناته.

والإسلام دين حرية لا دين استعباد. وقد قرر أخوة الإسلام منذ ألفين وثلاثمائة وخمسين سنة، وهو المبدأ الذي لم يعرف عند الروم والسابقين، ولا عند الأوروبيين والأمريكيين الحاضرين.

وإذا سألت العربي أو الهندي أو الفارسي أو الأفغاني، من أنت: يجيبك «أنا مسلم». أما الغربي إذا سألته من أنت قال: انجليزي أو طلياني أو فرنساوي.

فالإسلام يوحد بين أهل العقيدة المشتركة دون أن يجعل أي فرق بينهم بسبب أوطانهم وألوانهم وجنسياتهم. لقد نصب الإسلام شاباً أسود البشرة أميراً على جيوش المسلمين، وفيها كبراؤهم، فالحكومة الديمقراطية لم تعرف إلا في الإسلام، وتقسيم الميراث الذي فيه أكبر فائدة للاجتماع فرضه الإسلام منذ ١٣٥٠ عاماً. ولكن الغرب بقي بجهله إلى هذه الساعة. والإسلام حرم الربا، وجعل من المستحيل انحصار الثروة عند أقلية من الناس.

هذه الحقائق تجبرنا على الاعتقاد بأن الدنيا بأكملها. وانجلترا على الأخص ستقبل الإسلام. وأن هي لم تقبله باسمه الصريح فستقبله باسم مستعار.

٣ ـ وقد تحدث رينيه ميليه عن انتشار الإسلام في محاضرة ألقاها في مؤتمر إفريقيا الشمالية المنعقد في باريس ١٩٠٨ فقال:

إني لا أريد أن أذكر انتشار الإسلام، لأنه الدين الوحيد الذي ينتشر ويزداد أهله بسرعة في آسيا وإفريقية في حين أن الأديان الأخرى بقيت واقفة عند حد محدود لا تتجاوزه البتة. وقد أصبحت المسألة لا نزاع فيها، ولكن ماذا تقولون: إذا ثبت لكم أن الإسلام شرع يطبق العلوم الحديثة، ويستفيد منها.

الإسلام دين اعتاض عن تعدد درجات الإدارة بسلطة واحدة يرجع إليها الحل والعقد في كل الأمور، ولم يقرر شيئاً من وساطة القسيسين بين الإله والشعب، ولم يُسنّ نظام الصوامع، وقضى على عادة العزوبة. التي كانت متبعة ومستفيضة، وعلى عادة النسك والخروج من الدنيا، فقرر الاشتغال بالدنيا والآخرة معاً. ثم إن الإسلام أرجع الدين إلى حاله الطبيعية، ولم يأت بشيء من تلك العقائد المسيحية الفلسفية. بل قال بكل وضوح ﴿لا إله إلا الله﴾. وبذلك خلا الإسلام من ذلك الاعتقاد الذي

قسم الدول الأوروبية، والذي جعل أهل مصر وآسيا الصغرى في حالة استياء من تسلط الدولة البيزنطية، وكيف لا تميل هذه الشعوب الساخطة إلى أهل الإسلام، وهم يعلنون أنهم أهل التسامح مع مخالفيهم في الدين.

إن الفتوحات الإسلامية كانت على البغال. إلا أن العرب أتوا بعقيدة سهلة التناول لا تثقل الجندي المجاهد، ثم إنهم فوق ذلك كانوا مشبعين بروح التسامح. وهذا سر الانقلاب العظيم الذي أعطاهم ملك آسيا، وإفريقيا ونصف إسبانيا.

أتى المسلمون بعقائد سهلة ملائمة للفطرة، وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار، فترقت العلوم والفنون والآداب باجتهادهم الذي عجز عنه المسيحيون الذين عاصروهم.

وقد جاء المسلمون في نفس الوقت بمبدأ جديد في البحث يتفرع عن الدين نفسه، وهو مبدأ التأمل والبحث. وكان اهتمامهم بكتاب أرسطو أكثر منه تخيلات أفلاطون، وبرعوا في علوم الطبيعة، وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء، ولفرط تقديرهم للحياة الدنيا نبغ فيهم الشعراء المجيدون.

وقد أعطى الإسلام أشهر ثمرة لما سرت إليه روح المدنية القديمة خالصة من الشوائب[1].

٤ ـ ويقول جورج سارتون في كتابه: الشرق الأوسط في مؤلفات الأمريكيين «إن المسلمين يمكن أن يعودوا إلى عظمتهم الماضية وإلى زعامة العالم: السياسية والعلمية، كما كانوا من قبل. إذا عادوا إلى فهم حقيقة الحياة في الإسلام والعلوم التي حث الإسلام على الأخذ بها.

وأن تلك الهزائم السياسية التي مني بها الإسلام لم تزعزع ثقة

---

(١) ص ٨١٨ م ١١: المنار.

المسلمين بأنفسهم. بل هي على العكس زادت من إيمانهم.

وأن شعوب الشرق الأوسط سبق لها أن قادت العالم في مرحلتين: طويلتين من مراحل التقدم الإنساني طوال ألفي سنة على الأقل. قبل أيام اليونان. ثم في العصور الوسطى مدة أربعة قرون تقريباً. وليس ثم ما يمنع تلك الشعوب أن تقود العالم ثانية في المستقبل.

٥ ـ ويقول اللورد هدلي أنه لو نـدبت لجنة من الإنجليـز الأكفاء لفحص الدين الصالح. لأن يتدين به العالم كله لأجمعوا على اختيار الإسلام.

(٧)
القرآن

واجه «القرآن» حملة شديدة من الفكر المسيحي منذ مطلع النهضة الأوروبية. فقد أقبل القسس والعلماء على ترجمته ترجمة محرفة ومجزأة. ونشر الترجمات مع الرد عليها. وعنى علماء الاستشراق بتأليف دراسات ضافية في تفسيره وتاريخه، وترجمة ما كتب من التفاسير كالبيضاوي. والزمخشري والسيوطي، كما اهتموا بعلم القراءات.

وفي تقرير نشر خلال الحرب العالمية الماضية[١] أن ترجمات القرآن بلغت ٩٥ ترجمة إلى مختلف لغات العالم: الإنجليزية (١٠ ترجمات بدأت ١٦٤٩) الفرنسية (٧ ترجمات بدأت سنة ١٦٤٧) الألمانية (١٣ ترجمة بدأت ١٦١٦). اليونانية، اللاتينية، البولونية، الإيطالية، البرتغالية، الإسبانية، الصربية، الهولندية، الألبانية، العبرية، الهندوكية، الدانيماركية، الأرمنية، البلغارية، البنغالية، الرومانية، المجرية، اليابانية، البوهيمية، الصينية، السويدية، الأفغانية، البنجابية، السواحلية، السندية، الجاوية، الهوجدانية.

والرأي[٢] بأن أول ترجمة للقرآن قام بها روبرت الراتيني بمساعدة

---

(١) الهلال، م ٤٨ ص ٣٤٣.
(٢) المقتطف (يونيو ١٩١٥) صمويل زويمر.

هرمان الدعاطي. وتمت ١١٤٣. وبقيت محفوظة نيفاً وأربعمائة سنة حتى طبعها تيودور بيلياندر في باسل عام ١٥٤٣.

والمعروف أن الغربيين قد أولوهم اهتمامهم لترجمة القرآن من أجل مهاجمته وتفنيده، ومحاولة خلق الاتهامات العنيفة له، وكانت أولى وأبرز اتهاماتهم أن القرآن الكريم من عند محمد، وأنه متناقض، وأن الخلفاء زادوا في المصحف، ونقضوا بالحذف والتبديل.

وكان الرأي دائمًا عند غير المنصفين أن القرآن الكريم هو العقبة الكؤود في سبيل ارتقاء أمم الإسلام، والمسؤول عن تقهقرها على حد تعبير لورد كرومر في كتابه: مصر الحديثة الذي نشره عام ١٩٠٨.

* * *

٢ ـ ومن عجب أن أرنست رينان قد أنصف القرآن الكريم في كتابه (تعليقاتي[1] على تاريخ الأديان) فقال: إن القرآن الكريم هو أساس الإسلام. وقد احتفظ بكينونته القديمة دون أن يعتريه أقل تبديل أو تحريف. وعندما تستمع إلى آياته وما فيها من فصاحة وسحر تأخذك رجفة الوله والوجد، وبعد أن تتوغل في دراسة روح التشريع المنطوية عليه بعض تلك الآيات الإلهية لا يسعك إلا أن تعظم هذا الكتاب العلوي وتقدسه.

٣ ـ أما ادوارد جيبون فيقول: إن دين محمد خالٍ من الشكوك والظنون. والقرآن الكريم أكبر دليل على وحدانية الله، بعد أن نهى عن عبادة الأصنام والكواكب. وهذا الدين أكبر وأجل من أن تدرك أسراره العويصة عقولنا الحالية.

ويقول: إن القرآن الكريم مسلم به من حدود الأقيانوس الإطلانطيكي إلى نهر الكانج بأنه الدستور الأساسي، ليس لأصول الدين

(١) نقلاً عن كتاب الديانات والحضارات لطه مدور بيروت ١٩٥٦.

فقط. بل للأحكام الجنائية والمدنية والشرائع التي عليها مدار حياة نظام النوع الإنساني وترتيب شؤونه.

٤ ـ وعندما ترجم (ادوار مونته) القرآن، وهو مدرس الألسن الشرقية بجامعة جنيف عام ١٩٢٩ م كان عليه أن يصور مفهوم القرآن في نظره. وعنده أن القرآن[1] في الحقيقة ذو قيمة خارقة للعادة، فهو بين الكتب العربية الدينية أعظم شأناً، وهو يشتمل على الحياة الروحية لقسم من النوع الإنساني يقدر بمائتين وخمسين مليوناً على الأقل[2] والعقيدة القرآنية ذات علاقة وثيقة بالعقيدة اليهودية، والعقيدة المسيحية، والآثار النصرانية المتعلقة بالمسيح هي موضوع صفحات عديدة من القرآن، على أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا الاتحاد في أصلي الإسلام والنصرانية أن الإسلام القرآني فاقد الاستقلال، وأنه ليس ذا صفة خاصة أصلية. فالأمر بالعكس. والإسلام دين لا يمكن خلطه مع دين آخر من الأديان السامية، فهو دين سامي تحت صورة عربية خاصة، تتجلى فيه روح اللغة العربية.

والقارىء يجد في القرآن الكريم صفحات غاية في الإبداع، سواء من جهة الفكر، أو من جهة القالب الديني الذي وضع فيه الفكر، وكذلك نجد فيه لآلىء فريدة في علم الروح معروضة في آيات هي أعلى ما يمكن من الأسلوب الشعري، وهو فيه أسلوب قائم بذاته. وفي القرآن الكريم منازع دينية ذات سعة مدهشة. لا سيما بالنسبة إلى العصر الذي عاش فيه ذلك المصلح العربي.

ومما جعل للقرآن هذه الأهمية أنه الكتاب الديني للأمم الإسلامية التي تمثل في شرقي أوروبا. وفي العالم الأسيوي، وفي ماليزيا وفي إفريقيا دوراً ليس مهمًا وحسب. بل دوراً ذا صلة شديدة بالأمم الغربية المسيحية.

(١) ترجمة الأمير شكيب أرسلان بتصرف (المنار م ٣٠ جـ ٥).
(٢) كان هذا الرقم مبالغاً في تصغيره. والمسلمون الآن على الأقل ٤٥٠ مليوناً.

وأخيراً نقول: أن الذي جعل للقرآن هذه الأهمية الخاصة هو المستقبل المدخر للشعوب الإسلامية. إذ لا ينكر أن مستقبلاً فخمًا ينتظر هذه الشعوب.

٥ ـ أما العلامة «فيني» الذي كتب مقدمة هذه الترجمة. فإن مفاهيمه ربما كانت أكثر عمقاً ووضوحاً. حيث يقول: إن القرآن ليس بكتاب ديني فقط. بل كتاب علم وآداب. ونجد فيه بيان الحياة السياسية والاجتماعية، حتى أنه يرشد الإنسان إلى وظائفه اليومية، والأحكام السياسية التي إن لم توجد في القرآن توجد في السنّة. والتي لا تكون واضحة بالقرآن ولا بالسنة. توجد في الفقه الواسع الذي هو علم الحقوق[1].

٦ ـ أما «خالد شلدريك» فإنه يرى أن القرآن ليس كتاب دين فحسب. بل هو أعظم هادٍ إلى سعادة الفرد والمجتمع. وقد وقر ذلك في نفسي منذ اطلعت عليه بالرغم من أني قرأته مشوّهاً ومحرّفاً من ترجماته المعلومة، وليس كالإسلام دين أخلص العبادة لله، وقرر عقيدة التوحيد الخالصة.

ولا شك أن معرفة كثير من المسيحيين بأن الإنجيل الذي في أيديهم أحدث عهداً من المسيح، ووقوفهم على الواقع بين كتبهم الدينية له تأثير عميق في إعراضهم عن بعض ما فيه من نصوص، بينما المسلمون لا يرتابون قط بأن القرآن الذي بين أيديهم هو: الكتاب المنزل على نبيهم ﷺ لا ريب فيه: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٧ ـ هل القرآن حائل دون النهضة؟.

يجيب السير ريتشارد وود في تقريره[2] السري بقوله: إن القرآن

(١) المنار م ٣ ج ٢.
(٢) سبقت الإشارة أكتوبر طبع ١٨٧٨، ونشر محب الدين الخطيب ١٩١٢

الكريم يتضمن أحكام الدين. وفي نفس الوقت يشمل الأمور المدنية، والأصول السياسية.

وأن كثيراً من مؤلفي الإفرنج يزعمون أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء في معارج الحضارة ما داموا مقيدين بنصوص «القرآن» التي يقولون أنها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون. وهذا وهم باطل نشأ عن الجهل بمقاصد القرآن، ويكفي برهاناً على بطلانه تاريخ صدر الإسلام، وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون، ودروسهم كتب الحكماء الأقدمين. مثل أرسطو وأقليدس، وأبقراط وبطليموس وغيرهم.

٨ ـ أما «ولفجانج لانجرميش» وهو مستشرق ألماني[1]. فإنه يرى أن القرآن الكريم أكثر الكتب التي تقرأ في العالم، وهو أيسرها حفظاً، وأشدها أثراً في الحياة اليومية لمن يؤمن به، فليس طويلاً كالعهد القديم. وهو مكتوب بأسلوب رفيع. أقرب إلى الشعر منه إلى النثر. ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه، وتزداد إيماناً وسموًّا، وأوزانه ومقاطعه كثيراً ما قورنت بدقات الطبول، وأصداء الطبيعة.

والمسيحي واليهودي الذي يقرأ القرآن لا يجد نفسه غريباً عما جاء في آياته المنزلة. ولا يعترف القرآن بأن عيسى هو ابن الله، أو أنه قتل مصلوباً، ولو اعترف المسلمون بأن عيسى هو ابن الله لتناقض ذلك مع وحدانية الله. هذه الوحدانية التي هي أحد أركان الإسلام.

ومن الملاحظ أن القرآن يتسم بطابع عملي فيما يتعلق بالمعاملات بين الناس. وهو في ذلك يقول: ﴿ إذا تداينتم بدين إلى أجل مُسَمّى فاكتبوه ﴾.

وهذا التوفيق بين عبادة الإله الواحد، وبين التعاليم العملية، جعل القرآن كتاباً فريداً، ووحدة متماسكة.

---

(١) مقال (اخترت الدفاع عن الإسلام) مجلة المختار مجلد ١٩٥٦ ص ـ ٥٧.

٩ ـ ويصف ألبرت هويده الصحفي السويسري الذي أسلم سنة ١٩٦٠ ـ ولقب بأحمد عبد الله رمضان تجربته مع القرآن فيقول:

حينما تعمقت في قراءة القرآن دهشت لعصرية القرآن في علاقته بالعلم، ففي الإسلام من المستحيل وجود مثل حادث جاليلو والتعاليم الإسلامية. لم تعارض البحوث العلمية الحديثة، ولم تقف في وجه مقتضيات العالم الحديث.

١٠ ـ أما الدكتور شبلي شميل مترجم نظرية دارون إلى اللغة العربية. فقد تصدى لموقف القرآن من العمران[1] ردًّا على اللورد كرومر في مهاجمته للقرآن فقال: لقد أخطأ مستر كرومر، والخطأ تسرب إلى حكمه حين قال: إن شريعة القرآن لا توافق العمران في كل عصر. والقضايا التي استند إليها، واعتبرها من جوهر الدين، كان يمكنه أن يعتبرها من الدين الإسلامي كسواها من سائر الأديان (يقصد تعدد الزوجات وغيره من الاتهامات).

وهل يعقل أن القرآن الطامح إلى أبعد المرامي الاجتماعية يكون قد أراد بمثل هذه القضايا أن يجعلها غلاًّ في عنق العمران.

إن مسألة تعدد الزوجات بالاعتراض الوجيه على القرآن، لأنه نهى عنها نهياً صريحاً يفرض العدل فيها. لذلك لا تعد حجة على القرآن.

ونحن نرى أن الإسلام نفسه لا يكون عقبة حقيقية في سبيل العمران. والمنصف لا يسعده أن يلقي على القرآن تبعة تقهقر الأمم الإسلامية، فإذا أرادت الأمم الإسلامية أن تجاري الأمم المتمدنة في ارتقائها. فالقرآن لا يحول دونها. وإن في القرآن أصولاً اجتماعية عامة، وفيها من المرونة ما يجعلها صالحة للأخذ بها في كل زمان، حتى أمر

(١) المؤيد ـ ٢٢ مارس ١٩٨٠.

النساء. وأن القرآن فتح أمام البشر أبواب العمل للدنيا والآخرة، ولترقية الروح والجسد بعد أن أوصد غيره من الأديان. تلك الأبواب فقصر وظيفة البشرية على الزهد والتخلي عن هذا العالم الفاني.

* * *

وبعد فقد استطاعت ترجمات القرآن المتوالية المتعددة ـ على ما بها من تحريف، وعلى ما صحبتها من حملة ذات هوى ـ أن تصل إلى بعض القلوب والعقول المشرقة، فتحصل على مفاهيم صحيحة للقرآن، على النحو الذي كشفت عنه هذه النصوص، التي تدل في مجموعها، مع الاعتراف بمكانة أصحابها في عالم الفكر والبحث ـ على أن القرآن منزل من عند الله، وأنه فتح للمسلمين وللعالم مجال النهضة، ولم يكن حائلاً في وقت ما دون التطور والحضارة. وأنه استطاع أن يحتفظ بنصوصه كاملة، لم يدخل عليها تحريف. وقد كان حتى بالنسبة لمن تراه مترجماً آسراً ببلاغته ومعانيه معاً. واضحاً في دلالته ونصوصه المحددة. وقد اعترف أغلب هؤلاء الباحثين بأن القرآن هو الدستور الأساسي ليس للدين فقط. ولكن للحضارة والمجتمع.

ولا شك أن كثيرين ممن ترجموه تأثروا به كما حدث ذلك لإدوار مونته الذي قرأ التوراة والإنجيل، وعرف اليهودية والمسيحية، واستطاع أن يعلن في صراحة بأن الإسلام القرآني له طابعه الاستقلالي، وذاتيته الخاصة، وأنه لا يمكن خلطه مع دين آخر.

وقد أبدى أغلب الباحثين اهتمامهم بإبداع القرآن من جانبي الفكر والقالب الذي وضع فيه الفكر، وكشف خالد شلدريك عن الفارق بين ارتياب غير المسلمين في كتبهم، واطمئنان المسلمين إلى أن كتابهم لا يأتيه الباطل. وذابت في خلال هذه الدراسات اتهامات أمثال كرومر من حيلولة

الإسلام دون الرقي. فقد أكد الباحثون أن نصوص القرآن لا تعارض النهضة. بل على العكس من ذلك فهي تدفعها وتقيمها.

وكشف الباحثون الطابع العلمي الذي يتسم به القرآن في معاملات الناس، ووضع الحلول لمشاكل المجتمع، وعصرية القرآن في علاقته بالعلم، حيث لم يكن ممكناً أن يقتل جاليلو لو كان مسلمًا.

وكيف كانت صورة الإسلام في القرآن مرنة، وهو صالح لكل زمان ومكان، وكيف يفتح القرآن أبواب العمل للدين والدنيا في وقت واحد. ولترقية الروح والجسد معاً. وإنه تحرر من كثير مما اضطربت به الأديان الأخرى من غموض النصوص أو الشكوك أو الزهد، والتخلي عن الحياة.

ترجمة القرآن

ترجم القرآن إلى مختلف لغات العالم. بلغ عدد الترجمات ٩٥ ترجمة.

١ - عشر ترجمات إلى اللغة الإنجليزية بدأت ١٦٤٩ (اشلندروس، وتوالت بترجمة جورج سيسل ١٧٤٣ طبع ٢٦ مرة. آخرها ١٩١٣. وترجمها رودول ١٨٦١ وبالمر باكسفور ١٨٨٠. وترجمه عنه الحكيم خان ١٩٠٥ ومرزه أبو الفضل ١٩١٣، ومحمد علي حمدي لاهور ١٩١٦، وغلام ساروار (اكسفورد ١٩٣٠) وبكتال ١٩٣٠ ويوسف علي لاهور ١٩٣٥.

٢ - سبع ترجمات إلى اللغة الفرنسية بدأت ١٦٤٧ (دي روبد) نقلها عنه دوس إلى الإنجليزية ١٦٤٩، والهولندية (غلاسياكو) ١٦٥٨ وإلى الألمانية (لانكي) ١٦٨٨، وإلى الروسية ديمتريوس كانتير ١٧١٦، وإلى الروسية فرنكين ١٧٩٠.

ثم ترجمه سفري ١٨٧٣ وتشميرسكي ١٨٤٥ وفاطمة زائدة ١٨٦١ وإدوارد مونيه ١٩٢٣ وماردوس ١٩٢٦ ولاميش ١٩٣١.

٣ ـ ثلاثة عشر ترجمة إلى الألمانية أشويكر ١٦١٦. ووافق نارثر ومكرلين وبوليسين وهننج وغريكوك وروكرت وغرم وغلد شميد ولنكي وأرنلد وكلا مروت.

٤ ـ إلى اليونانية (نبتاكي) ١٨٨٠.

٥ ـ إلى اللاتينية (بلياندر) ١٥٤٣ وماردي ١٦٩٨.

٦ ـ اللغة البولونية ١٨٥٨ (بونسيكفو).

٧ ـ اللغة الإيطالية ١٥٤٧ في ثمان ترجمات: اريفابين وكلزة وبنزيزي وفيولانتي وبرانسي وفراقاسي، ومزوجر ومونلي.

٨ ـ اللغة البرتغالية ١٨٨٢.

٩ ـ اللغة الإسبانية ١٨٤٤ دي رولس، وأورتز ومرجيون دو وكاتو.

١٠ ـ اللغة العبرية ١٨٩٥ (ميكوبوبيرامتش).

١١ ـ اللغة الهولندية خمس ترجمات بدأت ١٦٤١ (شويكر) وغلاسماتركيزر وتولنس.

١٢ ـ اللغة الألبانية: لمسلم اسمه ـ أ. م. ق.

١٣ ـ اللغة العبرية: ١٨٥٧ روكندوف درفلين ورفلين.

١٤ ـ اللغة الهندوكية: ١٩١٨: ترجمة أحمد شاه.

١٥ ـ اللغة الدانماركية: ١٩١٩: بدرسن وبول.

١٦ ـ اللغة الأرمنية: ١٩٠٩ أمير خايناتز ولورنز وكوريتيان.

١٧ ـ اللغة البلغارية: توموف وسكولف ١٩٣٣.

١٨ ـ اللغة البنغالية: ١٣٤٩ هـ (رفيع الدين) وابن محمد عبد الحق. ونعيم الدين، وغولد ساك.

١٩ ـ اللغة الرومانية: ١٩١٢ أيسوبسكل.

٢٠ ـ اللغة المجرية: زدماير وكديون ١٨٥٤ وغرسون.

٢١ ـ اللغة اليابانية: سكاموتو.

٢٢ ـ اللغة البوهيمية: ١٩٢٥ فلي، وينكل.

٢٣ ـ اللغة الصينية: ٤ ترجمات أولها ١٩٣٥ باومن تشن تشنغ ولوين جود هوا جوجز.

٢٤ ـ اللغة السويدية: ١٨٤٣ كروسنستولب وتورنبرج وزترستين.

٢٥ ـ اللغة الأفغانية: ١٣١٩ هـ.

٢٦ ـ اللغة البنجابية: ١٢٩٧ هـ (حافظ محمد بارك الله) وهديه الله كالزي، وشمس الدين البخاري وفيروز الدين.

٢٧ ـ اللغة السواحلية: ديل ١٩٢٣.

٢٨ ـ اللغة السندية: عزيز المتعلوي ١٢٩٣ هـ. ومحمد صديق عبد الرحمن.

٢٩ ـ اللغة الفواجدانية: ٤ ترجمات أولها ١٨٧٩.

٣٠ ـ اللغة الجاوية: ١٩٠٣ (ينادباه).

(٨)
محمد ﷺ

ظلت شخصية النبي محمد ﷺ هدفاً لحملات عنيفة غير منصفة، كجزء من المخطط المرسوم لمهاجمة الإسلام بمهاجمة نبيه، وقد وقف كثير من الكتاب الغربيين أنفسهم على هذه المهمة، محاولين البحث عن شبهات أو روايات ضعيفة لاتخاذها مصدراً لإثارة الشبهات والاتهامات. من ذلك قصة الغرانيق، والشبهات التي أثيرت حول عائشة وتأبير النحل.

وقد جرت هذه الاتهامات فيما يتصل بالوحي والاقتباس من تعاليم الأديان الأخرى.

ومن هؤلاء مرجوليوت والقس كانول سل والأب لامنس الذي أفرد كتاباً خاصًّا عنوانه «هل كان محمد صادقاً» استغل فيه ما أمكن استغلاله من الشبهات المختلفة التي وردت في كتب الشعوبية، ومن كتابه «فاطمة» وقد كانت كتاباته عن طريقة العكس المعروفة، وهي قلب الحقائق كاملة في مجال الاتهام، وترديد اتهامات قديمة حرص على صناعتها رهبان القرون الوسطى.

* * *

وقد استطاعت سيرة «محمد ﷺ» أن تنفذ إلى نفوس الكثير من الباحثين المنصفين، الذين اعترفوا بعظمة الرسول. وقدروها، وعارضوا ما وجه إلى الرسول من اتهامات.

١ ـ يقول كارليل: لسنا نعد محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر، وما الرسالة التي أداها إلا حق صراح، وما كلمته إلا صوت صادر من العالم المجهول. كلا ما محمد بالكاذب، ولا الملفق، وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع.

ويزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يريد بقيامه الشهرة الشخصية، ومفاخر الجاه والسلطان. كلا وايم الله، لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات المتوقد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبرًّا وحكمةً وحجىً وأربة قد نهى عن المطمع الدنيوي، ونواياه ليست في طلب السلطة والجاه، وكيف وتلك نفس صافية كبيرة، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين، فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة. إذ ترى محمداً لم يرض أن يلتفع بمألوف الأكاذيب، ويتوشح بمتبع الأباطيل، لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة، وبحقائق الأمور.

٢ ـ أما جيون في كتابه اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها (١٧٨٨) فإنه ينصف محمداً في هذه النقطة بالذات، نقطة الملك والسيادة بإنشاء مملكة، يقول:

إن سمو إحساس محمد جعله يحتقر بهرج الملك، وكان رسول الله ﷺ يخضع نفسه لما تتطلبه حياة الأسرة من عمل. فقد أوقد النار، وكنس المنزل، وحلب الشاة، وخصف بيديه نعليه، ورتق ثوبه. لقد كان قانعاً يأكل كما يأكل العربي والجندي، وكان في مناسبات قليلة، يولم لرفاقه في سعة، ولكن الأسابيع الكثيرة كانت تنقضي، ولا يوقد في بيته نار لطعام، وكان يحرم الخمر، كما يقضي بذلك الدين، وكثيراً ما كان يخفف

وطأة الجوع بكسرة من خبز الشعير.

٣ ـ ويصور «وليم موير» أسلوب محمد وبيانه فيقول: امتاز محمد بوضوح كلامه، ويسر دينه. وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد.

٤ ـ وعنى دوزي في بعض فصوله من كتاب ملوك الطوائف بالرد على ما ردده خصوم الإسلام فقال: ص ٤٠٥ ـ لو صح ما قاله القساوسة من أن محمداً نبي منافق كذاب، فكيف نعلل انتصاره؟. وما بال فتوحات أتباعه تترى، وتتلو إحداها الأخرى؟. وما بال انتصاراتهم على الشعوب لا تقف عند حد، وكيف لا يدل ذلك على معجزة هذا الرسول؟ لقد كانوا يعتقدون أول أمرهم أن خذلان المسلمين سيتم بمعجزة قريبة. فقد طالما سمعوا عن معجزات الكنيسة، وانتظروا هذه المعجزة التي تخلص البلاد المسيحية من غزوات المسلمين، ولكن انتظارهم هذه المعجزة قد طال، وذهب أدراج الرياح، وأعجب من ذلك أن معجزة أعظم قد حدثت، وكانت معجزة أعظم مما كان يتوهمه القديسون أنفسهم، وأي معجزة أعظم وأروع من أن نرى شعباً كان إلى زمن قليل في غاية من الخمول، ثم ظهر إلى الدنيا فجأة، وظل يتقدم بسرعة لا مثيل لها.

٥ ـ أما المؤرخ سيديو فقد حاول الرد على اتهام النبي بالقسوة أو الجبن مما جاء في كتابات خصوم الإسلام فقال: من التجني على حقائق التاريخ ما كان من عزو بعض الكتاب إلى محمد القسوة والجبن. فقد نسي هؤلاء أن محمداً لم يأل جهداً في إلغاء عادة الثأر الموروثة الكريهة التي كانت خطوة، لدى العرب، كخطوة المبارزات بأوروبا فيما مضى، وكأن أولئك الكتاب لم يقرءوا آيات القرآن التي قضى محمد فيها على عادة الوأد الفظيعة، وكأنهم لم يفكروا في العفو الكريم الذي أنعم به على ألدّ أعدائه

بعد فتح مكة، ولا في الرحمة التي حَبَا بها كثيراً من القبائل عند ممارسة قواعد الحرب الشاقة، ولا إلى ما أبداه من أسف على بعض الأحكام المبتسرة، وكأنهم لم يعلموا أن محمداً لم يسيء استعمال ما اتفق له من السلطان العظيم، قضاء لشهوة القسوة الدنيئة ـ وأنه لم يأل جهداً ـ في الغالب ـ في تقويم من يجور من أصحابه، وكل يعلم أنه رفض بعد غزوة بدر ـ رأي عمر بن الخطاب ـ في قتل الأسرى، وأنه عندما حل وقت مجازاة بني قريظة ترك الحكم في مصيرهم لحليفهم القديم سعد بن معاذ. وأنه صفح عن قاتل عمه حمزة، وأنه لم يرفض قط ما طلب إليه من اللطف والسماح، وليس بمجهول أن خالد ابن الوليد ـ الذي كان من أشجع قواده ـ لم يستطع أن يرعوي ـ بعد إسلامه ـ من روح القسوة والصولة التي كانت تلازمه في زمن الجاهلية، فلاحت له الفرصة بأن يثأر لقريبه القتيل فأثخن في بني خزيمة، فأجمع المسلمون على استفظاع عمله ـ فلما نبيء محمد بما صنع خالد، أسرع في ذمه جهاراً، فرفع يديه إلى السماء قائلاً: اللهم أبرأ إليك مما صنع خالد. .

٦ ـ ودافع المستشرق الإنجليزي «بودلي» عن الزعم القائل بأن محمداً سرق ما في الإنجيل من تعاليم فقال: «الزعم بأنه قد سرق الإنجيل زعم باطل، فما رآه أبداً، والقول باطلاعه على ترجمة الإنجيل الناقصة التي قام بها ورقة بن نوفل لا يضع أمامه إنجيلاً ليراه، وحتى هذه الترجمة لم يرها. فإن أول ترجمة عربية رسمية للعهدين القديم والجديد ظهرت بعد وفاة محمد بقرون. . ».

٧ ـ ولقد وجد «برنارد شو» في شخصية النبي ما دعاه لأن يصفه بمنقذ الإنسانية. فقال: لقد عمد رجال الإكليروس في العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام في أحلك الألوان، وذلك بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم، والواقع أنهم كانوا يسرفون في كراهية محمد عليه

السلام، وكراهية دينه، ويعدونه خصمًا للمسيح. أما أنا فأرى واجباً أن يدعى محمد عليه السلام منقذ الإنسانية، وأعتقد أن رجلاً مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث نجح في حل مشكلاته، وأحل في العالم السلام والسعادة. وما أشد حاجة العالم اليوم إليهما.

٨ ـ وقد أعجب تولستوي بشخصية محمد، وعبر عن ذلك حين قال: لا ريب أن النبي محمداً عليه السلام من عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تخضع للسكينة والسلام. وتفضل عيشة الزهد ومنعها من سفك الدماء، وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقيّ والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام.

٩ ـ وقد أعلن «إميل درمنجم» في كتابه حياة محمد «أنه لا يوجد واحد في الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد عليه السلام، ولكن وجد من ينكرون بعض ما جاء في ترجمة محمد في الكتب العربية، وكم يكون مؤثراً ومفيداً التلاقي مع رجل من الرجال الذين يقتدي بهم جانب عظيم من الإنسانية. أما من الجهة الأوروبية فقد كانت الأوهام والعداوات الدنيئة تحول دون درس حقيقي علمي لعظمة منشىء[1] الإسلام».

ويضيف جون سيمون إلى ذلك قوله: «إن محمداً قد رفع أعلام التمدن». أما الدكتور مار دوس المستشرق الفرنسي، فيرى أن أكثر الكتاب ارتياباً وشكًّا قد خضعوا لسلطان تأثير محمد. أما «جوته» فعنده أن أهل أوروبا لم يصلوا بعد إلى ما وصل إليه محمد. يقول: إننا ـ أي أهل أوروبا ـ بجميع مناهجنا لم نصل إلى أبعد ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد».

---

(١) من الخطأ اعتبار النبي محمد ﷺ منشىء الإسلام.

١٠ ـ أن الصورة التي يرسمها «فارس الخوري» للنبي فهو أن محمداً أعظم عظماء العالم: «لم يجد الدهر بعد بمثله. والدين الذي جاء به أوفى الأديان وأكملها. ويقول: «إن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية، ولم يسع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الشريعة التي دعا الناس إليها باسم الله، وبأنها متفقة مع العلم، مطابقة لأرقى النظم، أن محمداً الذي يحتفلون به أعظم عظماء الأرض، سابقهم ولاحقهم. فقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم، وأنشأ منهم أمة واحدة فتحت العالم المعروف يومئذٍ. وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم، وواجباتهم، وأصول تعاملهم على أسس من أرقى دساتير العالم وأكملها».

١١ ـ أما الدكتورة لورا فينشيا فاليري الكاتبة الإيطالية، فتدافع عن النبي ﷺ بحماس وإيمان وصدق فتقول: قام أعداء الإسلام الألدّاء الذين أعماهم الحقد والتعصب، واتهموا رسول الله ﷺ، ذلك الرجل النبيل الذي كان ينظر إليه قبل الرسالة نظرة إكبار وإجلال من جميع مواطنيه لما تحلى به من الأمانة والسجايا الكريمة، وكانت هذه التهمة التي رموه بها مما لا يقبله عقل، ولا يمكن أن يسلم به عاقل فضلاً عن أنها لا تقوم على أي أساس، وهي تهمة الغش والخداع، وليت شعري كيف أن هؤلاء الناس لم يسألوا أنفسهم إذا كان النبي في الحقيقة كاذباً. فكيف اجترأ على أن يوجه في القرآن إلى. . الكذابين. والمخادعين أشد عبارات الذم وأقساها. وكيف توعدهم بالنار وسوء العذاب. وإذا كان كاذباً في دعوته كما يفترون. فكيف صمد للمقاومة أكثر من عشر سنين، وهو في مكة احتمل في أثنائها الشيء الكثير من صنوف الاضطهاد والآلام. وهو ذلك الرجل الوديع الهادىء الطباع. وكيف تهيأ له أن ينحاز إليه طواعية واختياراً. بل وبمنتهى التحمس جماعات كبيرة من رجالات قريش ونبلائهم، وأن ينضووا تحت

لوائه مع غيرهم من السوقة والعبيد.

أما تهمة القسوة التي يوجهونها إليه. فمن السهل دفعها. لأن محمداً الذي كان على رأس حكومة ويتولى الدفاع عن حياة الشعب وحريته كان يحاكم الخارجين على القانون بصرامة وشدة اقتضتها ظروف البيئة التي كان يعيش فيها.

ولقد كان محمد ـ كرسول يدعو إلى الله ـ رجلاً رحيًا، لين الجانب حتى لأعدائه الشخصيين، وبذلك اجتمعت فيه فضيلتان كلتاهما أكبر الفضائل التي يتصورها العقل البشري. وهما الرحمة والعدالة.

وبحسبه أن الحرب التي هي أقصى ضرورات الحياة الإنسانية قد صارت بفضله أقل وحشية وقسوة. إذ أنه كان يطلب إلى جنوده ألا يقتلوا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً، ولا يهدموا بيوتاً لم تتخذ كمعاقل حربية. وقد أراد أعداء الإسلام أن يظهروا النبي في صورة رجل شهواني إباحي، بأن اتخذوا من زيجاته المتعددة حجة لاتهامه بضعف خلقي لا يتفق. ومركزه النبوة. ولكن فاتهم أمر هام لم يحسبوا له حساباً. وهو أن النبي أيام فتوته، وعنفوان شبابه لم يتزوج إلا من امرأة واحدة، ولم يتزوج من غيرها حتى ماتت. مع أنه كان يعيش بين قوم سادت فيهم كثرة الطلاق والزواج. وكان يندر أن يقتصر الرجل منهم على زوجة واحدة، ولما فقدت وكانت سِنُّهُ حين ذاك خمسين سنة تزوج من أخرى. كما عقد زيجاته المختلفة التي كانت في أغلب الأحيان لدواعٍ اجتماعية أو سياسية، لأنه كان يريد بهذه الطريقة أن يكتسب إلى صَفِّهِ رجالاً أو نساءً تقيات. ويرتبط بروابط المصاهرة بأسر قوية، وكان كل ذلك بقصد نشر الإسلام[1].

١٢ ـ ويدافع الكونت هنري دي كاستري عن اتهام النبي بتأليف

(١) ك ـ محاسن الإسلام: طبع يافا ١٩٣٤ ترجمة طه فوزي.

القرآن ويقول: «وكيف يعقل أن النبي ﷺ ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى. مع أنها في الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها إلا القوم الصالحون. وقد شاهدنا أناساً وما كان أكثرهم أميين قاموا في أمة العرب وادعوا النبوة، منهم مسيلمة الذي زعم أنه قرين محمد عليه السلام: أتى بسور سخر منها العرب، لو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه، وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الأقطار، ويأخذ بمجامع القلوب.

أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته، وهو لا يزال إلى يومنا هذا سرًّا من الأسرار التي تعذر فك طَلَاسِمُها، ولن يسبر غور هذا السر المكنون إلا من يصدق بأنه منزل من الله. اللهم إلا إذا اعتمدنا على قول ممجدي الدين المسيحي مما كنا نرتاح إليه أيام شبيبتنا (وهو يرجع إلى أن القرآن تأليف فاتح أراد تأييد سلطته، فجمع من كتب اليهود والمسيحيين قانوناً أودعه بعض قواعد الأدب والدين، وأضاف إليه قصص الوقائع العظيمة لتأييد رسالته).

وعلى كل حال أي سواء توصلنا إلى معرفة حقيقة القرآن. أم لا. فلا ينكر أحد أن مظهر محمد كان مظهر نبوة بالفعل بقطع النظر عن صدق تلك النبوة، وعدم صدقها. لأن النبوة من حيث هي عبارة عن قيام رجل يملي على الناس أمر ربه، ويعتقد حقًّا أن ما يقوله آتٍ من عند الله.

ومحمد كما قال (ايوالد) عن أنبياء بني إسرائيل أعتقد أن روحاً من الله استولت على لبِّه، فلم يشعر بأن له فكراً خاصًّا. بل إنه أوتيه من عند ربه. واختفت في نظره أنانيته، ولم يعد يسمع غير صوت ذات فوق ذاته، ومن ذلك الحين أخذت شفتاه تنطق بألفاظ. بعضها أشد قوة وأبعد مرمى من بعض والأفكار تتدفق من فمه على الدوام، وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجهه. فظن بعضهم أن به جنة، وهو رأي باطل، لأنه بدأ

رسالته بعد الأربعين، ولم يشاهد عليه قبل ذلك أي اعتلال في الجسم، أو اضطراب في القوة المادية.

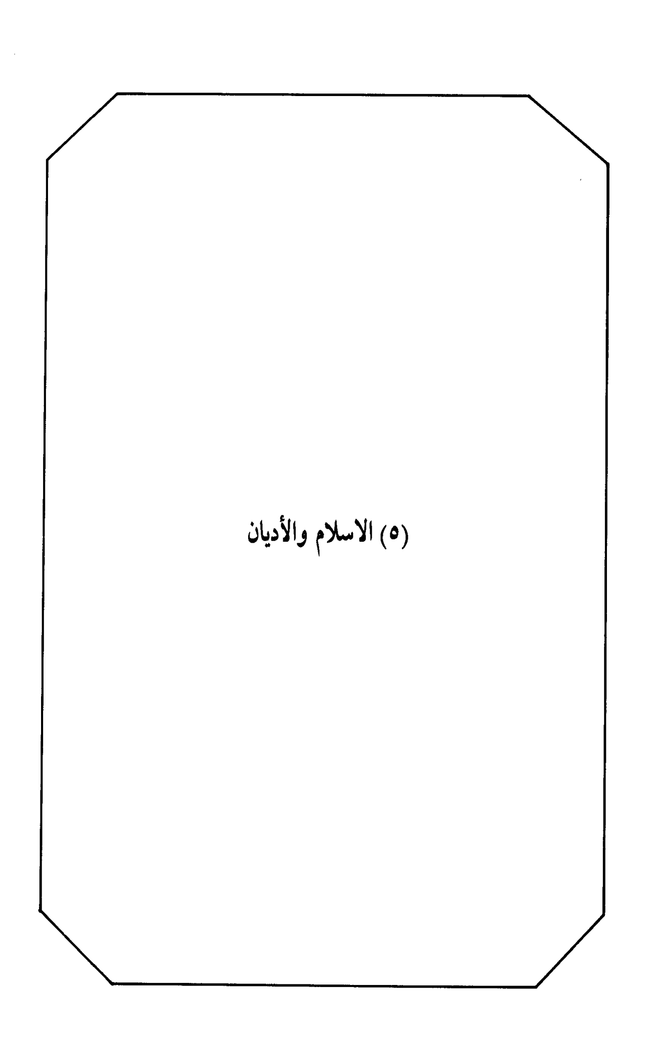
ويقول: إذن فليس محمد من المبتدعين، ولا من المنتحلين كتابهم، وليس هو نبي سلاب كما يقول: (سايوس) نعم: قد نرى تشابهاً بين القرآن والتوراة في بعض المواضع. إلا أن سببه ميسور المعرفة، ذلك أن محمداً كان يلصق ديانة الإسلام بالديانتين المسيحية واليهودية (كذا). وحينئذٍ لا عجب إذا تشابهت تلك الكتب في بعض المواضع، خصوصاً إذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها. كما أن محمداً هو خاتم الأنبياء[1].

* * *

ومن جماع هذه الآراء تبدو صورة محمد ﷺ واضحة في نفوس المنصفين من الغربيين على نحو قريب جدًّا، مما هي في نفوس المسلمين. ولا شك أن مصدر هذا النصر هو قوة الإسلام الذاتية في فرض تعاليمه وتاريخه وأفكاره على الفكر العالمي، وتأثيره فيه، بالرغم من كل المحاولات التي اتخذت لتمزيق صفحته، وتشويه ملامحه. فقد استطاع أن يحفر تياراً قوياً على أيدي مجموعة من الأعلام من رجال الفكر والأدب والبحث العلمي.

---

(١) الإسلام خواطر وسوانح: تأليف هنري دي كاستري ـ ترجمة أحمد فتحي زغلول ـ عام ١٩١١.


(٥) الاسلام والأديان



عالم الغرب هذا عالم له مفاهيمه وثقافته وفكره الذي تطبعه مقومات خاصة، يستمدها من الثقافة الإغريقية، والحضارة الرومانية أساساً. والذي يرى أن المسيحية بالنسبة له شيء دخيل جاءه من الشرق، ولذلك فإنه لم يلبث أن طواها في بوتقته، فأصبحت له «مسيحيته الغربية» التي تختلف عن المسيحية الأصلية، وعن مفاهيمها في الشرق. وهذا الغرب الذي يفهم عن نفسه أنه سيد هذا الكوكب، وحاكمه والمسيطر عليه بالحضارة والاستعمار في يده كل مقاليد المدنية، والفكر والثقافة، وهو المسيطر على غيره من شعوب العالم الجنس الأبيض ذي المحتد الممتاز، وريث الآرية، والسكسونية والجرمانية واللاتينية. وفي ظل هذه المفاهيم المستعلية على الشعوب الملونة، والأجناس السامية والحامية. وعلى الشرق بالذات، وعلى غير المسيحية من أديان، ومن خلال نظرات منحرفة عنيفة تصور الإسلام والمسلمين بصورة الغزاة الذين اقتحموا النفوذ المسيحي الأوروبي، واكتسحوا الدولة الرومانية، ثم اقتحموا أوروبا وسيطروا على الأندلس، ومدوا نفوذهم إلى فرنسا وإيطاليا، ثم إلى البلقان حتى نهر اللوار. وفي ظل هذه المفاهيم كانت حقيقة الإسلام مليئة بالضباب، مجللة بالسواد في نظر المثقفين الغربيين. وقد زادتها قوى الاستعمار والكنيسة، ولها سلطانها على الصحافة والتأليف، ومناهج التعليم ـ زادتها قوة على أن تفهم عن الإسلام غير جوهره وخلاف حقيقته.

غير أن الإسلام بذاتيته القوية. ومن خلال هذه الصورة المضيئة التي وصلت إلى أهل الغرب. استطاع أن ينفذ بأضوائه القوية إلى بعض النفوس والقلوب، فيهزها هزًّا، ويدفعها إلى دنيا جديدة من الفكر والنظر. ومن هنا استطاع أن يحرز هذه الانتصارات الضخمة بكسب هذه المجموعة من أعلام الرأي إلى صفِّه، فيحول بعض المتعصبين ضده إلى أن يحسنوا الرأي فيه، وينقل أفراداً ممتازين إلى عقيدة الإسلام، ويضم عشرات من المنصفين إلى الثقة به كحقيقة كبرى، وكقوة حية، فيرى فيه أغلبهم أنه سناد الحضارة، وأنه منقذها، ويتنبأ له الكثيرون بأنه سيكون عقيدة المستقبل، وضياء الغد، ومنقذ الإنسانية من البلبلة والاضطراب.

ونحن إذا استعرضنا حياة هؤلاء الكتاب الذين أنصفوا الإسلام نعجب، فهم لم يكونوا في حاجة إلى شهرة أو غنى أو يطمعون في مغنم حين أعلنوا صيحتهم، بل إن بعضهم قد أعلن هذه الصيحة في وقت مبكر جدًّا. عندما كان الغرب قوي الحملة على الإسلام. عنيف التعصب ضده، فهنري دي كاستري يكتب كتابه عن (الإسلام) عام ١٨٩٦. وجوستاف لوبون يقول: رأيه عام ١٨٨٤. وكارليل يعلن عظمة محمد في العقد الأخير من القرن التاسع عشر يوم كانت أوروبا تشب نار الحملة على الأديان، وتهاجم الإسلام.

ثم يولي هؤلاء الكتاب الذين آمنوا بالإسلام إيماناً فكرياً. غير أن هناك مجموعة أخرى آمنت بالإسلام إيماناً حقيقياً واعتنقته فعلاً، ولها مؤلفات وكتابات تكشف فيها عن حقيقة التحول الخطير الذي نقلها إلى الإسلام. وفي مقدمة هؤلاء خالد شلدريك، وهاري هبيكل، واللورد هدلي، وعبد الله كوليام. والدكتورة لورا فينيشيا فاليري، وليوبولد فايس، وهم بين إيطالي وإنجليزي وفرنسي.

والدكتور خالد شلدريك دخل الإسلام (يوليو ١٩٠٣) نتيجة بحثه

الشخصي. وكان إلى ذلك الوقت لم يقرأ كتاباً من مؤلفات المسلمين، ولا التقى بمسلم. يقول: كنت أطالع ما يكتب من النبذ اللاهوتية عن الدين المسيحي، ووقع في يدي كتيب عن الإسلام ألف من وجهة النظر المسيحية. فالله الرحمن الرحيم. هو الذي هداني. وفي هذه الفترة توليت التدريس في مدارس مختلفة، فكنت أبث الطلبة ما اقتنعت به عن الإسلام، وأول مسلم اتصلت به هو الشيخ عبد الله كوليام الذي كان قائمًا بالدعوة في «ليفربول» وفي عام ١٩٠٥ قابلت مسلمًا هندياً أسس جمعية الجامعة الإسلامية في لندن.

وقد فقد بإسلامه كل ما كان يملك من ثروة. فقد حرمه أهله حقه. وكان عليه أن يبدأ الكفاح في سبيل المعيشة، وله بعد ذلك مواقفه بالنسبة لحادث دنشواي (١٩٠٦) ولاعتداء الإيطاليين على طرابلس الغرب ١٩١١.

وأتيح له أن يقوم برحلة طويلة إلى بورما وسيلان، وسنغافورة، والصين، واليابان، والفيليبين في سبيل نشر الإسلام. والوقوف على حال المسلمين. وقد زار القاهرة وألقى بها محاضرة[1]. وله أبحاث في مجلة (Real Islam) التي تصدر في لندن.

أما اللورد هدلي فقد روى قصة إسلامه كاملة في الفصل التالي. وقد زار مصر. (يناير ١٩٣٠) وألقى عديداً من المحاضرات. وصدر باسمه كتاب بعنوان (إيقاظ الغرب للإسلام) عام ١٩٢٢. وهو صاحب مجلة (The Islamic Renieo) بجامع ووكنج. وكان يسمي نفسه «سيف الرحمن رحمة الله فاروق» وقد سافر إلى الحجاز في عام ١٩٢٣. ونشرت له المنار سنة ١٩١٣ (م ٧) كما نشرت له معظم المجلات المصرية مثل كل شيء

---

(١) الفتح ١٣ صفر ١٣٥٧ هـ م ١٢ ـ العدد ٥٥١.

(١٢ يناير ١٩٣٠) وقد كان من أغنى البريطانيين. ومن أعلى أسرهم حسباً، يعمل مهندساً بحرياً. ويمتلك عدة ألوف من الأفدنة.

ولقد كان اللورد هدلي يطمع في أن ينشر الإسلام في بريطانيا بالذات. وبذل في سبيل ذلك كثيراً من جهده. أما ناصر الدين دنيه (اتيان دينيته). فهو من كبار أهل الفن، ورجال التصوير الفرنسيين. وصاحب اللوحات النفيسة القيمة التي تزدان بها جدران المعارض الفنية. وله صورة شهيرة هي غداة رمضان. ويتصف بالقدرة على رسم الصحراء، وتصوير حياة الصحراء، كما تدل على دقة التعبير عن الحالات النفسية المختلفة. امتاز بتخصيصه في تصوير الحياة الإسلامية. وبالأخص في بلاد الجزائر. حيث اتخذ له فيها موطناً في (بو سعادة) وله كتاب حياة العرب، والسراب، حياة الصحراء. كتاب ربيع القلوب. والشرق كما يراه الغرب.

وفي سنة ١٩٢٧ أعلن إسلامه رسمياً بالجامع الجديد بمدينة الجزائر في اجتماع حافل بمفتي الجزائر، ووزير العدل التونسي. أشهد الناس على أنه يدين بالإسلام من عشرات السنين. وإن لم يجهر به إلا اليوم، ويريد أن يدفنوه في قبره مسلمًا حنيفاً لم يتخذ الإسلام إلا بعد تحقيق وتدقيق.

وليست هذه الصورة التي نقدمها للذين أسلموا إلا نماذج تكشف عن عظمة الإسلام الذاتية، وقدرته على فتح الطريق أمام حقائقه وقيمه ومقاصده في كل بيئة.

* * *

وأمامي صور كثيرة تدل على مدى ما اهتزت النفوس لكلمة الإسلام ودعوته. فالفيلسوف «أوغست كونت»[١] الذي كانت دعوته مادية خالصة. يهتز عندما يرى الصلاة، يقول: لا يسعني عندما أنظر إلى فريق من المسلمين، وهم يؤدون مناسكهم وفروض صلاتهم بشكل جماعة متكافئة في

(١) نقلاً عن كتاب بين الديانات والحضارات (ص ٢١).

أحد مساجد (فاس) والسكون والإيمان العذب يجثمان فوق رؤوسهم إلا أن أكبر عظمة هذا الدين الذي عرف كيف يصقل الأذهان، ويهذب النفوس، ويشرق القلوب، ويقوم الأخلاق، ويقضي على تمرد الروح، ويحوله إلى خشوع عميق وتواضع ملؤه الوجد والخضوع. ولقد اشتهيت أن أكون يوماً أحد أفراد هذه الأفواج الساجدة لربها. فأراحت ضمائرها بهذا النوع البريء من العبادة المخلصة.

ولكني لا أدري لماذا لا أكون إلا ذلك المتمرد. ضل ولم يهتد، وما زال يتوغل في الأعماق. ونرى مسيو ريمون الرحالة المشهور في أثناء طوافه في مجاهل إفريقيا. يقول: إنه لم يكن يأمن على نفسه. ولا على رجاله إلا عند المسلمين. فكان يصادف منهم أُنساً ولطفاً. وحسن ضيافة. وفي رسالة مطولة عن المسلمين في المجاهل قال: «إن الإسلام انتشر كثيراً في جهات إفريقيا وآسيا. وكان انتشاره طبيعياً لأن المسلمين كانوا قدوةً حسنة لسائر جيرانهم، فلحقوا بهم، وحذوا حذوهم. وبالتدريج عرفوا ما الإسلام فاعتنقوه وصاروا مسلمين.

بل إن «غليوم» عاهل ألمانيا العظيم قد صرح في ٩ نوفمبر ١٨٩٨ وسجلته مختلف صحف العالم بعد زيارة لبيت المقدس قوله: لو لم يكن لي دين لكنت قد اعتنقت حتمًا الدين الإسلامي، وربما كان تصريحه سياسيًّا. ولكنه على أي حال يحمل معنى الهيبة الواضحة للإسلام.

وهذا نموذج آخر: يصل إلى القاهرة بين حين وآخر رجل وزوجته، ويعتنقان الإسلام. ورجال من مختلف أنحاء العالم يفعلون ذلك.

ولكن مستر لومكس وزوجته ألن يونافيسي. وهما أستاذان بجامعة كولومبيا قالا[1] «إننا كنا نقرأ كثيراً في القرآن الكريم (ترجمة مولاي محمد

---

(١) الأهرام: ١٩٣١/٣/٤.

علي) وكانت معانيه تلذ لنا كثيراً. وكنا نحاول أن نطبقها على الحياة الفطرية. فكانت محاولاتنا تنتهي دائمًا بالنجاح. وقد أخذ بقلوبنا وأثر فينا التأثير كله. ذلك المعنى الجميل الذي تضمنته تلك الآيات الكريمة التي تقول: ﴿ قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾. فهذه السورة هي التي جعلتنا نسرع فندين بالإسلام. ولقد رفضنا أن نعمل مع غير المسلمين في بلادنا وآثرنا أن نعيش وأولادنا كما يشاء الله. وتكشف الصور المختلفة لإسلام هؤلاء كيف أن بساطة الإسلام هي: أبرز معالمه، وترى كيف تبدو نصاعة مقاصده عند المقارنة بينه وبين الأديان الأخرى واضحة غاية في الوضوح. وأبرز هذه المقاصد انفتاحه على الحياة، وبعده عن عقد التسلط المختلفة.

عبد الله كوليام

منذ ستين عاماً أشار عليّ الأطباء براحة أمضيها في جبل طارق، فلما سرت إلى هناك ركبت سفينة إلى طنجة لمشاهدة البلاد المراكشية، واتفق انني لما صعدت السفينة رأيت فيها بعض الحجاج من أهل المغرب يغترفون الماء بالدلو من البحر ويتطهرون مبالغين في النظافة، ثم أقلعت السفينة. وما كادت تغادر الميناء حتى رأيت هؤلاء الجماعة قد اصطفوا للصلاة صفوفاً جميلة، وجعلوا يصلون معاً بخشوع وطمأنينة. غير مكترثين بتمايل السفينة واضطراب الريح. ولقد أثر في نفسي ما قرأته على وجوههم من صدق الإيمان. فأثارت حالتهم هذا الاهتمام الزائد عندي في أن أستزيدهم عن الدين الذي يدينون به. وما عتمت أن تعرفت بمسلم يتكلم الإنجليزية. فكان يلازمني مدة إقامتي في طنجة، ولا سيما بعدما شعر مني بالرغبة في معرفة المبادىء التي يدعو الإسلام إليها، وعولت على أن أقرأ الإسلام في كتبه، وأن أقرأ ما كتبه عنه العلماء المنصفون، فقرأت ترجمة (سل) للقرآن الكريم وكتاب الأبطال لكارليل، وما خرجت من طنجة إلا وأنا مستسلم للإسلام، مذعن لقوته، مقر بأنه حق، وأنه خير الأديان.

ولما رجعت إلى انجلترا كان شغلي الشاغل التفكير في الأسلوب الذي يجب أن أتبعه لأدعو الناس إلى الإسلام. وأقنعهم به، وأحملهم على الإيمان به، وكنت أعلم أن ما شحنه أعداء هذه الهداية في رؤوس الأوروبيين عن

الإسلام سيحول بيني وبين التفاهم مع الجمهور بطريق المحاضرات أو النشر. لأن جمهور الإنجليز إذا حدثتهم عن الإسلام يظنون أنك تحدثهم عن دين وثني، والصحف لا تفتح صدرها لمثل هذه الدعوة.

ثم بدا لي أن أطرق باباً غير مباشر، فألقيت محاضرة في جمعية النهي عن المسكرات موضوعها (المتعصبون والتعصب) تحدثت فيها عن الشخصيات البارزة في علم الاختراع مثل: ستفنسون مكتشف القوة البخارية. ويلبرفورس المجاهد في سبيل تحرر الرقيق، وأتيت على مجمل ما لاقاه كل هؤلاء من المقاومة والاضطهاد والسخرية.

ثم أردفت بذكر (محمد ﷺ) فقلت إن هذا المصلح الكبير جاء البشر برسالة. ودعا الناس إلى الخير، ومع ذلك فقد ناله من الأذى والاضطهاد ما يجده كل مصلح عظيم يعمل على خير الإنسانية. فلما تبين البشر فضله دخلوا في دينه أفواجاً، وما زالوا كذلك حتى بلغوا الآن مئات الملايين في جميع أطراف المعمورة، ثم ذكرت شيئاً من آداب الإسلام والمبادىء والتعاليم التي دعا إليها النبي.

فلما حصلت عليها الصحف، أسرع القسس إلى مديري الصحف. وقالوا إن المحاضرة بها دسائس، وأنها متضمنة الدعوة إلى دين وثني، فوافق مديرو الصحف على حذف ما في المحاضرة خاصاً بمحمد، ونشروا الباقي.

فأنذرت الصحف بالمحاكمة أمام القضاء على تشويه محاضرتي، فعادوا ونشروا المحاضرة كاملة، وكان لذلك تأثير عظيم لكثرة الأيدي التي تناولت تلك الصحف، ثم فكرت بعد النجاح أن يكون في بلدي (ليفربول) مكان تقام فيه الشعائر الإسلامية، وما كدنا نفتح هذا البيت حتى صار القسس يدسون لنا الأشرار والمتحمسين من صغار العقول، ومما أوذينا به. أن أولئك الأشرار كانوا يلقون الأقذار على المصلين، وكانوا

يرجمون المؤذن بالحجارة، وينثرون الزجاج المكسور على سجادات الصلاة.

ودخلت المسجد مرة ألقى محاضرة في تفسير آية من القرآن الشريف. فوجدت قد سبقنا إلى المسجد جماعة قرأت في وجوههم أنها وجوه مريبة، فلم أبال بهم، وتلوت آية القرآن الشريف، وشرعت أفسرها وأستنتج منها العظات والعبر، فلما انتهيت من المحاضرة قام أحدهم وأخرج من جيبه حجارة وألقاها على الأرض. وقال لأصحابه: من كان منكم يريد أن يرجم المسلمين بالحجارة التي معه، فأنا صرت مسلمًا فارجموني بها. فألقوها هم أيضاً على الأرض، وأعلنوا إسلامهم. وهو الرجل الذي كان رئيساً لهم ما لبث أن أصبح عضدي الأيمن، ولازمني في كل رحلاتي التي قمت بها للدعوة إلى الإسلام، وعلى يدي أسلمت سكرتيرة جمعية منع المسكرات في (بير كنهيد) وسميت (فاطمة) وأسلم على يدها شقيقاتها وزوجها.

والآن فإن البعض يعتقدون أن اللورد (هدلي) هو أول لورد إنجليزي دخل في الإسلام، وليس هذا صحيحاً. فقد دخل الإسلام مثله لورد (ستنلي أولدرلي) الذي كان يحب أن يدعى باسم (عبد الرحمن أفندي) وكان يأتي مسجدنا فيصلي مع إخواننا رغم ما بينهم وبينه من التفاوت العظيم في المنزلة الاجتماعية[1].

الدكتورة لورا فنيشا فاليري[2]

هدأت في أيامنا هذه نار الحقد والكراهية التي كانت تتأجج في صدور الباحثين من الأوروبيين في الشؤون الإسلامية طوال سني القرون الوسطى، وفي جانب كبير من سني العصر الحاضر، ولم يعد نبي العرب في نظر أحد ممن يتصدون لهذه الأبحاث. ذلك المستحق لأحط الشتائم،

(١) الحديقة ص - ٢٠٠ جـ ٧.

(٢) من كتابها محاسن الإسلام: ترجمة محمد فوزي.

وأفظع عبارات السباب، حيث ظهرت في العصر الأخير أبحاث ادعى أصحابها التزام الحياد، وقد ألقت مصنفاتهم هذه ضوءاً جديداً على أصول ديانة جديدة قلبت العالم بأسره رأساً على عقب، على أن المسلم القوي الإيمان، المخلص لربه ورسوله - والذي يرى في الإسلام ينبوع سعادة أبدية في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لم يصل إلينا صـوته إلا ضعيفاً جدًّا. إذ أن آراء مشاهير كتاب الإسلام التي كتبت بلغات لا يقرؤها إلا نفر قليل من الغربيين ظلت مجهولة بوجه عام في العالم الأوروبي، ولا نستطيع فهم الروح الصحيحة لدين من الأديان. إذا لم نتبين جيداً آراء الذين يدينون به، وندرك الشعور الذي يحملونه بين جوانحهم.

ولما كانت النتائج التي وصل إليها الباحثون الغربيون غير متوفرة فيها الغيرة الصادقة الواجبة، كما أنها قائمة غالباً على أفكار لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يسلم بصحتها مسلم مخلص لعقيدته. فهي لهذه الأسباب لا تصلح لأن تكون أساساً لكتابة يقصد بها اطلاع الغربيين على كنه الديانة الإسلامية، والشريعة السمحاء، حتى يقدروا عظمتها، ويعرفـوا أصولها، ويشعروا بقوة إقناعها، ويلموا بما فيها من عوامل تقدم ونهوض.

لم يشهد التاريخ حادثاً مماثلاً لهذا الحـادث الخطير. لأن السـرعة العظيمة التي أتم بها الإسلام فتوحاته كان لها أبلغ الأثر في حياته. إذ أنه بعد أن كان عقيدة نفر من المتحمسين أصبح ديانة لعـدة ملايـين من الناس. وليت شعري كيف تأتى لهؤلاء المجاهدين غير المدربين أن ينتصروا على شعوب تفوقهم مدنية وثروة، وتزيد عليهم دربة ومراساً للحروب، وكيف استطاعوا أن يبسطوا سلطانهم على بـلاد متسعة الأرجـاء، وأن يحتفظوا بفتوحاتهم هذه، ويوطدوا هذا الصرح العظيم الذي ثبت أمام حروب شديدة استمرت قروناً عديدة. فلم تقو على هدمه، ونقض بنيانه الشامخ المتين، وكيف أمكن هذا الدين أن يوطد في نفوس أولئك المهتدين

الحديثي الإيمان أمتن الأسس، وكيف تسنى له أن يحتفظ بحيويته العظيمة التي لم تعرف مثلها ديانة أخرى من قبل حتى بعد ثلاثة عشر قرناً خلت بعد حياة مؤسسه.

وبعد فكيف لم ينقطع الإسلام عن الانتشار والذيوع في إفريقيا وآسيا رغم حرية الاعتقاد التي يتمتع بها غير المسلمين في البلاد الإسلامية، ورغمًا عن عدم وجود نظام للدعاية الإسلامية. وهو الآن لا يسبقه سيف الفاتحين. بل على النقيض من ذلك. فإن البلاد التي كانت ترفرف فوقها رايته أصبحت محكومة برجال ذي عقائد أخرى، ولم يستطيعوا مع ذلك أن يصرفوا رعاياهم عنه أو يعتقلوه من قلوبهم.

فأية قوة عجيبة تنطوي عليها هذه الديانة. وما هي قوة الإقناع التي تستند إليها. وفي أية عروق للنفس البشرية تجد غذاءها وقوام حياتها.

لقد رفع الإسلام النقاب الذي أسدله الآخرون على الكتب المقدسة ليحولوا دون فهمها، وأنب أولئك الذين لا يعرفون من أمر هذه الكتب إلا قراءتها، وشبه الذين لم يفهموا روح التوراة ومراميها، ولم يحسنوا القيام على ذلك بالحمار يحمل أسفاراً.

وليس للمسلمين مجامع مقدسة، ومجالس (سينودس) خاصة تقرر لهم نصوصاً تكون لهم بمثابة أصول للديانة الصحيحة، ولم يعترف الإسلام لكائن من كان من أتباعه بحق الحكم على إيمان أحد من إخوانه في الدين.

وبينما فرضت الأديان الأخرى على أتباعها مجموعة ضخمة من المعتقدات العسيرة الفهم. فإن الإسلام قد تجلت فيه البساطة والنورانية.

وكان ذلك مدعاة لسرعة انتشاره في أيام الفتح الأولى بين الشعوب التي كانت في اضطراب نفساني عميق نظراً لما كان يساور نفوسها من

الشكوك في عقائدها الدينية. وهذا هو نفس السبب في استمرار انتشاره في هذه الأيام بين أبناء الأمم غير المتعلمة في آسيا وإفريقيا. إذ أنه نجح في التغلغل إلى نفوسهم الساذجة، وعقولهم الفطرية.

إن الناس لتتلهف على دين يتفق، وحاجاتهم ومصالحهم الدنيوية، ولا يكون قاصراً على إرضاء مشاعرهم وإحساساتهم ويريدون أن يكون هذا الدين وسيلة لأمنهم وطمأنينتهم وسعادتهم. وليس هناك من دين تتوفر فيه هذه المزايا كلها بشكل رائع سوى دين الإسلام. إذ أنه ليس مجرد دين فحسب. بل إن فيه حياة للناس، لأنه يعلمهم كيف يحسنون التفكير والكلام، ويحضهم على فعل الخير وصالح الأعمال. ولذلك سرعان ما شق طريقه إلى القلوب والأفهام.

وسيعود المسلمون مرة ثانية إلى الارتواء من منهلهم العذب الصافي، وهو القرآن الذي لم تمسسه يد عدو ولا حبيب ولا عاقل ولا جاهل، ولكنه بقي بدون تغيير ولا تبديل في خلال العصور الماضية، كما أوحى الله به إلى رسوله النبي الأميّ خاتم الأنبياء والمرسلين.

لورد هدلي

(١)

إنني بإعلان إسلامي لم أحد مطلقاً عما اعتقدته منذ عشرين سنة. إن عدم تسامح المتمسكين بالنصرانية كان أكبر سبب في خروجي على جامعاتهم. إن طهارة الإسلام وسهولته وبعده عن الأهواء والمذاهب الكهنوتية ووضوح حجته كانت هذه الأشياء أكبر ما أثر في نفسي.

إن اعتقاداتي الحاضرة ليست إلا نتيجة تفكير قضيت فيه عدة سنين. إن الدخول في الإسلام يجب أن يكون ـ كما يقول القرآن ـ بإرادة الإنسان وبرأيه الذاتي.

وأعتقد أنه يوجد ألوف من الرجال والنساء الذين يدينون بالإسلام في قلوبهم، ولكن مخالفة الإجماع، وخوف الانتقاد والرغبة في اجتناب كل ضيق أو تغيير يحملهم على عدم الجهر بما في قلوبهم.

ولا ريب أن أسعد أيام حياتي هو اليوم الذي جاهرت فيه على رؤوس الأشهاد بأنني اتخذت الإسلام ديناً لي. وإذا كنت قد ولدت مسيحياً، فهذا لا يحتم عليَّ أن أبقى كذلك طوال حياتي، فعلى المرء أن يبحث عن الدين الأمثل. وقد بحثت عنه أنا فوجدته ديناً يمتاز على غيره ببساطته وخلوه من كل مغالطة وإبهام، فقررت أن أعتنق هذا الدين الذي ليس فيه أثر للاحتمالات والخيالات التي لا يسع العقل التسليم بها. بل هو الدين الذي يدعو إلى الثقة الكاملة بعدل الله ورحمته.

وإني مسلم منذ خمسين سنة، ولكني لم أعتنق الإسلام رسمياً إلا في نوفمبر ١٩١٣. وذلك لأسباب عائلية. وقد كنت من صغري أشك في أمور كثيرة في الدين المسيحي، وكنت لا أعرف كيف أستطيع أن أؤمن بالمبدأ المسيحي القائل: إذا كنت لا تؤمن بألوهية المسيح، فلا تنجو من عذاب جهنم الأبدي، وإذا لم تأكل جسد المسيح وتشرب دمه فلن تنجو أيضاً.

لذلك كنت في دخيلة نفسي ثائراً على الديانة المسيحية منذ الصغر. وفي عام ١٨٨٣ سافرت إلى الهند. إلى مقاطعة كشمير لمشاريع هندسية، وإنشاء فرق لتعمير تلك الولايات على الطرق الحديثة الفنية. وهناك اجتمعت بصديقي الكولونيل: الذي أهداني نسخة من القرآن الكريم.

وكنت أجد في هذا الكتاب الشريف من بساطة الدين الإسلامي المبني على الفطرة الطبيعية الصادقة التي تدفع الإنسان إلى الخير، وتنهاه عن المنكر، ما يوافق طبيعة نفسي، ويلائم روحي، وكنت كلما قرأت في ذلك المصحف الشريف اكتشفت بنفسي أنني مسلم دون أن يبشرني أحد

بالإسلام، ودون أن يدعوني أحد إلى الإسلام. لذلك أحب أن يترك الإنسان في مسألة الأديان إلى نفسه ليختار الدين الذي يريده أو يوافقه، وأنا أعتقد أن ثلاثة أرباع الناس في إنجلترا هم مسلمون دون أن يشعروا أو يعرفوا ذلك.

وإذا سألت أحداً ما هو دينك. فيقول لك: أنا مسيحي، وإذا قلت له كلا، فأنت مسلم بحسب اعتقادك، يضحك منك قائلاً: كلا فأنا على دين المسيح.

أنا أؤمن أن ﴿لا إله إلا الله﴾ وأؤمن أن محمداً وموسى وعيسى أنبياء الله، لا نفرق بينهم بحسب تعاليم القرآن الكريم، وأجد في الإسلام ديناً بسيطاً يفهمه قلبي، ويتفق معه عقلي، لأني لا أستطيع أن أؤمن بما لا يفهمه القلب، ولا يتفق مع العقل. وقد خطر لي أن أعلن إسلامي منذ صغري، ولكني كنت مضطراً إلى مراعاة عواطف أنسبائي المتقدمين في العمر الذين كنت في غير شك سأجرح عواطفهم، وأكسر قلوبهم إذا أعلنت أني خرجت عن دينهم الذي يعتنقونه، ويعتقدون أنه لا خلاص لمن لا يؤمن به.

ولكن في السنوات الأخيرة قبل الحرب مات جميع المتقدمين في السن من أقربائي، وفي ذلك الحين تعرفت بصديقي خوجة كمال الدين، فكنا نتحدث ونتباحث كثيراً في أمور الدين الإسلامي. ولا أنكر أن له الفضل الأكبر في مساعدتي وإرشادي لإعلاني الانضمام إلى حظيرة الدين الإسلامي.

وقد كنت أعجب دائمًا بما كنت أقرأ عن أبطال الإسلام، وعن أولئك الأفراد الذين خرجوا من العراء حفاة الأقدام، فاستطاعوا أن يكونوا أعظم قواد العالم وأعدل قضاة الأرض، وأشهر المشرعين على الاطلاق،

وإني أفخر بديني الجديد، وأشكر الله عليه، فهو دين بسيط جدًّا، مفهوم تماماً، أعرفه كما هو، وأعيش بموجبه مسترشداً بما يوحيه إلى ضميري ووجداني.

(٢)

عندما كنت أقضي ـ أنا نفسي ـ الزمن الطويل من حياتي الأولى في جو المسيحية. كنت أشعر دائمًا أن الدين الإسلامي به الحسنى والسهولة، وأنه خلو من عقائد الرومان والبروتستانت، وثبتني في هذا الاعتقاد زيارتي للشرق التي أعقبت ذلك، ودراستي للقرآن المجيد.

كثير من الكتابات المسيحية تثبط عزم المجد وراء الحقيقة. بإصرارها على إنكار حق الإنسان في أن يتمتع سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة، وجميع الملذات الدنيوية العظيمة تقريباً. قيل عنها أنها ذنوب وآثام. والحقيقة أن ضد ذلك هو الذي يجب أن يكون ذنوباً وآثاماً.

والغيب مغطى بظلمة الغموض، ولكن بدلاً من أن نستوضح الألغاز عقدت لنا عقائد الكنائس الأحوال تعقيداً عظيًا، وساعدت على غلق الطريق أمام الإيمان والاعتقاد الواضح المعقول.

ولكن روح الإسلام الحقيقي تمكن الناس من أن يتصلوا بخالقهم بدون واسطة أو تدخل. ينظر في هذا العصر للديانة كأنها شيء مزعج، والناس إما ملحدين أو متبعون إتباعاً أعمى لصنوف عقائد من الأفكار التي لا تقبلها عقولهم، وتعاديها. إلا أنهم يعترفون بها ظاهراً، لأنهم يظنون أن ذلك هو خير لهم، وأنه يؤدي المطلوب.

إذا كان يمكننا أن نجد فكراً قوياً «خالياً من العقد» لكي ينتخب لنا الدين الحق الذي يجب أن نتبعه تكون تلك خطوة عظيمة جدًّا نحو الاتجاه

المطلوب. إننا إذا ذهبنا إلى القسس والرهبان لا نجد لديهم أي مساعدة. لأن المذاهب المتعددة تناقض بعضها على حد مستقيم.

إنني أعتقد اعتقاداً راسخاً بأنه لو اتبعت الشريعة المحمدية التي أتت في القرآن الكريم بعناية تامة ودقة لأصبح من السهل جدًّا حكم الشعب. وقد مر العصر الذي كان يمكن أن يجتهد فيه لإقامة أي دين بقوة الأسلحة، وإنني لمتأكد من أن المسلمين ـ أولئك القوم المتشبعون بالإخلاص والوفاء ـ ما حاولوا قط أن يقيموا الدين الإسلامي بالطرق العنيفة.

وإني لمتأكد أنه إذا فهم رجال إنكلترا المعنى الحقيقي للإسلام، لَسَعَوْا في أن يخفوا سوء فهمهم المخجل في الوقت الحاضر.

ينظر الأوروبيون دائمًا إلى الإسلام كأنه وحشية وهمجية، فلو علموا كل ما فعله محمد لإزالة التوحش والهمجية التي لقيها داخل بلاد العرب لغيروا تلك الأفكار حالاً. إنهم هم المبشرون المسيحيون الذين لم يدخروا وسعاً في تحريف الديانة الإسلامية. وإن هذا لأعظم الكذب الذي يخزيهم.

ما أعظم الفرق بين الطمس التعمدي للحقيقة، وبين الحالة التي يسير عليها المبشر المسلم في عمله. وليس هناك أي فضيلة دينية من الفضائل المحمدية تطلب أي سلطة دينية. إذ عظمة الإسلام أرفع من أن تسيطر عليها مثل هذه الاعتبارات الدنيئة، وكل متبع اتباعاً حقيقياً للنبي العظيم يتطلع إلى جزاء أرقى بكثير من الغنى، والفوائد الدنيوية كرقي ضوء الشمس عن ضوء الفسفور.

ليس هناك باباوات ولا أساقف ولا رهبان ولا قسس يطلبون هبات أو أرباحاً. لأن الله نفسه هو «رأس» هاتيك الفضائل الروحية.

أنبأنا التاريخ أن الكنائس المسيحية تطالب دائمًا أن يكون لها سلطة

دنيوية، ويمكننا أن نشير إلى بيع المغفرة، وتوزيع المعاشات الدسمة، كي نبين فظاعة الأحوال. إن معظم ديانة الغرب ما هي في الواقع إلا نتيجة خرافات القرون الوسطى، وبقايا العصور المظلمة، ولا تتفق مع تعاليم موسى والمسيح.

فمجيء محمد بعد المسيح بستمائة سنة تقريباً كشف عن عدم صحة مثل هذه الأفكار: كالتفكير والتوسط الكهنوتي والتوسل إلى القديسين.

مهما كانت عظمة الشرائع الموسوية، ومهما كانت طرافة ورقة مبادىء نبي الناصرة (عيسى عليه السلام) يجب أن يعرف أن الشريعة المحمدية التي احتوت على الرسالة السامية تتغلب بتذليلها كل العقبات التي تقف في سبيل السالك إلى الله.

هناك آيات في القرآن الكريم لا تترك شكًّا في معناها، وتطبق على جميع هؤلاء الذين يدخلون في دائرة السيادة الكهنوتية. ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلٰهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾.

إن ديانة المسيح ليست تماماً ديانة سانت بولس الذي أضاف إليها وغيرها تغيراً كبيراً. وليس هناك تنامق في تلك التعاليم، ولكنا نجد في الإسلام ما يكفي.

ليس في الإسلام إلا إله واحد نعبده ونتبعه، إنه أمام الجميع وفوق الجميع. وليس هناك قدوس آخر نشركه معه، إنه لو أصبح كل فرد في الامبراطورية الإنجليزية محمدياً حقيقياً بقلبه وروحه لأصبحت إدارة الأحكام أسهل من ذلك. لأن الناس سيقادون بدين حقيقي، ولن نبقى ضرائب ثقيلة تدفع للمرور في الطريق الموصل إلى الفردوس.

منذ عدة سنين خلت، كان أحد أفكاري الرئيسية، هو كيف يمكن الإسلام أن يصبح غربيًّا حتى تمارسه الأمم الأوروبية، أو كيف يمكننا نحن

معشر الغربيين أن نعد أنفسنا لنكتسب ونفقه معنى الإسلام الحقيقي.

إن القرآن يضيف تعاليم أخرى تؤكد أهمية التعاليم الماضية في الإنجيل، وباقي الكتب المنزلة، وفوق ذلك فهو يحرم كل نكبات العبادة ـ الوثنية(*).

روح الشكر هي خلاصة الدين الإسلامي والابتهال أصل في طلب الإرشاد من الله. وإن كان شكري لله كان متأصلاً فيّ منذ حداثتي، إلا أنني لا أستطيع أن أشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية التي قرع فيها الإسلام لُبيّ حقًّا. وتملك رشدي، وأقنعني نقاؤه، وأصبح حقيقة راسخة في عقلي وفؤادي. إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتها قط من قبل. ونجوت من العقائد الغريبة المتعلقة بسائر فروع الكنيسة.. واستنشقت تلك النجاة، كما أستنشق هواء البحر الخالص النقي.

وبتحقيقي من سلامة وضياء وعظمة الإسلام ومجده أصبحت كرجل قفز من سرداب مظلم إلى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار(**).

دمر التعصب الديني الأعمى الكنائس في تنافسها إلا أن ذلك لا يمكن أن يقال عن الإسلام الذي هو كتلة متحدة. والكنائس يناقض إحداها الأخرى، ومعلمو لاهوتها (كهنتها) وضعوا عقد التعاليم التي لا تحل والقلوب المبصرة تتوق إلى دين مفهوم مقنع وسهل غير معقد. وإني أعترف أن زياراتي للشرق ملأتني احتراماً للدين المحمدي السلس الذي يحصن الإنسان بعين الله حقيقة طوال مدة الحياة لا في أيام الآحاد فقط(***).

هنري دي كاستري

كنت ذات يوم أجوب جوف الصحارى في ولاية حوران بن زرقوم، وسجير. وخلفي ثلاثون فارساً كريماً من أولاد يعقوب يمشون جماعات،

(*) المنار: ج ٧ م ٢٤ (أكتوبر ١٩٢٢).

(**) المنار ديسمبر ١٩١٣.

(***) المنار: ج ٥ م ٢٩.

جماعات لأن حدة الخيل كانت تمنع من انتظامها. وكنت أبلغ الخامسة والعشرين من العمر، والفصل فصل الشتاء، ويومنا يوم جميل تنشط الأبدان حرارته، ويبلغ ضوؤه حد البهاء، وروائحه تنعش السالكين، وتجعل المستنشق شاعراً بتمام الحياة، يخالجني مع ذلك إحساس آخر، هو: شغفي بتلك الممدوحة التي كان اسمها يروح ويغدو في أقوال أولئك الشجعان، وبينما نحن سائرون على هذه الحالة إذ سكت الشاعر والتفت قائلاً بصوت خشن. «سيدي الآن وقت العصر». هنالك ترجلت الفرسان، واصطفوا لصلاة العصر مع الجماعة. أما أنا فقد ابتعدت عنهم، وكنت أود أن انشقت الأرض فابتلعتني، وجعلت أشاهد البرانس العريضة تنثني وتنفرج بحركات المصلين، وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع: «الله أكبر، الله أكبر» فكان هذا الاسم الإلهي يأخذ من ذهني مأخذاً لم يوجده فيه درس الموحدين، ومطالعة كتب المتكلمين، وكنت أشعر بحرج لست أجد لفظاً يعبر عنه سببه الحياء والانفعال. أحس أن أولئك الفرسان الذين كانوا يتدانون أمامي قبل هذه اللحظة يشعرون في صلاتهم بأنهم أرفع مني مقاماً، وأعز نفساً. فما أجمل منظر أولئك القوم في نظامهم لصلاتهم بملابسهم، وجيادهم بجانبهم إرسائها على الأرض، وهي هادئة كأنها خاشعة للصلاة. تلك هي الخيل التي كان يحبها النبي ﷺ حبًّا ذهب به إلى أنه كان يمسح خياشيمها بطرف إزاره، عملاً بوصية جبريل.

وكنت أرى نفسي وحيداً في عرض هذه الصحراء على ما أنابه من اللباس العسكري الضيق في مكان هو مسقط رأس الديانات. كأنني من الحجر أو من الكلاب أمام أولئك القوم الذين يكررون لربهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقاً وإيماناً.

* * *

ولما رجعت إلى مكان راحتي جعلت أكتب ما علق بذهني من

الأفكار. فأحسست أنني منجذب بحلاوة الإسلام، كأنها أول مرة شاهدت في الصحراء قوماً يعبدون خالق الأكوان.

وكنت في سنٍّ يستسهل العقل فيه حل المشكلات، ويأخذ الأشياء من ظواهرها، ويحل الخيال فيه محل النقد والتنقيب، ويعتقد المرء في الأمور بغير قيد، وهو سِنّ لو أنصف أهله لما كتبوا وألفوا، وكنت أرى أن جمال الدين أصدق شاهد على أنه الدين الحق، وصرت أكتب عن الإسلام غير شاعر بما يخطه القلم طوع الفؤاد.

والحق أن الإسلام ما دخل بلداً إلا صار ذا المقام الأول بين الديانات، من غير أن يتعرض لمحوها. وعلى هذا يتحقق أن الإسلام لم ينتشر بالقوة والعنف. بل الأقرب للصواب أن يقال: إن كثرة مسالمة المسلمين، ولين جانبهم كان سبباً في سقوط المملكة العربية. ولقد يعجب المؤرخون من سرعة انتشار الإسلام، حتى بلغ نهر اللوار في فرنسا، ويتساءلون ما الذي كان يصير إليه حال أوروبا. لو لم يقف (كارلوس مارتل) في وجه المسلمين في سهول (بواتيه) ونحن نرى أن هذا السؤال موضوع وضعاً مقلوباً. والأولى أن يقال: ماذا كان يصير إليه حال أوروبا المسيحية لو كان المسلمون متعصبين. لأن انكسارهم في بواتيه ليس سبباً كبيراً يكفي لأن يعوق الإسلام عن الانتشار[1].

ليوبولد فايس

في عام ١٩٢٢ تركت النمسا بلادي لأتجول في إفريقية وآسيا بصفتي مراسلاً لبعض أمهات الصحف الأوروبية. ومنذ ذلك الحين قضيت كل أوقاتي تقريباً في الشرق الإسلامي.

(١) من كتابه: «الإسلام خواطر وسوانح» ترجمة فتحي زغلول.

ولقد كان اهتمامي بالشعوب التي احتككت بها في أول أمري اهتمام رجل غريب. لقد رأيت نظاماً اجتماعياً، ونظرة إلى الحياة تختلف أساسيًّا عما هو الحال في أوروبا.

ومنذ البداءة الأولى نشأ في نفسي ميل إلى إدراك للحياة أكثر هدوءاً ـ أو إذا شئت ـ أكثر إنسانية. إذا قيست بطريقة الحياة الآلية العجلى في أوروبا، ثم قادني هذا الميل إلى النظر في أسباب هذا الاختلاف.

وهكذا أصبحت شديد الاهتمام بتعاليم الإسلام الدينية، إلا أن هذا الميل لم يكن، في الزمن الذي نتكلم فيه، كافياً لجذبي إلى حظيرة الإسلام، ولكنه كان كافياً. لأن يعرض أمامي رأياً جديداً في إمكان تنظيم الحياة الإنسانية مع أقل قدر ممكن من النزاع الداخلي، وأكبر قدر ممكن من الشعور الأخوي الحقيقي.

إن الحياة الإسلامية في الواقع تظهر، على كل حال، في أيامنا الحاضرة، بعيدة جدًّا عن الإمكانيات المثلى التي تقدمها التعاليم الدينية في الإسلام، فإن كل ما كان في الإسلام تقدماً وحيوية أصبح بين المسلمين اليوم تراخياً وركوداً.

لقد تخيلت نفسي واحداً من الذين يضمهم الإسلام. على أن ذلك كان تجربة عقلية بحتة، ولكنه كشف لي في وقت قصير عن الحل الصحيح. لقد تحققت أن ثمة سبباً واحداً فقط للانحلال الاجتماعي والثقافي بين المسلمين، ذلك السبب يرجع إلى أن المسلمين أخذوا شيئاً فشيئاً يتركون اتباع روح التعاليم الإسلامية. لقد ظل الإسلام بعد ذلك موجوداً. ولكن جسداً بلا روح، وكلما ازددت فهمًا لتعاليم الإسلام من ناحيتها الذاتية، ازددت ـ رغبة في التساؤل عما دفع المسلمين إلى هجر تطبيقها. لقد ناقشت هذه ـ المشكلة مع كثير من المسلمين المفكرين في جميع البلاد ما بين طرابلس الغرب إلى هضبة البامير (في الهند) ومن البوسفور

إلى بحر العرب، فأصبح ذلك تقريباً شجني في نفسي طغى في النهاية على سائر أوجه اهتمامي الثقافية بالعالم الإسلامي، ثم زادت رغبتي في ذلك شدة ـ حتى أني وأنا غير المسلم ـ أصبحت أتكلم إلى المسلمين أنفسهم مشفقاً على الإسلام من إهمال المسلمين وتراخيهم، لم يكن هذا التطور بيناً في نفسي، إلى أن كان ذات يوم ـ وذلك في خريف عام **١٩٢٥** ـ وأنا يومذاك في جبال الأفغان. فقد تلقاني حاكم إداري شاب بقوله: «ولكنك مسلم غير أنك لا تعرف ذلك في نفسك». لقد أثرت فيّ هذه الكلمات. غير أني بقيت صامتاً. ولما عدت إلى أوروبا مرة ثانية في عام **١٩٢٦** وجدت أن النتيجة الوحيدة لميلي هذا أن اعتنق الإسلام.

لماذا اعتنقت الإسلام؟.

يجب أن أعترف بأني لا أعرف جواباً شافياً، لم يكن الذي جذبني تعليمًا خاصًّا من التعاليم، بل ذلك البناء المجموع العجيب، والمترامي بما لا نستطيع له تفسيراً من تلك التعاليم الخلقية بالإضافة إلى منهاج الحياة العملية. لا أستطيع اليوم أن أقول: أي النواحي قد استهواني أكثر من غيره. فإن الإسلام على ما يبدو لي بناء تام الصنعة، وكل أجزائه قد صيغت ليتم بعضها بعضاً، ويشد بعضها بعضاً، فليس هناك شيء لا حاجة إليه، وليس هناك نقص في شيء فنتج عن ذلك كل ائتلاف متزن مرصوص. ولعل هذا الشعور من أن جميع ما أتى به الإسلام من تعاليم وفرائض «قد وضعت مواضعها» هو الذي كان له أقوى الأثر في نفسي. لقد هبط عليَّ الإسلام كاللص الذي يهبط المنزل في جوف الليل. ولكنه لا يشبه اللص لأنه هبط عليّ ليبقى إلى الأبد. ومن ذلك الحين سعيت إلى أن أتعلم من الإسلام كل ما أقدر عليه، لقد درست القرآن الكريم، وحديث الرسول. ولقد درست لغة الإسلام، وتاريخ الإسلام، وكثيراً ما كتب عنه، أو كتب في الرد عليه، وقضيت أكثر من خمس سنوات في الحجاز ونَجْد.

وأكثر من ذلك في المدينة ليطمئن قلبي بشيء من البيئة الأصلية للدين الذي قام النبي العربي بالدعوة إليه فيها.

وبما أن الحجاز ملتقى المسلمين من جميع الأقطار. فقد تمكنت من المقارنة بين أكثر وجهات النظر الدينية والاجتماعية التي تسود العالم الإسلامي في أيامنا. هذه الدراسات والمقارنات خلقت فيّ العقيدة الراسخة بأن الإسلام من وجهتيه الروحية والاجتماعية لا يزال بالرغم من جميع العقبات التي خلفها تأخر المسلمين أعظم قوة نهاضة بالهمم عرفها البشر. وهكذا تجمعت رغباتي كلها منذ ذلك الحين حول مسألة بعثه من جديد[1].

نشكنتنابا دهيابا[2]

كنت كثير الاعجاب بمذهب العقليين، ولكني لم ألبث أن تحولت عنه، لأن هذا المذهب لم يرو لي غليلًا، فأخذت في درس الدين البوذي، وأعجبت بمظاهر رفعته الخلقية، وعندما تعلمت الفرنسية أعجبت برينان. وكان من تأثير ذلك أنني أخذت في دراسة لغات الساميين وأديانهم، وكرست قسمًا عظيمًا من حياتي لدرس المقابلة بين الأديان العظيمة أعني اليهودية والزرادشتية والبرهمية من الجهة الواحدة والبوذية والنصرانية والإسلام من الجهة الأخرى. ووقف دون تنصري مسألتان: الفداء، والهلاك الأبدي يضاف إليهما في الكاثوليكية اعتقاد العصمة البابوية.

ولما عدت إلى البلاد الهندية، في هذه الحال من تبلبل الفكر، فرغت نفسي لدرس الرياضة (التصوف). وعدت منها غير مقتنع، ولم أعط البوذية والإسلام حقهما من الدرس، حتى ذلك الحين، فدرست الأولى

(١) من مقدمة كتابه «الإسلام على مفترق الطرق».

(٢) نشكنتنابا دهيابا: القاضي بكلية حيدر أباد، وأستاذ التاريخ في كلية مهراجا في ميسوري.

منها. ثم استمالني الإسلام أخيراً، وأثر في نفسي باقياً. وكنت قد شعرت بصحبته، وبصحبته منذ مدة طويلة، ولكن الظروف الخارجية منعتني من التصريح بذلك حتى ٢٨ أغسطس حين صرحت في محفل بدخولي الإسلام برسالتي. «لماذا انتحلت الإسلام».

وقد بنيت رضائي بالإسلام على ثلاثة أسباب:

أولاً: صحة أخبار الإسلام، وأنه الدين التاريخي الوحيد.

ثانياً: موافقته للعقل.

ثالثاً: أنه عملي لا خيالي.

وعندي أن ميدانه التاريخي قد أثر حتى في أعداء محمد وأتباعه، فضلاً عن جريه على قواعد العقل على أساس قاعدتين: توحيد الله، ورسالة محمد، وأنه يجب على كل صحيح عاقل أن ينقاد لهذه الحقيقة البسيطة الجليلة. وهي توحيد الله الخالص، ولا يوجد في الإسلام ثلاثة في واحد، ولا ثلاثون مليوناً من الآلهة(١).

قسطنطين ملحم(١)

ليس اعتناقي للإسلام مدعاة للاستغراب، ولا موضعاً للظن، والريب، فإنه هو بحسب اعتقادي، ليس إلا تطوراً طبيعياً يؤدي إليه التعمق في درس الأديان المتسلطة اليوم على عقول البشر. اللهم إلا إذا كان عقل الدارس غير مقيد بقيد غليظ يربطه بأحد الأديان ربطاً محكمًا، لا يستطيع الإفلات منه.

إن المذهب البروتستنتي هو أقرب المذاهب المسيحية إلى الدين

---

(١) المنار م ٨ ـ ١٩٠٥ (ص ١٩٤).

(٢) المنار: م ٢٨ ص ٧٠٥ (بتصرف).

المسيحي ـ الحقيقي. غير أنه يعاب في نظري لإقراره بألوهية المسيح، وأنا مع اعتباري السيد المسيح من فضلاء المصلحين، والأنبياء، وفي اعتباري أن النبوة وحي إلهي لا أقر له بالألوهية، ولن أعْبُد قط رجلاً مثلي من دم ولحم.

هذه العقيدة راسخة فيّ منذ بلغت رشدي. وقد جاهرت بها عندئذٍ بين أهلي وأقاربي، وكل من شافهني في هذا الموضوع منذ سنين طويلة، فتطوري إذن ليس حديث العهد، كما يتوهم بعض عارفي، بل هو نتيجة اقتناع راسخ مستحوذ لا عليّ فقط. بل على السواد الأعظم من المسيحيين المتعلمين.

أما ميلي إلى الإسلام، فليس حديث النشأة أيضاً. والذين أطلعوا على كتاباتي في جريدتي (أداليد) ومجلتي (لابـالابرابـورتانيـا) فمنذ خمس سنوات بدأت بالموافقة جهراً على الإسلام بقلمي ولساني، بعد أن كنت أدافع عنه سرًّا بلساني فقط.

غير أن ميلي المذكور لم يصل بي إلى حد التدين نهائياً بالدين الذي آليت على نفسي الدفاع عنه، وما ذلك إلا لأني كنت لم أزل أجهل عنه الشيء الكثير. فعندما عولت على وضع كتابي «شرائع الإسلام» رغبة مني في دحض افتراءات المفترين على الشريعة السمحاء، رأيتني مضطراً لمراجعة مصنفات الأئمة الأعلام، ومطالعة أكثر من واحد من كتب الدين، فاتضح لي عندئذٍ بجلاء جمال هذا الدين السامي، وفضل المصلح العظيم (محمد بن عبد الله) على الإنسانية جمعاء فصممت حينئذٍ على اتخاذ الإسلام دون باقي الأديان ديناً أتدين به عام ١٩٢٤.

بيد أنه لحذري من سوء ظن الذين لا يتصورون أن المرء قد يعشق الجمال لمجرد الجمال، بل لما يتضمن من لذة مادية وحشية. قلت لهم إني

لهذه الأسباب تركت إسلامي على الخفاء إلى أن جاء زمن إعلانه، ولم يبق في وسعي السكوت، فأنا منذ ثلاث سنوات مسلم بكل ما في الإسلام من مبادىء سامية، وأفكار راقية وروح تعاضد وحب خير، وابتعاد عن المنكر.

والذي يزيـدني تمسكاً بـه ما وجـدته فيـه من الحض على العلم والعرفان، ومطابقته روح المدنية الحقيقية. فالإسلام دين علم وعمل، وهو دين إيجابي بعكس غيره الذي هو سلبي، يأمر بإنكار الذات على الابتعاد عن كل ما في الدنيا من رزق ومتاع. أما الدين الإسلامي فيمكننا العمل بأوامره تماماً دون أن يحوجنا ذلك إلى الابتعاد عن العالم، وما فيه من لذة.

إن سنة النشوء والارتقاء، تقضي ببقاء الأصلح. فمن ترك أمراً صالحاً للتمسك بما هو أصلح منه، أو بما يعتقد أنه أصلح منه، كان عاملاً بأوامر تلك السنة الأزلية التي لا مرد لأحكامها.

هاري هينكل[1]

اخترت الديانة المسيحية في بدء حياتي بحكم الوراثة، كما كان يعتقد أهلي وأقاربي، وليس بمحض إرادتي، غير أن عقيدتي في الدين تكونت نتيجة لبحث وتحليل عميق.

قرأت الكتاب المقدس عدة مرات، وأنا أشك كثيراً، إذا كان هناك شخص قرأ الإنجيل، ولم يتأثر لهول الأخبار والأقاصيص المسطرة بين صفحاته.

والحقيقة أن الإنسان بعد قراءته للإنجيل لا يسعه إلا أن يندهش لطبيعة الإله المسيحي، من المفروض على كل مسيحي أن يقتني الكتاب المقدس. ليس ككتاب ديني تجب قراءته. بل كقطعة نفيسة يزين بها بيته.

(١) مجلة الشهاب الجزائرية مجلد ١٩٣١ عن مجلة (اسلاميك ريفيو).

قال شارلس فرانسيز: في كتاب «قصة الدين» إن الإنجيل كتاب لا يعرفه أحد في أمريكا. أما «القرآن» فهو كتاب يعرفه كل مسلم.

لقد كان الإنجيل السبب الرئيسي في خروجي من حظيرة الديانة المسيحية. وبعد خروجي أخذت في قراءة الديانات الأخرى. فكانت النتيجة كفري وإلحادي، ومع هذا فقد تأصلت في نفسي غريزة كانت تدفعني للسؤال جرياً وراء حقيقة واحدة هي: إثبات وجود الخالق لهذا العالم.

ولكن ليس الإله الذي يمجد سفك الدماء، ومن نتيجة هذه الدراسة وجدت في نفسي ميلاً للإسلام، لأنه دين العقل والتسامح، وهو خالٍ من كل شائبة.

وجدت الإسلام يشجع على متابعة الحقيقة. إن صحائف التاريخ مملوءة بالحقائق التي تثبت عرقلة الأديان الأخرى. للمدنيّة والعمران.

وقال يوسف وكاب أحد الموحدين: من الصعب جدًّا وجود علم غير مدين بفضله للإسلام، ولا أتردد لحظة في القول ثانية بأنه لو كان الإسلام منتشراً في الغرب أكثر من انتشاره اليوم لأدهش العالم المتمدن بكثرة أنصاره. ويرجع السبب في عدم انتشاره إلى تشويه الحقائق التي يتعمدها البعض ممن يتصدون لترجمة الكتب الإسلامية إلى اللغات الأخرى[1].

الدكتور خالد شلدريك

إنني اتخذت الإسلام ديناً بعد بحث وتنقيب، لم أتلق هذا الدين في أول الأمر من كتبه، ولكني تلقيته من كتابات الطاعنين عليه، ولدت من أبوين بريطانيين تابعين للكنيسة الإنجيلكانية، كان والدي يتمنى أن يراني

(١) مجلة اسلاميك ريفيو.

قسيساً من رجال هذه الكنيسة، لذلك كان يسره أن أطالع كتب الدين.

إن إنجلترا وإن تكن مسيحية في الظاهر. فإن (٩٠ في المائة) من سكانها لا يعرفون حقيقة الديانة المسيحية، فالديانة المسيحية مؤسسة على اعتقاد أن الله مكون من ثلاث شخصيات. وهي عقيدة لا يستسيغها عقل ويقولون إن المسيح ولد في **٢٥** ديسمبر. وهذا التاريخ ليس له سند معاصر للمسيح، أو قريب منه، وإنما حدده أحد الباباوات من غير اعتماد على أصل تاريخي. فالعلم بقواعده التي نعرفها لا يستطيع أن يثبت أن يوم **٢٥** ديسمبر هو يوم ميلاد المسيح.

وعقيدة الأب والابن نفسها من عقائد الوثنيين القدماء. فإن البوذيين يصورون بوذا في طفولته مع أمه (بأما) نفس الصورة التي نراها منقوشة في كل كنيسة. . للمسيح في طفولته مع أمه مريم اتخذ المسيحيون من الوثنيين للاعتدال الربيعي (**٢٥**) ديسمبر موعداً لولادة الشمس عيداً لميلاد المسيح.

وفي الحقيقة أن الشخصية التي يدعيها المسيحيون للمسيح ليست تاريخية قطعاً، والباحث عن ذلك بالأساليب العلمية ليرى مبلغ ذلك من الواقع يخرج من بحثه صفر اليدين.

والاختلاف بين المسيحيين شديد جدًّا في أصول المسيحية، وفي تكوين العقيدة عن المسيح، وقد حملني هذا على البحث والتأمل، ودرس الديانات الأخرى.

درست البوذية والبرهمية، وسائر الأديان. وفي دور الكتب العامة بانجلترا بحوث عن كل دين ما عدا الإسلام. فإن الكتب التي ألفت عنه مملوءة بالتحامل والمطاعن. والفرض الظاهر.

وزعموا أن الإسلام ليس ديناً مستقلاًّ. ولكنه أقوال محرفة عن كتب المسيحيين. وقد تساءلت في نفسي إذا كان الإسلام لا أهمية له إلى هذا

الحد، فلماذا هم يبذلون كل هذه الجهود للتحامل عليه، ومقاومته وتوجيه المطاعن إليه.

ولقد مضى على دخولي الإسلام خمسة وثلاثون عاماً. وأنا الآن أشد تمسكاً به، وعلمًا بمحاسنه عما كنت في ذلك الحين.

وليس عندي ريب في أن الإسلام سيكون يوماً ما الدين الذي يسود العالم أجمع، وهذا يتوقف على سبب جوهري. هو: أن يكون المسلمون مثالاً حسناً يعلن عن الإسلام، ويعرّف الأمم به عملياً.

ولما شرعت أدرس عقائد الإسلام بعد أن انتهيت من الوقوف على الحقائق السالفة الذكر، وجدت جميع عقائده مقبولة عقلاً. فعقيدة التوحيد الخالص التي امتاز بها الإسلام هي أصح العقائد التي عرفها البشر، وهي كاملة في توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وإعلان صفات الكمال لبارىء الكون، والاعتراف بجميع أنبياء الله ورسله، ويزعمون في أوروبا أن الإسلام انتشر بالسيف وهي فرية، يعلمون هم بأنفسهم أنها كاذبة وغير معقولة، لأنها تخالف وقائع التاريخ، كما تخالف حقائق الإسلام. ولو انتشر الإسلام بالسيف كما زعموا لما بقيت هذه الكنائس والبطريكيات، والأوضاع غير الإسلامية المنتشرة في العالم الإسلامي، والمتسلسلة من أقوى أزمانه إلى الآن.

وتسليط السيف على العقائد هو من شأنهم بدليل ما فعلوه في الأندلس مما دونته بطون التاريخ، ووقفوا به أنفسهم أبد الآبدين. وعلى كل حال فإذا كان هناك دين انتشر بالسيف، فليس هو الإسلام. بل غيره. إني كلما ازددت علماً بالإسلام ازددت إجلالاً له، وتمسكاً به، ولا ادّعي أنني درست الديانات كلها، ولكني بلا شك وقفت منها على ما فيه مقنع لمثلي.

وصية الله معشر المسلمين أن لا نعتدي، أما أهل السوء ممن لا ينفكون يهاجموننا بالأباطيل ويحاربوننا بالمفتريات. فليس علينا جناح إذا ما أورينا لهم من نوع سلاحهم، ودفعنا عن بيضة الإسلام بهتانهم. وإذا نحن شئنا أن نحصي أكاذيبهم علينا كانت منها صفحة هي من أسود الصفحات خزياً في سجل التعصب. بل وجدناها مجموعة كبيرة تلك المثالب التي قام بها أعداء الإسلام، سواء كانوا من علمائهم أو روادهم أو قساوستهم أو رجال حكوماتهم أو كتابهم أمثال: بيرون، وبلجراف، وجلادستون، ومرجليوت، وقسيس كانتربري، والأب ولوي براتران. ومن كبائر المطاعن التي يوجهها علماء النصرانية للإسلام نكرانهم عليه الابتكار والإتيان بالجديد، والإبداع بما هو خاص به. على أننا لا يدهشنا أن نسمعها من المتعنتين، وإنما يدهشنا أن يصدقها النفر الذين يحسنون الظن بديننا. أنهم ينظرون إلى سان لوي (القديس لويس) كأنه النموذج الأعلى للثمرة المسيحية الناضجة، غير أن الوثائق التاريخية تثبت بوضوح وسهولة أن خصمه صلاح الدين الأيوبي كان أرفع منه قدراً في الحضارة وفي الشجاعة وفي معاملة الخصوم، وهم يفخرون بالعالم باستور الفرنسي، ويجعلونه درة في تاج الحضارة الحديثة، ولكن فاتهم أن (جابراً) و(الرازي) لا يقلان عنه في مرتبة العلماء والمفكرين، وهما المؤسسان الحقيقيان لعلم الكيمياء بفضل ما كشفاه عن طريق التقطير، ومن حمض النتريك وحمض الكبريتيك.

والمسيحية وإن ظهر أنها تحكم العالم في وقتنا الحاضر، فليس ذلك مرجعه إلى تعاليمها دون غيرها، بل إن مرجع ذلك إلى ما تستفيده من القوة المادية التي أوجدتها المستكشفات التي قام بها العلماء الغربيون. بل أن منهم من حاربتهم المسيحية واضطهدتهم. خذ مثلاً (جاليلو) الفلكي

الإيطالي، واتين دوليه الكاتب الفرنسي وغيرهما ممن ذهبوا ضحية التعصب الذميم.

إن الشخصية التي حملها محمد بين برديه كانت خارقة للعادة، وكانت ذات أثر عظيم جدًّا حتى أنها طبَعت شريعته بطابع قوي جعل لها روح الإبداع، وأعطاها صفة الشيء الجديد.

إن للإسلام عقيدة التوحيد الإلهية العليا، وله تلك المبادىء السامية التي تقوم على تلك العقيدة. والإسلام هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ من الإله شكلاً بشرياً. أو ما إلى ذلك من الأشكال. أما في المسيحية، فإن لفظ الله تحيطه تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن في السنّ قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال. وكذلك ياهو (Jehorah) الذين يمثلون به طهارة التوحيد اليهودي، فهم يجعلونه في مثل هذه المظاهر المتهالكة، وكذلك نراه في متحف الفاتيكان. وفي نسخ الأناجيل المصورة القديمة.

أما (الله) في دين الإسلام الذي حدث عنه القرآن، فلم يجرؤ مصور أو نحات أن يجري به ريشته. أو ينحته أزميل ذلك بأن (الله) لم يخلق الخلق على صورته، وتعالى الله سبحانه، فلم تكن له صورة ولا حدود محصورة، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد. الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وللإسلام على النفوس طابع لا يمحى حتى أن الكونت دي كاستري ـ وهو مسيحي متعصب ـ أيقن بهذه الحقيقة. وقال تلك الكلمة الكبيرة في كتابه الإسلام. صفحة ٢٨ (إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي ليس فيه مرتدون).

أما أن الله سبحانه وتعالى قد «أوحى» الإنجيل إلى عيسى بلغته ولغة

قومه. فالذي لا شك فيه أن هذا الإنجيل قد ضاع واندثر، ولم يعد له أثر، أو أنه قد أبيد.

ولهذا قد جعلوا مكانه (توليفات) أربع مشكوك في صحتها وفي نسبتها التاريخية. كما أنها مكتوبة باللغة اليونانية وهي لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية هي لغة سامية. لذلك كانت صلة السماء بهذه الأناجيل اليونانية أضعف بكثير من صلتها بتوراة اليهود وقرآن العرب.

ثم الأناجيل ألم يدخل عليها التنقيح والتهذيب في كثير من المواضع التي لم تعرف بعد، ولم أغفل رجال الأناجيل ثلاثين عاماً من حياة المسيح دون أن يذكروا لنا عنه فيها شيئاً إلا ما اختص منها بالسنين الثلاث الأخيرة. وأمر آخر فات رجال الأناجيل ذلك أنه مع عظيم خطر هذه الثلمة في سني حياة المسيح. فإن الأناجيل لم ينلها التنقيح الواجب الدال على المهارة والذكاء. ذلك لأن واضعيها، وهم قليلو الخبرة بعلم النفس لم يدركوا أن ما يصح ذكره على لسان (نبي) لا يصح أن يقال على لسان (ابن الله).

سلطانة جاهان مهوبال

خطابها إلى دي سبلنكورث (ناظرة مدرسة البنات العليا بالله أباد)[1] أن جميع الاعتبارات الشخصية التي أشارت إليها الآنسة ريتشارد سون فيما يختص بمركز المرأة في الإسلام لم تكن قائمة على معرفة الدين الإسلامي وعالمه. المعرفة الحقة، فقد بدا لها أن الإسلام ينشىء ويحفظ بطبيعته للمرأة المسلمة انحطاطاً نسبيًّا أكثر مما ورد في أي عالم ديني آخر.

---

(١) ترجمة عبد العزيز جاويش: جريدة الأخبار ٣ أكتوبر ١٩٢٣ (عن المجلة الإسلامية عدد يناير سنة ١٩٢٣).

وأنها لا تعجب حينذاك إذا رأت بين المسلمات الكثيرات من الغاشات، وربات المكر والخيانة. غير أني أعتقد في هذا الحكم على كثير من المسلمات إجحافاً بحقوقهن، وباعتباري مسلمة، ولي إلمام بأركان ديني وعقيدتي أعرف أن الإسلام لم يصدر لائحة ولا قانوناً ولا عقداً يقضي بأن يكون مركز الجنس اللطيف منحطاً على أي وجه من الوجوه. بل على نقيض ذلك. فقد منح الإسلام للمرأة مركزاً عادلاً حسناً. يمكن أن تحصل عليه بمحض إرادتها في أي وقت شاءت. فضلاً عن أنه لم ينتشل المرأة من أعماق هاوية الانحطاط التي كانت غارقة فيها في الجاهلية فحسب، بل منحها مركزاً شرعيًا محدداً، لا يمكن لأي دين آخر أن يوجد نظيراً له، فقد منع النبي ﷺ الجور الذي كانت تلقاه النساء قبل بعثه، كما أمر أتباعه من المؤمنين باحترام الجنس اللطيف. ولقد فرضت تعاليم النبي ﷺ: المساواة بين الجنسين، وإني أقول دون أن أخشى في ذلك لوم المعارضين أن الإسلام قد وضع أقوم الطرق لتثقيف المرأة عقليًا وعلميًا، وأمر بإكبار المرأة الفائق واحترامها الزائد، وحبذا لو تعلم الغربيات اللغة العربية، وأمكنهن دراسة القرآن الدرس الكافي الذي يكفل إزاحة كثير من سوء التفاهم، وأن من يتبع ما سطرته يد الكتاب المسلمين والأوروبيين غير المتحيزين في هذا الموضوع يستنتج أن الإسلام قد هيأ للمرأة من الحقوق المشروعة ما لم يهيئه لها أي دين آخر. والواقع أن جميع ما وجه ضد ديانتنا من التهم المتداولة لم ينجم إلا عن الجهل المطلق بأصول تعاليم الرسول الكريم. فإن تاريخ الإسلام مفعم بحوادث يخطئها العد، تنطق بما وصلت إليه المسلمة من التهذيب، والرقي الذي كان من عوامل تأثير الدين، وليس ناتجاً عن أي تشجيع أو وازع آخر. كان من بينهن المتضلعات في القوانين وأصولها والتوحيد والفقه والفنون الجميلة، وقد تركن من ورائهن سجلات ضمت بين دفتيها من نبيل أعمالهن وبطولتهن ما لم نجده في تاريخ أي عالم آخر. كيف لا وقد ارتقين منصات الخطابة، وَفُهْنَ بالخطب

البليغة المؤثرة، وألقين المحاضرات، وطالما لعبن أدواراً مهمة في سياسة بلادهن، وبدون أن نلجأ إلى ما ورد في تصريح المقرظين والأتباع. فقد كنّ ببعض كليمات من نصائحهن النفيسة الخالصة، يدرن عنان الإدارة أو يقدن الرأي العام إلى ما فيه خير البلاد. كنّ في ساحة القتال يمرضن العليل والجريح، ويحرضن الجند بطرق مشجعة على حماية بيضة أمتهن، وحفظ كيانها، ولا أخالك تعلمين أنهن كن يحاربن مع الرجال بشجاعة نادرة في كثير من الوقائع الحربية.

هذه هي حقيقة الصفات التي اكتسبتها النساء بعد ظهور نبينا بزمن يسير، نبينا الذي لا تعرفه أخوتنا الغربيات تماماً.

نشكرك لمراسلاتك لنا. ولكنا نرجوك في الوقت الذي تجهلين فيه أركان الإسلام أن لا تصفي الأدواءِ لمعالجة حالة التدهور والعطب الراهنة قبل أن تدرسي آداب ديننا.

هذا وليس في مقدوري أن أعمل أفضل مما لو رجوت من إخواتي الغربيات أن يدرسن «القرآن» الذي هو عماد ديننا. بل سلسلته الفقرية، وأن يدرسن ما جاء به مشهورو كتاب الإسلام.

وبقدر ما تسمح به معلوماتي في شأن الفروسية وفنونها. فإن الغرب قد نقلها عن الشرقيين، وليس أدل على مساوىء نكد الطالع، وتعريضه بنا من أن الغربيات لا يزلن ينظرن إلى إخواتهن الشرقيات بعين السخرية.

أما المدارس التي قمت بتأسيسها في مهوبال. فتقوم بعملها خير قيام. وثقي أنني أول من يهتم في الهند بأمر رقيّ التعليم[1].

---

(١) سلطانة ماهوبال: اسمها ثواب سلطان جهان بيكم. وهي زوجة العالم الشهير ثواب صديق حسن خان صاحب المؤلفات والأبحاث الكثيرة. توفيت ١٩٣٠ ـ وكانت قد تركت الحكم لابنها (ثواب حميد الله خان) عام ١٩٢٣. وقد تولت الملك سنة ١٩٠٠ وزارت أوروبا ومصر سنة ١٩١١.

الدكتور بنوا

إنني طبيب مهنة، وسليل عائلة فرنسية تنتسب إلى الكاثوليكية. هذا وقد سبقت لي بسبب مهنتي ثقافة علمية متينة، لم يكن من جوهرها أن توجهني إلى الحياة الدينية. والسبب في ذلك يرجع لعدم إيماني بوجود الله. إذ لم أكن كافراً. وإنما لعقائد المسيحية، والمذاهب الكاثوليكية. غير المقبولة عندي، والتي لم تثبت لي وجود الله.

ومن ثم كان شعوري بوحدانية الله يمنع عليّ قبول مبدأ «ثالث ثلاثة» كما أنه كان بطريق التبعية يحول بيني وبين الإقرار بألوهية المسيح، وبهذا كنت على اتفاق من حيث لا أشعر مع ما تضمنه الشطر الأول من شهادتنا ﴿ لا إله إلا الله ﴾ ومع روح سورة الإخلاص: ﴿ قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد ﴾.

وعليه تبين أن اعتناقي الإسلام كان راجعاً في أول أمره إلى أسباب روحية بحتة، إلا أن أسباباً أخرى حملتني على دخول هذا الدين، ومن بينها عدم الرضى بالرهبانية التي يجترىء أصحابها على نيل سلطة يعتقدون من ورائها أنه يمكنهم محو السيئات البشرية، كما لم تكن ترضيني طريقة «التعميد». كما أن هناك أمراً آخر أبعدني عن المسيحية ألا وهو التغافل التام عن النظافة البدنية قبل الصلاة. والآن أصل إلى الأمر الرئيسي والحاسم الذي أيد لي عظمة الإسلام. فدفعني إلى اعتناقه ألا وهو «القرآن» لقد كنت تصفحته قبل إسلامي بروح النقد الموجودة عند كل مثقف عربي. وكان قد ساعدني على إدراك معناه كتاب «مالك ابن نبي» القيم «المظاهر القرآنية» الذي زادني يقيناً بنزول قرآننا، ويتضمن الكتاب صفحات من بينها تلك التي تتناول موضوع المناسبات. حيث يبين المؤلف أن نصوص بعض آي الكتاب الموحى به على نبينا منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً تتناسب وأحدث مبادىء العلوم العصرية، وكان من جراء هذه

الملاحظات أن آمنت نهائياً. فأصبحت بهذا على وفق الشطر الثاني من شهادتي «محمد رسول الله».

ومن أجل هذا كان حدث في العشرين من فيفري (فبراير) ١٩٥٣ بجامع باريس دخولي الإسلام بصفة رسمية بمحضر وباسم «علي سليمان»[1]

شهادات الإسلام

(١) اتيان دينيه (ناصر الدين دينيه): أشعة خاصة بنور الإسلام: ترجمة راشد رستم. (المطبعة السلفية - ١٩٢٩) مصر.
رأي المغرب في المشرق (طبع ١٩٢١).

(٢) هنري دي كاستري: الإسلام: ألفه ١٨٩٦. ترجمة فتحي زغلول ١٨٩٨ القاهرة.

(٣) جورج سارتون: الشرق الأوسط في مؤلفات الأمريكيين. ترجمة عمر فروخ.

(٤) جوستاف لوبون: حضارة العرب: ألفه ١٨٨٤ - ترجمة عادل زعيتر ١٩٤٥ - مطبعة الحلبي - القاهرة.

(٥) هرهر جورنج: الإسلام.

(٦) كمال ولف سخوماكو (جاوه): بحوث في الثقافة الإسلامية.

(٧) هورتن الألماني: استعداد الإسلام لقبول الثقافة الروحية.

(٨) أرنولد توينبي: الإسلام والغرب.

(٩) رينان: تعليقاتي على تواريخ الأديان.

(١٠) توماس كارليل: الأبطال وعبادة الأبطال (ترجمة محمد السباعي).

(١١) أوغست كونت: من كتاب بين الديانات والحضارات (طه المدور - (بيروت ١٩٥٦).

---

(١) جريدة البصائر العدد ٢٦٤ - ٢٦ مارس ١٩٥٤ نقلاً عن جريدة المسلم الجزائرية.

(١٢) وامبري :

(١٣) اللورد هدلي: المنار ـ ١ ـ م ١٧ ـ ص ٣٦.

(١٤) شهادات الإسلام من غير المسلمين: الرسالة م ١٤ (١٩٤٦) ص ١٣٨٣.

(١٥) غاندي: مجلة ذي لايت (لاهور) ترجمة المنار. م ٣٢ ـ ج ٢.

(١٦) ديفونويب: اعتذار إلى محمد والإسلام (المنار م ١٣ جـ ٩ ـ ص ٧١٥.

(١٧) كلود فارير: يوم تراجعت المدنية ثمانية قرون.

(١٨) مونته (كلين حنيف): حاضر الإسلام ومستقبله. مجلة المقتبس: م ٦ ص ٣١٧.

(١٩) إسحاق طيار (القس): الإسلام والمسلمون (مجلة سنت جيمس غازيت) ١٨ ـ ١٤ ـ ١٩٨٨.

(٢٠) دوزي (المستشرق الهندي): ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام ترجمة كامل كيلاني ـ ١٩٣٤.

(٢١) واصف بطرس غالي: فروسية العرب المتوارثة (جريدة الأخبار ٢٠ مارس ١٩٢٣).

(٢٢) تربتون ـ أستاذ اللغات الشرقية بجامعة لندن: الإسلام ومعتقداته وطقوسه. صدر ١٩٥١ (تعليق الدكتور الأهواني مجلة الثقافة ـ ١٥ ـ ١٠ ـ ٥١).

(٢٣) لويس ماسنيون: الإسلام والغرب (ترجمة مجلة لسان الدين).

(٢٤) هنري ببرين: محمد وشرعان.

(٢٥) كريستنان (سنوك) هيروجرونجيه الهولندي): الإسلام: عن البلاغ الاسبوعي ٢٠ ـ ١١ ـ ١٩٢٩.

(٢٦) جورج برناردشو: الإسلام بعد المائة عام (مقال).

(٢٧) لوثرب استودارد: حاضر العالم الإسلامي (ترجمة عجاج نويهض ـ وتعليق شكيب أرسلان).
(٢٨) توينبي: الحضارة في فترة اختباره. ترجمة عبد الجواد المطلبي (مجلة الكتاب) العراقية حزيران ١٩٦٢.
(٢٩) رينيه ميليه: محاضرة في مؤتمر أفريقيا الشمالية (باريس) ١٩٠٨ ـ ترجمة (المنار) م ١١ ص ٨١٨.
(٣٠) ول دورانت: الإسلام والمسلمون «المقتطف ـ نوفمبر ١٩٣١».
(٣١) سير ريتشارد وود: الكتاب الأزرق ١٨٧٨ (نشره محب الدين الخطيب ١٩١٢ بالمؤيد).
(٣٢) وليفجانج لانجرميش: اخترت الدفاع عن الإسلام (مجلة المختار فبراير ١٩٥٦).
(٣٣) هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية ـ مختصر تاريخ العالم.
(٣٤) ماسينون: (وجهة الإسلام). ترجمة عبد الهادي أبو ريدة ١٩٣١ ـ مصر.
(٣٥) جب:
(٣٦) ولفريد كابتول سميث: الإسلام في التاريخ الحديث.
(٣٧) ليون روش: ثلاثون عاماً في الإسلام. ترجمة المنار م ـ٧ـ ١٩٠٤ ـ ص ٥٢٠.
(٣٨) مستر ر. ح. كويت: الإسلام والدولة البريطانية (جـ ٥) من كتابه عن الدولة البريطانية ومستعمراتها. مجلة المجلات ـ أكتوبر ١٩٠٣.
(٣٩) أوجين يونج: يقظة الإسلام والعرب ١٩٣٣.
(٤٠) فيليب دي طرازاي: القرآن (مجلة المجمع العلمي العربي) مجلد ١٩ ـ ص ـ ٤٨٩.
(٤١) روبرت. ل. بيكر: الإسلام في سبيل الوحدة (مجلة كارانت هستوري السياسة القومية (٩ أغسطس ١٩٣٣).

(٤٢) شاتليه: الإسلام وعوامل الاعتقاد. جريدة المؤيد العددين ٦١٨٨ - ٦١٩٦.

(٤٣) ادوار مونته أستاذ اللغات الشرقية - جامعة جنيف: الإسلام (باريس) ١٩٢٣ - مكتبة بابو ترجمة القرآن (١٩٢٩).

(٤٤) الدكتور بول دي ركلا: الدين الإسلامي في مرآة الغرب. (مجلة العرفان ٢٢ (١٩٣١) ص ١٦٦.

(٤٥) جيبون: اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ١٧٨٨.

(٤٦) أميل درمنجم: حياة محمد.

(٤٧) عمر فاخوري: آراء غربية في مسائل شرقية.

(٤٨) البارون كارادي فو: أصحاب الفكر في الإسلام (باريس) بالفرنسية.

(٤٩) سنديو: خلاصة تاريخ العرب (ترجمة علي باشا مبارك).

(٥٠) الدكتورة لورا فنيشيا فاليري الإيطالية: محاسن الإسلام. ترجمة طه فوزي ١٩٣٠ (يافا) أعيدت ترجمته باسم (دفاع عن الإسلام) منير البعلبكي بيروت ١٩٦٠.

(٥١) ليوبولد فابس: الإسلام على مفترق الطرق. ترجمة عمر فروخ (١٩٤٦ بيروت).

(٥٢) اللورد هدلي: إيقاظ الغرب للإسلام. (القاهرة) ١٩٢٢.

(٥٣) الدكتور بنوا «علي سليمان»: جريدة البصائر ٢٦ مارس ١٩٥٤- نقلاً عن جريدة المسلم الجزائرية.



(٦) غزوة جديدة للفكر الانساني



(١)

في يقيني أن «الإسلام» في غزوة جديدة للفكر «الإنساني» ولا أقول الغربي. هذه هي الغزوة الثانية. أما الغزوة الأولى فهي تلك التي جاءت أثر القرون الوسطى المظلمة لأوروبا، والتي كانت أساساً لعصر النهضة في أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي.

تلك الغزوة الأولى كانت أساس الحضارة الحاضرة، فقد تلقى المسلمون دينهم الذي هو في الواقع دين ومجتمع وحضارة، والذي استطاع بامتزاجه بعصارات الفكر الإنساني المتمثل في ثقافات اليونان وفارس أن يقيم تلك الحضارة الضخمة التي عاشت ألف عام، وما تزال قيمها في مجال الفكر والثقافة والأدب واللغة والتشريع والتاريخ قائمة حية متفاعلة لم تمت، ولم تضعف ولم تتخلف. وقد مرت بالغرب فترة عصيبة تنكر فيها لفضل الثقافة الإسلامية، والإسلام ذاته، وأعلن تجاهله الكامل لها، وسجل بأن الحضارة الغربية الحديثة هي ثمرة الحضارة الرومانية القديمة، وبينهما ألف عام، وأنه ليس بين أرسطو وديكارت غير معبر الزمان.

وقد عنى كثير من الباحثين بأن يكشفوا عن حقيقة الدور التاريخي للثقافة والحضارة الإسلاميتين، وأثرهما في حضارة الغرب القائمة الآن.

وهذا ليس مجال البحث اليوم. فقد مرت السنون الطويلة منذ بدأ

الغرب حملته الضخمة على الإسلام عن طريق ترجمة القرآن وتحريفه، وتصوير النبي محمد ﷺ بصورة مزيفة، ومهاجمة أصول الإسلام ومقاصده في عشرات المواضع، وإعطاء صورة مظلمة مضيبة له. وقد شنت هذه الحملة تحت تأثير عاملين:

١ ـ سيطرة الكنيسة ومحاولتها إقصاء الإسلام عن طريقها.

٢ ـ سيطرة النفوذ الأجنبي الذي كان يرى في الإسلام قوة معترضة أمام أطماعه وتوسعه. من هنا جاءت (الحملة على الإسلام) على عنفها مضطربة مهلهلة. غير قائمة على منهج البحث العلمي الصحيح، وإنما أبرز معالمها تلك العبارات القاسية الطائشة. وتلك الاتهامات التي تبدو منها روح التعصب والحقد.

ولقد كان أصحاب هذه الحملة يهدفون إلى أمرين:

الأول: إغراق الفكر الغربي بدراسات ومراجع عن الإسلام تحول بينه وبين الدراسات الأصلية والأساسية النابعة من كتابة المسلمين أو المنصفين على الأقل.

الثاني: تشويه الإسلام في نظر أصحابه ومعتنقيه، وإثارة الشكوك والشبهات في نفوسهم لصرفهم عنه. وتحطيم قيمه في أنفسهم مما يعين الاستعمار على خلق طائفة من المثقفين المؤمنين بالقيم الغربية التي تعاطف النفوذ الأجنبي وتقبله.

* * *

غير أن هذه الحملة المضببة لم تحل بين الإسلام وبين النفاذ إلى القلوب. والعقول، فلم تلبث مقاصده إلى أن بلغت إلى عشرات من طلاب الحق، وأثرت فيهم فانبعثت بضوء جديد تطور من بعد إلى «تيار» قوي يحمل الحقيقة إلى ما سوى العالم الإسلامي شرقاً وغرباً.

ولا نعتقد أن هذا «التيار» الذي عنينا برسم صورة له في هذه

الدراسة يمكن أن يدفع الاتهام عن الغرب المتعصب إزاء الإسلام، أو يعطي وثيقة يمكن أن يعتبرها بعض أنصار الفكر الغربي إنصافاً له. ذلك بأن حملة التحدي والتعصب ما تزال مستمرة في تيارها القوي. أما هذا التيار الجديد فإننا نعدّه تياراً في الفكر الإنساني العالمي استطاع أن يشق طريقه بالرغم من كل القوى التي قاومته، أو وقفت في طريقه، وتسجل النصوص كيف أن كل هؤلاء الذين واجهوا الإسلام بعقل مفتوح. وقلب سليم قد لقوا من قومهم مزيداً من الاضطهاد وأن بعضهم جرّد من أملاكه (الدكتور خالد شلدريك) أو حمل عليه حملات عنيفة كالكاتبة الإيطالية: «لورا فنيشيا فاليري».

أو يضطر أن يمضي خمسين سنة قبل أن يعلن إسلامه خوفاً من اضطراب حياته العملية. كاللورد «هدلي». وأنا واثق من أن هذا التيار سيزداد قوة بمرور الأيام، ويعمق، ويصل إلى أبعد مدى. ولا شك في صدق ما ذهب إليه الذين انتقلوا إلى عقيدة الإسلام من أن هناك عشرات قد آمنوا بالإسلام. ولم يتح لهم أن يجهروا به. وأن من يستمع إلى حديث لأحد الدعاة العاملين في هذا الميدان كالمهندس: محمد توفيق أحمد - صاحب مجلة «بريد الإسلام» والذي يحمل لواء التبشير الإسلامي بالبريد منذ ثلاثين عاماً. ليدهش كيف أن كتاباً بسيطاً صغير الحجم في أربعين صحيفة يستطيع أن يكسب عقلاً جديداً. كلما بلغ إنساناً. متعطشاً إلى فهم الإسلام. وأن هذا العمل قد حقق لمئات من المثقفين في أوروبا وأمريكا. الاقتناع العميق بجوهر هذا الدين. وهكذا يعمق هذا التيار. ويتسع نطاقه.

فإذا عدنا إلى الصورة الأولى وجدنا أن الفكر الغربي قد كان حريصاً على أن يضع حجاباً كثيفاً على العقل الإنساني بحملته على الإسلام. هذه الحملة التي يصورها (م. ر. كويت) في كتابه الإسلام والدولة

البريطانية[1] حين يقول: «إن الكثيرين منا شبوا على كراهية الإسلام» وارتضعوا ذلك مع لبان أمهاتهم. هذا فضلاً عن أن ما لدينا من المعلومات عن الإسلام يزيد في بعدنا عن معرفة حقيقته خصوصاً لعدم إمكاننا الوقوف على أصوله من اللغة العربية.

ومن عجب أنه لم تكد تمر فترة لا تزيد عن ستين عاماً حتى وجد الإسلام مجالاً واضحاً في الفكر الإنساني. استطاع به أن يواجه حملة الفكر الغربي عليه.

فاليوم تزخر مكتبات أوروبا وأمريكا والشرق بعشرات من الكتب كتبها مثقفون من غير أهل العالم الإسلامي يصورون فيها مشاعرهم إزاء الإسلام، ويكشفون فيها عن مفاهيم له، ولا بدّ أن تحمل هذه الكتب بعض الأخطاء أو الاضطرابات ولكنها في جوهرها صادقة. فقد قرأ هؤلاء ما كتبه الغربيون ومنه ـ في الأغلب ـ نفذوا إلى الحقيقة. والدكتور خالد شلدريك البريطاني المسلم يعترف بأنه لم يتلق هذا الدين أول الأمر من كتبه، وإنما تلقاه من كتابات الطاعنين. وأن البحث والتأمل دفعه إلى دراسة البوذية والبرهمية، وسائر الأديان. ووجد في مكاتب بريطانيا كتباً منصفة عن كل الأديان ما عدا الإسلام. فقد وجد كتبه مملوءة بالتحامل والمطاعن. وهي تقول أنه دين لا أهمية له. وقال الدكتور شلدريك لنفسه: إذا كان الإسلام لا أهمية له إلى هذا الحد. فلماذا يبذلون كل هذه الجهود للتحامل عليه، ومقاومته، وتوجيه المطاعن إليه. يقول خالد شلدريك: ـ «وقد وقر في نفسي أنه لولا أن الإسلام دين يخشاه الناس، ويحسبون له حساباً كبيراً لما فيه من القوة والحيوية، لما بذلوا كل هذه الجهود لمقاومته. والطعن فيه، وتشويه سمعته».

---

(1) مجلة الفتح: ـ ١٣ صفر ١٣٥٧ ـ م ١٢.

وهكذا استطاع الإسلام عن طريق الكتب المشوهة عنه أن يشق طريقه، وأن يبدأ غزوة جديدة للفكر الإنساني لا شك سيكون لها مدى كبير، وأثر لا حدّ له. هذا الأثر الذي يكشف عنه كل الذين عرفوا الإسلام وآمنوا به.

(٢)

إن الذين كوّنوا هذا التيار الجديد الذي يعد غزوة جديدة من الإسلام للفكر الإنساني يمثلون ثلاث جبهات.

* معجبون هزمهم الإسلام بحقائقه الدامغة. فقالوا فيه كلمة الحق. وهم أمثال توماس بكارليل. وجوستاف لوبون. وجورج سارتون، وهورتن الألماني، وهرجودنج، ودبورانت، ولفرن كابتول سميث، وإميل درمنجم، والبارون كارادي فو، والدكتور بول دي ركلا، وسيديو.

وهؤلاء بين مؤرخين وصحفيين وكتاب قد وصلت إليهم الحقيقة فأعلنوها معترفين بفضل الإسلام وأثره في الحضارة الحديثة، وقيمه الحية النابضة، ومدى ما يمكن أن تقدمه للإنسانية.

* قادة وكتاب وسياسيون قالوا الحقيقة لقومهم لتضع حكوماتهم ومؤسساتهم الخطط التي تمكنها من رسم طريق صحيح مع العالم الإسلامي. ومن هؤلاء: هنري دي كاستري، والقس إسحاق طيلر، ولويس ماسينون، وجب، ورينيه ميليه، وكريستان سنوك هيروجرونجيه، وسير ريتشارد وود، وشاتليه، وأوجين يونج.

* مؤمنون بهرهم الإسلام حقيقة فآمنوا به أمثال: اللورد هدلي، واتيان دينيه، وليون روس، والدكتورة لورا فنيشيا فاليري، وليوبولد فابس، وعبد الله كوليام، ونشكيتابا رهبابا، وهاري هينكل، وخالد شلدريك، وهناك مجموعة أخرى من كبار المفكرين استطاعوا أن يصححوا آراءهم

في الإسلام بعد مراجعة لأفكاره أمثال: رينان وأوغست كونت. ومن عجب أن ترى ديفو تويب يؤلف كتاباً يطلق عليه اسم «اعتذار إلى محمد والإسلام» أو تسمع قصة ليون روش الذي عمل كاتماً لأسرار الأمير عبد القادر الجزائري. وجاسوساً عليه لفرنسا. واستطاع الأمير بعد ثلاثين عاماً أن يجذبه إليه.

وأمامي أكثر من ثلاثين مرجعاً، وأكثر من مائتي فكرة عن كتاب غربيين وشرقيين اعترفوا للإسلام بالفضل. ومن بين هؤلاء الكتاب أبرز كتاب الإنسانية أمثال: كارليل، وتوينبي، وبرنارد شو، وولز وجب، ودرمنجم، وسيديو في وثائق ثابتة، يكشفون فيها عن رأيهم الذي كتبوه دون أي ضغط أو إكراه. فماذا يعني هذا.

ما الذي دفع هؤلاء إلى أن يقولوا كلمة الحق في الإسلام؟.

إذا كنا نتهم بعض الكتاب الذين حملوا على الإسلام أنهم كانوا متصلين بالكنيسة أو بوزارات المستعمرات في دولهم، فماذا نقول في هؤلاء. وليس للإسلام نفوذ في أوروبا يستطيع أن يغري كتاباً لهم مثل هذا النفوذ الفكري بأن يقولوا كلمة الحق. إذن فليس سبيل إلا أن الإسلام بقوته الذاتية الدافعة. ومقاصده القوية، وتعاليمه الصادقة، وقيمه الأساسية. هو الذي استطاع أن ينفذ إلى هذه القلوب والعقول.

وإذا كان الاستعمار والتعصب قد شقا في قلب الفكر الغربي تياراً قويًّا ضد الإسلام. فإن الإسلام استطاع أن يقوم بغزوة جديدة في الفكر الإنساني كله، ويحفر تياراً لا شك في أصالته وقوته. برز فيه كتاب من الأعلام في مجال الفكر الغربي. وكتاب تدل كتاباتهم على الصدق والإيمان بالحقيقة. وقد واجه هؤلاء جميعاً ما وجه للإسلام من اتهامات في حملة التحدي الضخمة الضارية، واستطاعوا أن يكشفوا عن حقائق هامة.

أولاً ـ أن الكتاب الغربيين لم يعتمدوا المذهب العلمي أساساً لآرائهم أو أبحاثهم.

ثانياً ـ إن الإسلام (بوصفه ديناً وثقافة ومجتمعاً وحضارة) يكشف في تعاليمه عن سلامة وبساطة وشمول يمكن أن يعطي الإنسانية الحائرة الآن حاجتها.

ثالثاً ـ إن الإسلام لا يقف عقبة في سبيل الفكر. فقد يكون المرء صحيح الإسلام. وفي الوقت نفسه حر الفكر[1].

رابعاً ـ إن الإسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس كذلك لكل أنواع العقليات، وجميع درجات المرتبات على حد تعبير ناصر الدين دينيه الذي يقول: «وبينما تجد الإسلام يهيج في نفس الرجل العملي في أسواق لندن. حيث مبدأ القوم «الوقت من ذهب» إذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الروحاني. وكما يتقبله عن رضا ذلك الشرقي ذو التأملات. ورب الخيال. إذ يهواه ذلك الغربي الذي أفناه الفن، وتملكه الشعر»[1].

خامساً ـ قدرة المسلمين على تمثل آراء الغرب والفكر الإنساني في تطوره. يقول كازانوفا: يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنا. وهضم أفكارنا. يعتقدون ذلك، وينسون أن نبي الإسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة.

سادساً ـ صدق القرآن، وتأكيد رسالته من الله، وأنه من صنع محمد. يقول سانت هيلر في كتابه تاريخ النبي: أنه كان يشك في صدق النبي في رسالته حتى قرأ في جميع السير أنه لما نزلت آية الحفظ. ووعد الله نبيه بأنه سيتولى حراسته. وقال ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ بادر محمد

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام كتاب ناصر الدين دينيه ترجمة أسعد رستم.

بصرف حرسه، والمرء لا يكذب على نفسه، ولا يخدعها. فلو كان لهذا الوحي مصدر غير الله لأبقى محمد حرسه.

سابعاً ـ الاعتراف بفضل «الإسلام» على الحضارة الحديثة ـ حتى أن نيتشه[1] يقول: لقد حرمتنا المسيحية ميراث العبقرية القديم، ثم حرمتنا بعد ذلك من الإسلام. فقد ديست بالأقدام تلك المدنية العظيمة مدنية الأندلس المغربية، ولماذا لأنها نشأت من أصول رفيعة، وغرائز شريفة. ثم من غرائز رجال تلك المدنية التي لم تنكر الحياة. بل أجابتها بالإيجاب. وفتحت لها صدرها. لقد قاتل الصليبيون تلك المدنية. وكان أولى بهم أن يسجدوا لها على التراب ويعبدوها. وما مدنيتنا في هذا القرن التاسع عشر إلا فقيرة وانية بجانب مدنية الإسلام في ذلك الوقت.

ثامناً ـ مسايرة الإسلام للمدنية: وهذه عبارة ولز «كل دين لا يسير مع المدنية في كل طور من أطوارها فاضرب به عرض الحائط، ولا تبال به، وأن الديانة الحقة التي وجدتها تسير مع المدنية التي سارت هي المدنية الإسلامية، وإذا أراد الإنسان أن يعرف شيئاً عن هذا فليقرأ القرآن. وما فيه من نظرات علمية وقوانين وأنظمة لربط المجتمع، وإذا طلب مني أحد. أن أحدد له الإسلام. فإنني أحدده بهذه العبارة «الإسلام هو المدنية»[2].

تاسعاً ـ انتشار الإسلام بالاقتناع: يقول اللورد هدلي[3] لا أظن أبداً أن المسلمين اجتهدوا في حين من الأحيان أن يحشروا أفكارهم، ومعتقداتهم الدينية في حلوق الناس وصدورهم بالقوة أو الفظاعة. أو التعذيب، ولم يشهر محمد السلاح إلا حين الحاجة القصوى لحماية

(١) مجلة المستقبل ١٩١٤/٥/٢٤ ترجمة سلامة موسى عن نيتشه.
(٢) موسوعة «الحديقة» لمحب الدين الخطيب جـ ٧ ص ٢٦٢.
(٣) المنار م ٢٩ جـ ٥ عن مجلة (اسلاميك رفيو).

البشرية. وأن أعداء الإسلام لأعجز من أن يأتوا بدليل أو مثل من الأمثلة التي أثرت فيها الحرب على هداية قبيلة واحدة أو شخص واحد.

عاشراً ـ «بساطة الإسلام وحقائقه» يقول اللورد هدلي: إن أعظم ما تركه الإسلام في نفسي ما تجلى له من البساطة، والحقيقة بحيث وجدته يمتاز على غيره ببساطته وخلوه من كل مغالطة أو إيهام. الدين الذي ليس فيه أي أثر للاحتمالات والخيالات. والذي يدعو الإنسان إلى الثقة الكاملة بعدل الله ورحمته.

حادي عشر ـ صدق محمد. يقول كارليل: أَفَيَقْوَى مدعٍ زائف على إيجاد دين. إن الزائف لا يستطيع أن ينشىء شيئاً. ولو كان هذا الشيء بيتاً من الطوب.

ويقول دوزي: «لو صح ما قاله القساوسة من أن محمداً نبي منافق كذاب. فكيف نعلل انتصاره، ما بال فتوحات أتباعه تترى وتـتلو إحداها الأخرى. وما بال انتصاراتهم على الشعوب لا تقف عند حدّ. وكيف لا يدل ذلك على معجزة هذا الرسول».

ومن رأي برنارد شو أن يدعى محمد منقذ الإنسانية. وعنده أنه لو تولى زعامة العالم «الحديث» لنجح في حل مشكلاته.

ويقول الدكتور ماردوس المستشرق الفرنسي أن أكثر الكتاب ارتياباً وشكًّا قد خضعوا لسلطان تأثير محمد. ويقول ولز: إن محمداً كان من أنجح الأنبياء وأكثرهم توفيقاً. ويقول غوته: إننـا أهل أوروبـا بجميع مناهجنا لم نصل إلى أبعد مما وصل إليه محمد، وسوف لن يتقدم عليه أحد. ويقول وليم موير: إن محمداً قد امتاز بوضوح كلامه، ويسر دينه، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس. وأحيا الأخلاق في زمن قصير. كما فعل محمد.

ثاني عشر - الإسلام ليس له مرتدون، وهو مسيحية وزيادة.

يقول الكونت هنري دي كاستري: إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي ليس له مرتدون. ويقول (ايتان دينيه) إن للإسلام على النفوس طابعاً لا يمحى، والذين يعتنقونه من الأوروبيين والأمريكيين دائمًا من الخاصة، وإسلامهم لا شك فيه. لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية.

ثالث عشر: الإسلام ليس عدوًّا للعلم. وقد اعترف بذلك (البرت هويك) حين قال: حينما تعمقت في قراءة القرآن. اندهشت لعصرية القرآن في علاقته بالعلم، ففي الإسلام من المستحيل وجود مثل حادث (جاليلو) والتعاليم الإسلامية لن تعارض البحوث العلمية الحديثة، ولم تقف في وجه مقتضيات العالم الحديث.

وقال تريتون: إن الإسلام يكبر من شأن العلم إكباراً لا شائبة فيه. فهو فريضة على كل مسلم ومسلمة.

رابع عشر - توقف الإسلام أظلم أوروبا. اعترف بذلك كلود فارير. أستاذ اللغات الشرقية. وهنري دي شامبيون، وجيمس برستد.

قال كلود فارير: إن فاجعة عام ٧٣٢ (معركة بواتيه) كانت أشأم الفواجع التي انقضت على الإنسانية في القرون الوسطى. هي معركة بواتيه، برابرة المحاربين من الإفرنج بقيادة شارل مارتل. ماذا عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمراني المتسامح.

ويقول هنري دي شاميون: إن انتصار كارل مارتل على تقدم الإسلام في فرنسا أخّر سير المدنية ثمانية قرون. وأنه هو الذي أوقع أوروبا في ظلمات القرون الوسطى، ومكابدة المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الديني والمذهبي.

وقال جيمس برستد: إن العصر الإسلامي في إسبانيا كان أكبر عامل

من عوامل المدنية في أوروبا. وأن انخذال المسلمين في إسبانيا كان بمثابة انهزام المدنية أمام الهمجية.

(٣)

واليوم تبدو حاجة الإنسانية إلى الإسلام، وتبدو عالمية الإسلام نفسه. ذلك أن الإسلام اليوم حين يفتح جبهة جديدة في الفكر الإنساني، ويغزوه من جديد على هذا النحو، إنما يثبت صلاحيته الحقيقية لحل مشاكل البشرية، وليس أقدر منه على تحقيق هذا الأمل للأمم الحائرة بعد تجاربها الطويلة خارج نطاقه. فقد انصرفت الحضارة الحديثة عن المسيحية. عندما عاقتها عن التقدم العلمي، وبذلك انصرفت عن الدين كله، وظنت حين واجهت الإسلام أنه كالمسيحية، سيقف في وجهها. ونظرت إليه من نفس الزاوية، وحكمت عليه قبل أن تكشف جوهره، وحملت دعوة التغريب رأي الفكر الغربي في الدين الذي كونته عن طريق مفاهيمها في المسيحية، محاولة أن تطبقه على الإسلام. غير أن الأمر يختلف كثيراً، وأمامنا هذه الوثائق التي قدمها نفس الأعلام المثقفين الذين قارنوا بين تجربتهم مع الإسلام والأديان الأخرى تعطي الحقيقة، ولا شك أن العالم يمر اليوم بأزمة أساسية تضطرب كيانه كله، في تعليماته الحائرة بين المذاهب والدعوات والأفكار مما يصوره هارولد لاسكي[١] حين يقول: من قرن مضى «كان في مقدور الدين أن يتيح للكثيرين الأمل في تعويض ما نالهم من الحياة. وذلك في الحياة الأخرى. أما الآن فقد أطفأ العلم أنوار السماء، ولا عن طريق للخلاص إلا في ظل الحاضر العاجل. ومنذ قرن مضى رأى الناس بارقة أمل في الصناعة الجديدة.

والآن وبالرغم من مزاياها الهائلة يتضح أن الطاقة المادية التي تستطيع أن تشكل الطبيعة لخدمة أغراضنا دون أن يساندها مبدأ ما، لم

(١) ترجمة علي أدهم ـ مجلة المجلة ـ ديسمبر ١٩٥٨.

يصبح لها أي معنى، إلا إذا كان لهذه الطاقة هدف معروف، ثم التمست بعد المذاهب الكاملة (Totalisme) شيئاً يكون ديناً أو كالدين، ولم تستطع القومية أو الديمقراطية أو الفاشية أو الماركسية أن تسدّ في قرن أو قرنين مسدّ الدين الذي أشبع العقول والقلوب من قرون وقرون.

وعالجت الحضارة الغربية بعض أزماتها في ميدان علم النفس تحاول أن تسدّ الثغرة الروحية في بناء الحضارة المادية بعلم يسير على مناهج العلوم التجريبية البحتة، ونجح علم النفس حين تواضع وأخفق حين جمح ينشد فلسفة نفسية كاملة أو ديناً جديداً. وأشار في نجاحه وإخفاقه إلى الضمير الغائب إلى الدين.

ويعترف (سيمون وايل) في مقاله البحث عن الجذور بـأن العلم الحديث. والنظم الاقتصادية والسياسية. قد فشلت في الاعتراف بحاجتها إلى هدى الله مما أوجد هذه المساوىء. وهذا التفكك والتشويش والقلق الذي يهيمن على أفكار أهل الجيل وسلوكهم.

وتقول الكاتبة الفرنسية مدام سنت بوانت «اتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التي تزعم أنها ألقيت على عاتقها في الأجيال الأخيرة. أعني المهمة التي ترمي إلى نشر تعاليم الإنسانية وتعميمها على وجه الأرض. وتؤدي إلى الاتحاد. لقد أراد الغرب أن يوحد العالم. ولكن تحت سلطانه ولمصلحته، والعالم لا يساس إلا بالعدل وبالحب والإخاء، وبرد الحقوق إلى أهلها، ولكن الغرب لجأ إلى القوة الغاشمة، وعبث بالشرائع الدينية، وخالف تعاليم المسيح عيسى الذي أمر بمحبة الناس أجمعين.

* * *

ومن هنا يأتي تقدير المنصفين الغربيين للإسلام كوسيلة لحل الأزمة الإنسانية العالمية. يبدو هذا في كتابات الكثيرين منهم.

فبرنارد شو يقول: «أنا على يقين من أن دين محمد سيكون دين أوروبا في غد، كما أنه قد أخذ الأوروبيون يقبلونه من اليوم. وفي القرن التالي سيكون أهل أوروبا أكثر معرفة بفائدة اعتقاد (محمد في حل مشكلاتهم).

وليون روش في كتابه (٣٠ عاماً في الإسلام) يقول: ولقد وجدت في الإسلام حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طراً.

الأولى: في قول القرآن ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية.

الثانية: فرض الزكاة على كل ذي مال. وتخويل الفقراء حق أخذها غصباً إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعاً.

ويقول توينبي: إن الإسلام قد قضى على النزعة العنصرية. والصراع الطبقي بتقرير مبدأ الإخاء الإسلامي. والمساواة المطلقة بين المسلمين. وعلى الغرب أن يأخذ بهذا المبدأ الإسلامي لتنجو المدنية الحالية مما يدب فيها اليوم من عناصر العداء.

ويقول اللورد هدلي: لو ندبت لجنة من الإنجليز الأكفاء لفحص الدين الصالح. لأن يتدين به العالم كله لأجمعوا على اختيار الإسلام.

ويقول رينان: وما يدرينا أن يعود العقل الإسلامي، الولود. والكثير المواهب إلى إبداع مدنية أرقى من زميلتها المندثرة. إن فترات الازدهار والانحطاط مرت على رأس جميع الأمم بما فيها أوروبا المتعجرفة.

ويقول هورتن الألماني: لا نجد في الإسلام سدًّا يمنع من نفوذ الثقافة الغربية إليه. بل نرى أن له استعداداً لقبول الثقافة لا حدّ له.

ويقول أيضاً: إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ـ وقد صور هذا المعنى الفيلسوف سبنسر في حديثه مع الشيخ محمد عبده حيث قال: محي الحق من عقول أهل أوروبا.

واستحوذت عليهم الأفكار المادية. فذهبت الفضيلة. وهذه الأفكار المادية ظهرت في اللاتين أولاً. فأفسدت الأخلاق وأضعفت الفضيلة. ثم سرت عدواها منهم إلى الإنجليز. وقال إنني أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التي تزعم أنها ألقيت على عاتقها في الأجيال الأخيرة[1].

وهكذا يكشف الفكر الإسلامي عن حقيقتين كبيرتين:

أولاً: عالمية الإسلام، وأنه ليس ديناً قط. بل ديناً وثقافة وحضارة ومجتمعاً.

ثانياً: حاجة الحضارة القائمة إليه، وحاجة الإنسانية لحل معضلاتها.

* * *

بقي أن ننظر إلى الإسلام نفسه. وموقفنا في العالم الإسلامي منه. فنحن أشد ما نكون حاجة إلى أن نؤمن به. ونثق بحاجتنا نحن أولاً إليه باعتباره المصدر الحقيقي لثقافتنا. والأساس الأكبر لمقوماتنا الفكرية والروحية. وعنده نجد القوة لمواجهة كل الأعاصير. وحل كل مشاكلها. ومقاومة كل التحديات.

وجوستاف لوبون[2] في حديث له مع مصري يدعى «توفيق يزدي» زاره في منزله بشارع أفينو بباريس. يكشف هذه الحقيقة، ويجاهر بها حيث قال:

إن سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين، وتَشَبُّثُه بالعقائد الباطلة، فإن قوة الدين قوة أدبية لا يستهان بها. ومن الواجب عليكم أن تأخذوا من دينكم ما يوافق روح العصر، وأن تحافظوا على تقاليدكم الحسنة، وعاداتكم المرضية، وعلى الطلاب الذين يأتون أوروبا أن يجنوا من

(١) موسوعة الحديقة لمحب الدين الخطيب. م ٣ ـ ص ١٩٥٢.

(٢) مجلة رمسيس السنة الثالثة ص: ٦١٩.

العلوم والفنون والأفكار ما ينفع وطنهم، ويوافق أخلاقهم. إن الشعب الذي يريد الرقي يجب ألا يقطع الصلة التي تربطه بماضيه.

ونفس هذا المعنى يردده المستشرق (وامبري) حيث يقول: إن روح نظام المسلمين هـو الدين، والـذي أحيـاهم هـو الدين. والـذي يكفل سلامتهم في المستقبل هو الدين ليس إلاّ.

والذي لا شك فيه أن الإسلام استطاع أن يقاوم كل ما وجه إليه من تحديات. وأنه قد خطا خطوة واسعة. منذ استطاع أن ينفذ بروحه القوية إلى الفكر الإنساني، فيكسب أنصاراً خارج العالم الإسلامي. لا يعرفون العربية ولا يقرؤون القرآن بها. وهذه آية عظمته. وقد اعترف له الجميع بأنه لن يسقط أمام الحملات العنيفة التي يشنها الاستعمار والنفوذ الغربي عليه. وقد سجل ذلك الدكتور كرستيان ستوك هرجرنج الهولندي عام **١٩١٣** عندما كان الإسلام يمر بأقسى فترات التحـدي والتعصب والمقاومة. حين قال: «لا أعتقد أبداً أن الإسلام يسقط أمام النصرانية أو الغرب. وقد تغلغلت الأفكار الأوروبية في بلاد المسلمين. ولكن لم يجد منهـا الشعور الأوروبي مـركزاً. لهـذا أتجرأ عـلى القـول بـأن المسلمـين سيستمرون على دينهم. وكلما عشت بين المسلمين ازددت اعتقاداً بـأن الإسلام سيجري في نشوئه على الطريقة التي سلكها. ولا يمكن أن يـقـع انحطاط تدريجي في الإسلام لأنه لا توجد بواعث خارجية تمنعه. فالإسلام قوي ولم يضعف[1].

وبعد: ففي يقيني أن هذه الصفحات قد كشفت حقائق واضحة عن الإسلام، لم يكتبها المسلمون. وإنما كتبها مثقفون من الغرب والشرق من خارج نطاق العالم الإسلامي أتيح لهم أن يتصلوا بالإسلام قراءة أو زيارة. ومن خـلال ركام ضخم من حمـلات التعصب على الإسـلام اكتشفـوا

(١) ٧. ١ ج ٣ المنار ص ٢١٢.

الحقيقة، واستطاع الإسلام بقوته الذاتية أن يواجه نفوساً متطلعة إلى الحقيقة فعرفته وآمنت بعالميته، وحاجة الإنسانية إليه.

وهكذا استطاع الإسلام أن يغزو الفكر الإنساني مرة أخرى، وأن يحقق له تياراً قوياً هو: مقدمة أكيدة لتقدم خطير في مجال الإيمان به إزاء أزمة البشرية الضخمة التي تواجهها الآن. وما أصاب الإنسان في العالم كله من قلق واضطراب وتقلب بين المذاهب والدعوات والنظم.

ولا سبيل له إلى حل مشاكله، والوصول إلى الطمأنينة الفكرية والنفسية الحقة إلا عن طريق واحد هو: «الإسلام».

ولكن السؤال الآن الذي يتطلب فتح أبواب النظر الواسعة هو ماذا يمكن أن يعطي الإنسان للفكر الإنساني ذلك ما يدعونا إلى عقد الفصول التالية وفيه إقرار واضح من علماء الغرب على هذا العطاء، وذلك ما يؤكد عمق هذا المجرى الجديد الذي حفره الإسلام في الغرب وكيف أصبح هناك من أهل الرأي والعلم من يعترفون بالدور الخطير الذي قام به الإسلام في بناء الحضارة العالمية والفكر الإنساني وتلك شهادة لها قيمتها الحقيقية ولها أثرها البعيد المدى على المستقبل في الغرب نفسه، وهو ما نوجه إليه أنظار أبنائنا الذين خدعوا بأن مصدر العلم هو الغرب وأن آباءهم لم يخلفوا أثراً حقيقياً يمكن الاعتزاز به والثقة بأنه المنطلق الحقيقي لنهضة الإسلام في القرن الخامس عشر الهجري.

ماذا يمكن أن يعطي الاسلام للبشرية
(مدخل)

ما زال «الإسلام» قادراً على أن يعطي الفكر الإنساني، ويأخذ منه شأنه دائماً في مختلف أدواره. وخلال أربعة عشر قرناً. وقد أعطى كل من اتصل به سواء كان اتصال اندماج، أو اتصال خصومة. أعطى هذه الأمم التي امتزجت به، وأخذ منها، واستوعب ثقافات الأمم السابقة له من يونان ورومان وهنود وفرس. وانتفع بها. واستطاع أن يصبغ الحياة في أوروبا بطابعه، منذ بلغت أضواؤه الأندلس. وأقام فيها جامعاته العلمية. التي امتدت آثارها إلى فرنسا وإيطاليا. وشكلت خميرة النهضة الغربية الحديثة في مجال: العلم والفكر والحضارة، كما استطاع أن يمد لغته على الأرض كلها. وأن يؤثر في لغات العالم الإسلامي، تأثيراً عضوياً في تركيبها الخاص. وفي مضمونها أيضاً. فقد كانت ثقافة القرآن هي مصدر الثقافة العربية الإسلامية خارج نطاق الأمة العربية. في كل مكان وصل الإسلام إليها. وقد استطاع في أشد أوقاته السياسية وضغط القوى المعادية له: الحروب الصليبية، وغزوات التتار، والاحتلال الغربي أن يفتح آفاقاً جديدة، وقبل أن تنتزعه القوى المتجمعة عليه في الأندلس. كان قد استطاع أن ينفذ إلى أعماق جنوب شرق آسيا. وأن يكسب فيها أتباعاً جدداً. وقبل أن تزول دولته في الامبراطورية العثمانية. كان قد وسع آفاقه في شرق أفريقيا ووسطها.

وهكـذا لا يتوقف الإسـلام عن الامتداد، ولا يـرتبط بنـامـوس الحضارات السابقة له التي يسقط فكرها إذا سقطت، فهو ليس رباطاً سياسياً متغيراً بقدر ما هو رباط اجتماعي مستمر. غير أن ظاهرة جديدة ارتبطت بالنفوذ الاستعماري في خلال قرن وربع قرن تقريباً. كان لها أثرها البعيد المدى. تلك هي ظاهرة الحملة على الإسلام والفكر العربي الإسلامي، وإثارة الشبهات حوله، وإلقاء التهم والشكوك حول مفاهيمه وقيمه.

هذه الظاهرة كانت بعيدة المدى في اتجـاه المفكرين والكتـاب إلى «الدفاع عن الإسلام» الذي أصبح أشبه ما يكون بـالسوق إلى قفص الاتهام. وفي تقدير بعض الباحثين أن هذه الحركة قد عطلت الدعوة إلى الإسلام نفسه، فأصبح المفكرون المسلمون في شغل شاغل بالـرد على الهجوم بدلاً من أخذ المبادءة في الدعوة إلى الإسلام نفسه، والحق أن تحليل ما يوجه إلى الإسلام من اتهام والرد عليه، وإزالة الشبهات المثارة، وكشفها على نحو علمي عقلي دقيق. دون أن يطغى على ذلك طابـع التعصب أو العنف أو الكتابة الحماسية أو العاطفية. هو عمل من صميم «الدعوة إلى الإسلام». ذلك أن هذه الاتهامات والشبهات لم تعد كلمات تلقى أو تذاع. بل أصبحت نصوصاً في دوائر المعارف، ومصادر الدراسات في الجامعات، والمدارس، وهي مبثوثة في المراجع الأساسية التي يلجأ إليها الأساتذة والباحثون في العالم الإسلامي، فتجري على أقلامهم دون تنبه إليها، وهي بعد هذا كله سلاح يحمل لواء خصوم العرب والإسلام من أجل القضاء على مقومات هذه الأمة.

* * *

ولذلك كان لا بد من تعقب هذه الشبهات ودراستها والرد عليها، والكشف عن وجوه الخطأ والاضطراب فيها. وهو عمل ترجع أهميته إلى

أن النفوذ الاستعماري يحاول اليوم أن يتخذ مكاناً له عن طريق ثغرة قد يجدها في مجال الفكر العربي، حيث يستطيع أن يهدم عاملاً أو أكثر من العوامل المكونة لمقومات هذه الأمة إيماناً منه بأن ذلك سيقتل أو يضعف «القوة النفسية» التي تواجه نفوذه ويقضي عليه، وليس معنى هذا أن «الفكر العربي الإسلامي» يغلق نفسه أبداً، فهو لم يغلق نفسه طوال أربعة عشر قرناً. وقد كان دائمًا مفتوحاً على آفاق الفكر يأخذ ويعطي، ويستوعب ويمتص، على قاعدته الأساسية التي لا ينحرف عنها، وهي أن الإسلام: دين ومدنية، وقلب وعقل، ودنيا وآخرة، وروح ومادة. وأن هذه العناصر تتزاوج وتتلاقى في تكامل واضح، وأن مصدر الاضطراب إنما يجيء من انفصالها. ذلك طابع الفكر العربي الإسلامي، الذي بنى قاعدته الأولى على أساس «التوحيد»، وسيادة الإنسان على الكون تحت حكم الله. قبل أن يلتقي بالفلسفات اليونانية والرومانية والهندية، ومن هنا كان موقفه منها موقف حرية الاقتباس والتضمين. فهو قد رفض كل ما يتعارض مع قاعدة الأساسية، وقبل كل ما يزيده قوة على الحياة، ويشحذ أسلحته في سبيل الدفاع عن العقائد. وإذا كان الإسلام في مضمونه الأصلي عصارة الأديان السماوية باعتباره خاتمها. فإنه في مجال الفكر قد استطاع أن يذيب مختلف الثقافات الإنسانية السابقة عليه في كيانه دون أن يفقد مقوماته الأصلية. ذلك أنه أساساً دين «الإنسانية والعالمية». ومن هنا كانت قدرة الإسلام على الالتقاء بالثقافات والحضارات خلال عمره الممتد، دون أن يصطدم بها. ومن هنا كانت مرونته في مواجهة العصور والثورات والدعوات والمذاهب سواء في داخل نطاقه أم في خارجه، دون أن يقضي عليه منها شيء.

* * *

والواقع أن الإسلام منذ ظهوره إلى اليوم، كان قادراً على الحياة والحركة مؤثراً في مجرى التاريخ، سواء في إبان انتصاراته، أو في خلال فترة

الضعف التي مرت به، أم في مرحلة اليقظة التي تمر به اليوم، وحتى نقف على أساس ثابت في هذا البحث علينا أن نواجه هذه الحقائق العشر:

أولاً : إن الإسلام كان مفهومه الصحيح الكامل: ديناً ومدنية.

ثانياً : إن وثيقة الإسلام الكبرى الخالدة «القرآن» قد حفظت من التحريف.

ثالثاً : إن الإسلام لم يتوقف عن الانتشار منذ بزوغ فجره حتى في أشد أيام الصراع بينه وبين الاستعمار.

رابعاً : أكد الإسلام أهمية العقل، وفضل العلم، وجمع بين الاتجاهين: المادي والروحي، ولم يكن عائقاً عن التقدم.

خامساً : التفسير التاريخي للإسلام يعطي مفهوماً يختلف كل الاختلاف مع مقاييس الأديان والمذاهب المختلفة.

سادساً : أبرز طوابع الإسلام بعد التوحيد: طابع الشمول.

سابعاً : استمرار قدرة الإسلام الدائمة المتجددة على البقاء، ومنح الإنسانية قيمًا جديدة.

ثامناً : ما تزال اللغة العربية هي لغة الإسلام ثقافة، والأمة العربية قومية.

تاسعاً : إن دور العرب والمسلمين في العلم والحضارة لا سبيل إلى تجاوزه أو إنكاره.

عاشراً : إن الشريعة الإسلامية حية صالحة لكل زمان ومكان، قائمة بذاتها، وليست مأخوذة من غيرها.

* * *

(١) الاسلام دين ومدنية

ولقد واجهت الإسلام شبهة القول بأنه دين روحي، ينظم العلاقة بين الله والإنسان، لا صلة له بالحياة والمجتمع، في هذا محاولة لإنكار مفهوم الشمول في الإسلام على أنه دين ومدنية. وقد واجه هذا كثير من الباحثين المنصفين. يقول «العلامة» الزي لشبتشاتر: الإسلام ليس ديناً فحسب. ولكنه أسلوب في الحياة. والإسلام كدين له قيم خاصة، وخير دليل على ذلك أن الأديان الأخرى لم يستطع أحدها أن يجد سبيله إلى نفوس الأميين والفقراء من المسلمين، أو إلى نفوس المثقفين ثقافة عالية، وإنك لتجد علماء الذرة والحيوان والرياضة رغم بلوغهم هذه الدرجة العليا ظلوا مخلصين لدينهم الإسلامي، وما من واحد من الطلبة المسلمين الذين يتلقون العلم في أوروبا تحول عن الإسلام إلى دين آخر. وإن كان بعضهم قد استغرب في أنماط حياته. ولم يحدث هذا عن مصادفة. ولكن له دلالته القوية. ذلك أن الإسلام له «قيمه» التي لا ترضي الجاهل فحسب. بل التي تكفي حاجات المتعلمين والمثقفين.

ويقول موريسون: إن الحق الذي لا يماري فيه أحد أن الإسلام أكثر من معتقد ودين، وإنما هو نظام اجتماعي، تام الجهاز، هو حضارة كاملة النسيج لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها.

* * *

ويرى الدكتور بول ركلا: لقد آن لنا أن نعرف ويعرف العالم جوهر هذا الدين، دين يجب أن لا نكتفي بتسميته ديناً ونقف. بل لنعطه اسمه الحقيقي، ولنسمه فلسفة دينية، فنكون قد أعطيناه مركزه بين الأديان، ولست بمغالٍ إذا صرحت علناً. وقلت إن الإسلام مفتوح بابه على مصراعيه، وهو واسع الأرجاء لتلقي الرقي الحديث الذي أنتجته الأجيال الطويلة، وليس كما يزعم البعض محدود الأطراف، ضيق المدخل، لأن تعاليمه الرفيعة، وضعت لكرور الدهور، وستبقى خالدة وضاءة الأنوار، تكشف كل مدنية تتمخض عنها العصور، وهو الدين الوحيد الذي حل بعدل مشكلة حقوق البنين وواجباتهم باعترافه بالمولود، ضارباً عرض الحائط بالترتيب الغريب المخالف لنظام الطبيعة ونواميسها في التفرقة بين الأولاد الشرعيين وغير الشرعيين. فأعطى بعض الأولاد كل الحقوق، وحرم الآخرين، وأن الإسلام هو الدين الوحيد بين جميع الأديان الذي أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب إلى الفسق والفجور، ويكفيه فخراً أنه قدس الإنسان وعظمها ليرغب الرجل بالزواج، ويعرض عن الزنا المحرم شرعاً وتشريعاً، وأن الإسلام قد حل بعقلية عالية عادلة أغلب المسائل الاجتماعية التي لم تزل للآن تشغل مشترعي الغرب بمعتقداتها. فالإسلام هو الدين الديمقراطي الوحيد سواء بتعاليمه أم بشرائعه، أم بعاداته، فهو لا يعترف مطلقاً بالزعامة الدينية.

* * *

ويقول الدكتور جرمانوس: إن أوروبا لم تعرف الإخاء بين الناس إلا بعد الثورة الفرنسية. بينما دعا الإسلام إليها وطبقها قبل ثورة فرنسا بنحو ألف عام، لقد كانت فكرة المساواة والديمقراطية من ابتكار «القرآن» عرفتها أوروبا في القرن السابع عشر. بينما هي من حقائق الإسلام وأصوله منذ نشأته. ولم يعترف حكام أوروبا بالاشتراكية إلا في السنوات الحديثة، بينما

سبقهم الإسلام إلى المساواة بين المسلمين وأهل الكتاب (يهود ومسيحيين وغيرهم) فأقام بذلك النظام الاشتراكي الصحيح. واستمتع في ظل نظامه كافة الناس بكل الحقوق الإنسانية.

(٢) وثيقة الاسلام الخالدة: القرآن

أما «القرآن» فقد ظل قادراً على التأثير في الفكر العربي الإسلامي. وفي الفكر الإنساني عامة، إذ كانت إجاباته على مختلف القضايا والمعضلات موضع تقدير الباحثين، على أساس أنها قادرة على حل أزمة الإنسان الحديث.

يقول فيليب دي طرازي: لسنا نعرف كتاباً عربياً أثار همم العلماء والباحثين في أربعة أقطار المسكونة، كما أثارها القرآن منذ ظهوره. الإسلام إلى اليوم. تلك حقيقة صادقة لا تفتقر إلى برهان يسندها، أو حجة تدعمها. ومن المقرر الثابت أنه لولا القرآن لما انتشرت اللغة العربية الفصحى في الخافقين، ولولا القرآن لما أقبل ألوف الألوف من البشر على قراءة تلك اللغة وعلى كتابتها ودرسها والتعامل بها. فالقرآن عزز الجامعة العربية، وصان عنصرها، وضمن سلامتها على توالي الزمان. ذلك أن الإسلام فرض على كل مسلم أن يدرسه ويحفظه ويجود قراءته قبل أي علم من العلوم البشرية، وهكذا حفظ التفاهم بين الشعوب الإسلامية وغيرها من الشعوب. وقد استعصت اللغة العربية بفضله على نكبات الدهر، ورسخت رسوخ الجبال الرواسي خلافاً لما انتاب لغات الأقوام الذين اندمجوا في العرب بعد الإسلام. كالرومان، والسريان، والأقباط، والأنباط، والصابئة، واليهود وغيرهم.

* * *

وفي تقدير العلامة «اتيان دينيه» أن القرآن قد حقق معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها، ذلك أنه مكن اللغة العربية في الأرض بحيث لو عاد أصحاب الرسول اليوم إلينا لكان ميسوراً لهم أن يتفاهموا تمام التفاهم مع أهل اللغة العربية. وهذا عكس ما يجده مثلاً أحد معاصري (رابليه) من أهل القرن الخامس عشر الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن من الصعوبة في مخاطبة العدد الأكبر من فرنسيي اليوم. وأن لغة القرآن وإن كانت تمت في أصولها إلى عصور بعيدة قديمة، فهي مرنة طيعة تسع التعبير عن كل ما يجد من المكتشفات والمخترعات الحديثة دون أن تفقد شيئاً من رونقها وسلامتها.

ويقول العلامة فيبني أن القرآن ليس بكتاب ديني فقط. بل كتاب علم الإنطلانطيكي إلى نهر الكانج بأنه الدستور الأساسي ليس لأصول الدين فقط. بل للأحكام الجنائية والمدنية، والشرائع التي عليها مدار حياة نظام النوع الإنساني وترتيب شؤونه.

ويقول العلامة فيبني أن القرآن ليس بكتاب ديني فقط. بل علم وآداب، ونجد فيه بيان الحياة السياسية والاجتماعية حتى أنه يرشد الإنسان إلى وظائفه اليومية، والأحكام السياسية التي إن لم توجد في القرآن توجد في السُّنَّة.

ويدافع السير ريتشارد وود عن القول بأن القرآن حائل دون النهضة فيقول: إن القرآن يتضمن أحكام الدين، وفي نفس الوقت يشمل الأمور المدنية والأصول السياسية، وأن كثيراً من مؤلفي الإفرنج يزعمون أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء في معارج الحضارة ما داموا مقيدين بنصوص القرآن التي يقولون أنها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون. وهذا وهم باطل نشأ عن الجهل بمقاصد القرآن، ويكفي برهاناً على بطلانه

تاريخ صدر الإسلام، وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون، ودرسهم كتب الحكماء والأقدمين.

وتقول الدكتورة لورا فنيشيا فاليري: إن المعجزة التي تفوق كل المعجزات، والتي وصلت إلينا أخبارها من مصادر غير مشكوك فيها، صحة فهي «القرآن». فإنه كتاب لا يستطيع إنسان أن يأتي بمثله. إذ أن كل عبارة من عباراته متزنة منسقة مشتملة على معانٍ كثيرة سهلة المأخذ، فلا هي كثيرة الإيجاز، ولا هي بالغة حدّ الإسهاب والإطالة، ولما كان أسلوب القرآن فريداً في بابه، ولم يكن له مثيل سابق في الأدب العربي فإنه يقع في النفس البشرية موقعاً صحيحاً لا تصنع فيه، ولا افتراء ولا تمويه ولا استكراه، إذ أن آياته كلها على جانب عظيم من الفصاحة حتى ما كان منها خاصًّا بالأوامر والنواهي التي يجب منطقياً أن تكون في أسلوب هادىء، كما أن سير الأنبياء، وأوصاف بدء الخلق ونهايته والأحكام، وخصائص الله وصفاته. كل ذلك يتكرر ذكره في هذا الكتاب العجيب بأشكال وصور متعددة. ولكن دون أن يفقد شيئاً من روعته ومكانته. وكذلك فإن الانتقال من موضوع إلى موضوع في القرآن يحصل كثيراً، ولكن بغير أن ينحط التعبير عن مستواه ودون أن تقل حلاوته، كذلك فإن التعمق وسلامة التعبير، وهما صفتان يندر أن يجتمعا معاً. وقد ظهرتا محليتين في القرآن، وفيما عدا ذلك، فإن كل صور البلاغة تجد تطبيقاً كاملاً في القرآن، فكيف إذن. والحالة هذه يمكن القول بأن هذا الكتاب العجيب من صنع محمد الذي لم ينظم طوال حياته سوى بيتاً واحداً من الشعر وهو:

* أنا النبي لا كذب.
* أنا ابن عبد المطلب.

ولقد تحدى النبي قومه أن يأتوا بكتاب مثل القرآن أو بسورة واحدة

منه، ومع أن الفصحاء من العرب كانوا أكثر من رمل الصحراء. فإن أعداء الإسلام لم يستطيعوا أن يعارضوا القرآن، ولكنهم حاربوه بالسلاح، عندما لم يجرؤوا على محاربته بالكلام.

(٣) انتشار الاسلام

واصل الإسلام انتشاره منذ فجره إلى اليوم، ولم يتوقف عن الانتشار حتى في أشد أيام الصراع بينه وبين الاستعمار، وقد انتشر بقوته الذاتية، وبفضل مبادئه التي تحمل عنصري التوحيد، والحرية.

يقول توماس أرنولد[١]: إن كانت دولة الإسلام قد انقسمت وانهارت وحدتها السياسية. فإن فتوح الإسلام الروحية قد بقيت لا تحول دونها الحوائل. حدث هذا برغم إغارة المغول على بغداد، وقيام حكام الأندلس بطرد المسلمين من الأندلس، كان ذلك يجري، والمسلمون يضعون أقدامهم في أرض جديدة، ويدخلون أهلها في دين الله، تلك هي جزيرة سومطرة، ثم كانوا على وشك أن يبدأوا تقدمهم الموفق في جزائر أرخبيل الملايو. وهكذا أقام الإسلام في ساعات أزمته السياسية بطائفة من أعظم غزواته الروحية.

ويقول العلّامة مونتيه[٢]: في إفريقيا أناس من المرابطين هم دعاة تبشير حقيقيين، وهناك طرق دينية أخذت على نفسها نشر الإسلام، على أن الإسلام ينتشر بنفسه بواسطة المسلمين أنفسهم، لأن كل مسلم في

(١) من كتابه (الدعوة إلى الإسلام).
(٢) من كتابه (حاضر الإسلام ومستقبله).

البلاد الوثنية داعية دين بحد ذاته. وقد أنشأ الدعاة المسلمون قرى يسكنها المهتدون إلى دينهم من المحدثين في الإسلام، والمدرسة إحدى العوامل الفعالة لهم على الجملة عندما ينزلون ويستوطنون في بقعة جديدة يصرفون أولى عنايتهم إلى إنشاء مسجد، ويجعلون بجانبه مدرسة.

والمسلم ينشر دينه وهو متوفر على تجارته أو عامل في صناعته، والإسلام ينتشر من نفسه بواسطة القوافل التي ترحل إلى البلاد الوثنية، ودعاة الإسلام فيها عرفوا من الغيرة يعمدون إلى ذرائع مختلفة، تناسب كل حال، بحسب الأقطار والشعوب التي يبثون دعوتهم بين أهلها.

لا ينكر باحث ولا مؤرخ صلة الإسلام بالعلم وأثره فيه، وقد اتسعت هذه الظاهرة في إنتاج الباحثين الغربيين في الفترة الأخيرة إلى حد بدا واضحاً لا شبهة فيه. وقد رغبنا في هذا الفصل أن نجمع عصارة ما أثبته الكتاب المبرزون. وخاصة علماء الجامعات، وأساطين الدراسات الكيمائية والفلكية.

هذا ما أورده العلّامة درابر، والعلّامة مسمر، والدكتور لويجي رينالدي، والأستاذ شاتليه. ومن الباحثين المعاصرين الأحياء جورج سارطون وفرانز ورزنتال، والدكتورة سجريد هونكة.

أما العلّامة درابر الأستاذ بجامعة هارفرد بنيويورك، فقد كان في مقدمة الباحثين في العصر الحديث الذي أشار إلى جهود العلماء المسلمين في بناء المنهج التجريبي، وكتابه «المنازعة بين العلم والدين» كان شاهداً عادلاً اتخذه الباحثون المسلمون في أوائل هذا القرن حجة يردون بها على شبهات المتعصبين من الكتاب الغربيين. وقد استشهد بكتاباته: العلّامة «فريد وجدي» في دفاعه عن الإسلام، والشيخ مصطفى الغلاييني وغيرهما من الباحثين المسلمين.

(٤) الاسلام والعلم

وفي مجال الدفـاع عن الإسلام: تبـدو القضية الكبـرى في اتهام الإسلام بإعاقة تقـدم الثقافـة والعلوم. ولسنا نحن الـذين ندافـع عن الإسلام، ولكن ندع بعض المنصفين من المفكرين الغربيين الذين فهموا الإسلام فهمًا صحيحاً.

يقول إتيان دينيه: إن العقيدة المحمدية لا تقف عقبـة في سبيل الفكر، فقد يكون المرء صحيح الإسلام، وفي الوقت نفسه حر الفكر، ولا تقتضي حرية الفكر أن يكون المرء منكراً لله. لقد رفع محمد قدر العلم إلى أعظم الدرجات، وأعلى المراتب، وجعله من أول واجبات المسلم. ويقول «يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء، ويرفع فضل العلم على فضل العبادة».

ويرى الدكتور جرمانوس: أستطيع أن أجهر بمنتهى الجرأة بعد أن قرأت كتاب المسلمين المقدس، وثقافة الإسلام بأنه لا يـوجـد في تعاليم الإسلام كلمة واحدة، أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلم أو يمنع زيادة حظه من الثروة والمعرفة والقوة.

* * *

ويقول ليوبولد فابس: ما من دين ذهب أبعد من الإسلام في تأكيد غلبة العقل. وبالتالي غلبـة العلم على جميع مظاهر الحياة.

ويرى العلّامة مسمر: أن بين دين الإسلام، والعلم رابطة قوية، فإن الإسلام لم يزدهر إلا بانتشار العلوم وتقدمها.

ويقول رينيـه ميليه: لقد جاء المسلمون بمبدأ في البحث جديد. مبدأ

يتفرع عن الدين نفسه، هو مبدأ التأمل والبحث. وقد مالوا إلى العلوم، وبرعوا فيها. وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء، وقد وجد فيها كبار الأطباء.

ويقول الدكتور فرتنر رونتال: إن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو لنا جلياً في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم، فإنهم كانوا يبدون نشاطاً واجتهاداً عجيبين، حين يلاحظون ويمحصون، وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة.

ويقول جوستاف لوبون: إن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب. وأن جامعات أوروبا عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب، وأن العرب هم الذين مدنوا أوروبا في المادة والعقل والخلق. وأن الشعوب التي دانت الأرض لسلطانها قد عفت الأيام آثارهم، ولم تبق سوى ذكريات ألسنتهم وأديانهم، ولكن أهم عناصر مدنية العرب. وهي الدين واللسان والفنون لا تزال حية، ولا شك أن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين.

(٥) التفسير التاريخي للاسلام

وفي مجال التفسير التاريخي للإسلام، يبدو مدى الفرق بين فهم المسلم للتاريخ وإحساسه به، وتأثره به. فالمسلم[١] يحس إحساساً جادًّا بالتاريخ، إنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عمليًّا واقعيًّايسير البشر في الأرض على مقتضاه، ويحاولون أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره. ومن ثم فالمسلم يعيش دائمًا كل عمل

(١) ولفرد كانتول سميث.

فردي أو اجتماعي، في كل شعور فردي واجتماعي بمقدار قربه أو بعده من ذلك النظام الذي وضعه الله، والذي ينبغي تحقيقه في واقع الأرض، لأنه قابل للتحقيق، والتاريخ في نظر المسلم، سجل المحاولة الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فرديًا كان أو اجتماعيًا ذو أهمية بالغة، لأن الحاضر هو نتيجة الماضي، والمستقبل متوقف على الحاضر، أما الماركسي فيؤمن بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدي إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية، ولكنه لا يؤمن إلا بهذا العالم المحسوس، بل لا يؤمن في هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده، وكل شيء عداه باطل، والماركسي يتبع عجلة التاريخ، ولكنه لا يوجهها، ولا يعيشها بأية مقاييس خارجة عنها. وما من دين استطاع أن يوحي إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع، وأن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة، وأن الغربي لا يفهم الإسلام حق فهمه، إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً أو باطناً.

وإذا أردنا أن نطبق نظرية التفسير المادي للتاريخ على الإسلام. لم نستطع أن نحصل على نتائج واضحة ـ يقول العلّامة تريتون: إذا صح في العقول أن التفسير المادي للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً في تعليل بعض، أو معظم الظواهر التاريخية الكبرى، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها، فإن هذا التفسير المادي يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب في أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم، وقيام حضارتهم، واتساع رقعتهم، وثبات أقدامهم، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة. إنها تقع في هذا الشيء الجديد، ألا وهو «الإسلام».

* * *

رأوا أن الإسلام قوة هائلة، فيه حقيقة واقعة، وديناميكية حية، وهو قوام علم العمران وسبيل الحضارة، وهو الطريق إلى جمع الكلمة، ونشر السلام، وتحقيق العدل بما يؤلف القلوب، ويربط بين الشعوب. وقد أنشأ المسلمون مذهباً في الفقه. جديراً بالموازنة مع القانون الروماني، وأقاموا حضارة لا تقل عن أي حضارة معاصرة في أوروبا. والدين عند المسلمين حقيقة واقعة، وجزء متمم لحياتهم اليومية، وهو ليس رداء يرتديه الأحبار والعلماء. ومن ثم فهو يجعل المسلمين إذا وقعت الواقعة، وأدلهم ليل الخطوب ثابتي الإيمان. لا تزعزعهم العواصف والأنواء، والإسلام يكبر من شأن العلم إكباراً لا شائبة فيه، فهو فريضة على كل مسلم، وينظر إلى أتباع الأديان الأخرى نظرة تسامح ورفق.

(٦) طابع الشمول

وأبرز ما يتسم به الإسلام في نظر الدعاة إلى الإسلام، والمدافعين عنه على السواء «طابع الشمول»: يقول ليوبولد فابس: «إن أهم معطيات الإسلام، تلك المعطيات التي تميزه عن سائر النظم، هي التوفيق العام بين الناحية الخلقية، والناحية المادية من الناحية الإنسانية، وهذا سبب من الأسباب التي عملت على ظفر الإسلام في إبان قوته وأينما حل، لقد أتى الإسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتقار الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة. هذه الخاصة الظاهرة في الإسلام تجلو الحقيقة الدالة على أن النبي محمد كان شديد الاهتمام بالحياة الإنسانية في كلا اتجاهيها، في المظهر الروحي، والمظهر المادي. ونحن نعد «الإسلام» أسمى من سائر النظم المدنية، لأنه يشمل الحياة بأسرها، إنه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا

والآخرة، والنفس والجسد والفرد والمجتمع، ونجد الإسلام وحده من بين سائر الأديان، يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حد من غير تضييع اتجاهه الروحي دقيقة واحدة. فليس في الإسلام خطيئة أصيلة موروثة، وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للإنسانية. إن كل مسلم رهين بما كسب، والإسلام ينظر إلى الحياة بهدوء واحترام، ولكنه لا يعبدها. إن النجاح المادي مرغوب فيه، ولكن ليس غاية في نفسه، بل يقود الإنسان نحو الشعور بالتبعية الأدبية في كل ما يعمل، والغاية من جميع نشاطنا العلمي يجب أن يكون خلقيًّا.

ويرى الدكتور جرمانوس: أن الإسلام يبسط أمام معتنقيه طريقاً وسطاً لا يتجرد فيه الروح من البدن، ولا البدن من الروح، بل يكون وسطاً بين الروح والمادة. ويقول إميل درمنجم: لقد وفق الإسلام بين الاتجاهين المتقابلين: المادي والروحي، وقال الرسول: إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً. واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً. وفي القرآن الكريم: ﴿ وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾.

ويرى العلّامة هورتن الحقيقة حين يقول: «في الإسلام وحده، تجد اتحاد الدين والعلم، فهو الدين والعلم، الدين الوحيد الذي يوحد بينهما، فتجد فيه الدين ماثلاً متمكناً في دائرة العلم، وترى وجهة الفلسفة ووجهة الفقه متعانقين، فهما واحدة لا اثنتان.

ويقول رينيه ميليه: إن مبدأ التفريق بين عالم المادة، وما وراء المادة قد تنبه المسلمون له فجعلهم يقبلون على علومنا، ولا يرون فيها ما يناقض دينهم المشهور بالتسامح، وأنه لا يمكن للعلم أن يمحو سلطان الأديان على النفوس.

(٧) قدرة الاسلام على الاستمرار

١ - وفي مجال الدعوة إلى الإسلام نجد أن الباحثين المنصفين من الغربيين قد توصلوا منذ وقت بعيد إلى أهمية الإسلام بالنسبة للبشرية والحضارة الإنسانية. فالإسلام[١] سيشكل نفسه حسب حاجات العصر الحديث، ولكنه لن يدع الحضارة الغربية تغلبه وتسلبه أبناءه الذين كسبهم منذ مئات الأجيال، بعد أن طبعوا بطابعه، وصاروا جزءاً منه، وهم يمثلونه في سائر بقاع الأرض. والمسلمون يستمرون في دينهم معاً اتخذوا من الثقافة والمدنية الغربيتين، وفي الجامعات الكبرى نجد كثيراً من المسلمين لا يزال مجرى عقولهم إسلاميًّا. وفي المسلمين ميل قوي إلى التمسك بدين آبائهم وتطبيقه.

٢ - والإسلام يتفق مع مدنية زماننا الحاضر تمام الاتفاق، والتقدم الذي نشاهده منذ قرن، دليل على أن الإسلام يسير مع المدنية جنباً إلى جنب، والإسلام سيظل موجوداً دائمًا.

ويعترف «ليون روش»[٢] أنه وجد في الإسلام حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم:

الأولى: قول القرآن ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية.

الثاني: فرض الزكاة على كل ذي مال، وتخويل الفقراء حق أخذها غصباً إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعاً.

ويرى «هاملتون جيب» أن الإسلام ما يزال في قدرته على أن يقدم

(١) كرستان ستوك هيرونجه.
(٢) من كتابه (ثلاثون عاماً في الإسلام).

للإنسانية خدمة سامية جليلة، فليس هناك أية قوة سواه يمكن أن تنجح نجاحاً باهراً في تأليف الأجناس المتنافرة في جهة واحدة أساسها: «المساواة». فإذا وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس. فلا بد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع.

وما يزال الإسلام يسلك سبيلاً وسطاً بين المتناقضات الشديدة. فهو يقف في مكان وسط بين الرأسمالية والبلشفية.

ويقول الدكتور جرمانوس: إن مستقبل العالم وخلاصه من خطر الاصطدام الاجتماعي الذي يهدده، لن يكون إلا في المزاوجة بين الحضارة الأوروبية بدرسها وعلمها، وبين الروح السامية التي تنطوي عليها عقائد الدين الإسلامي، وإني أؤمل أن يكون الإسلام قادراً مرة أخرى على تحقيق هذه المعجزة في سبيل وحدة الجماعة الإنسانية.

ويقول العلّامة رينيه ميليه: يهمني هنا أن أقول إننا لا نستطيع أن نحكم على تلك الأمة بالسقوط، لأن الأمة التي أمكنها أن تنهض في وقت ما، يمكنها أن تعيد نهضتها في المستقبل. لقد أفل نجم المدنيّة الإسلامية بعدما أثمرت وأينعت فترة طويلة من الزمن، ويكفي هذه المدنية نفحة من نسيم الحياة الجديدة لتسترجع جمالها وعظمتها وجدتها. إن تلك الصبغة العامة اللينة التي اتصفت بها مبادىء الإسلام هي التي جعلته يقبل ضروب المدنية، ولا ينافيها. بل يقابلها بصدر رحب. ويقول بعضهم: إذا كنا نفرض أن المسلمين يسيرون في طريق المدنية الغربية سيراً حثيثاً. فلماذا نعتبر أن هناك مدنيتين، ولماذا لا تفنى المدنية الإسلامية العربية في جسم المدنيّة الغربية ما دام المسلمون يأخذون العلوم، والعلوم أساس كل مدنية، على أني لا أشارك أصحاب هذا الرأي في رأيهم. لأن العلم له دائرة محدودة لا يتعداها، وما وراء هذه الدائرة توجد أفكار ومعتقدات، ومثل عليا، وقيم لها تأثير كبير. إن العلم مهما اتسعت آفاقه، فلا يزال أمامه عالم غامض،

وأنه لا يمكن للعلم أن يمحو سلطان الأديان على النفوس، وعلى ذلك فلا أرى حدًّا لبقاء الإسلام، ذلك الدين الذي أتى بأحسن العقائد ملاءمة للفطرة. والذي سعد حظه بأن امتد ظله على ضفاف البحر الأبيض تحت سماء صافية الأديم لم تتلبد بالغيوم، فظل نوره متلألئاً في تلك البلاد الواسعة الأطراف، ولم تستطع الأحداث أن تطفىء ذلك النور الرباني الساطع. إن مبدأ التفريق بين عالم المادة وما وراء المادة قد تنبه المسلمون إليه، فجعلهم يقبلون على علومنا. ولا يرون فيها ما يناقض دينهم المشهور بالتسامح.

(٨) اللغة العربية : لغة الاسلام والعرب

لقد كانت اللغة العربية لغة الإسلام ثقافة، والأمة العربية قومية، وقد وصفها جورج سارطون بالعبقرية فقال: أتحدث عن عبقرية اللغة العربية. ففي المرتبة الأولى لم يكن الرسول يعرف لغة سوى لغته، ثم إن الإسلام نزل على الرسول باللغة العربية، وهكذا كانت «العربية» لغة القرآن، ولغة الوحي، ولغة أهل الجنة. ومن ثم أصبحت اللغة العربية من اللغات البارزة في العالم، وإحدى الوسائل الأساسية للثقافة في العصور الوسطى، وهي إلى اليوم لم تزل لغة أمة موزعة في جميع بقاع الأرض.

وأن اللغة الوحيدة التي عرفها رسول الله ﷺ كانت من أعظم اللغات في الوجود، وأن خزائن المفردات في اللغة العربية غنية جدًّا. ويمكن لتلك المفردات أن تزداد بلا نهاية. ذلك لأن الاشتقاق المتشابك والأنيق، يسهل إيجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة.

ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب، كانت بهذا التحديد كاملة، وها نحن أيضاً هنا أمام اتفاق عجيب. فإن الرسول مع أنه أميّ كان يملك

ناصية اللغة. إذ أتاه الله بياناً. ووهب اللغة العربية مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحي الإلهي أحسن تدوين، وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد، وقد جعل القرآن الكريم «من اللغة وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة».

ويقول هنري لاوس: إن اللغة العربية عندي من أهم دواعي وحدة الثقافة بين المسلمين، وأهم أسباب تفوق هذه اللغة. أنها اللغة الرسمية، ولغة الدين، ولا بد لأجل فهم القرآن والحديث النبوي من معرفة اللغة معرفة دقيقة. وقد قام اللغويون والنحاة بمجهود عظيم في البصرة والكوفة لخدمة هذه اللغة.

(٩) دور العرب والمسلمين في العلم والحضارة

وهذا دور قد أنكره الغربيون طويلاً، ثم عادوا فاعترفوا به تحت ضغط المنصفين من الباحثين الغربيين المتقدمين أمثال: توماس كارليل، وجوستاف لوبون، وأقربها إلينا كتاب «شمس الله تسطع على الغرب» للكاتبة الدكتورة سجريد هونكة التي تقول: لقد نادى النبي العربي بالطموح إلى المعرفة في كل مكان وزمان، لأن المعرفة تنير سبيل الإيمان. وهكذا لم ينصرم القرن الإسلامي الأول حتى ازدهر العالم العربي في سبيل محيط من الزهور، وحين كانت أوروبا غارقة في ظلمات العصور الوسطى، وجهالتها وقف العرب على أبوابها يرفعون مشعل الحضارة طوال سبعة قرون، لشد ما يغبن حقهم من يكتفي بالقول أنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم بعدما حفظوه من الدمار، فذلك يعني في الواقع التقليل من

قيمتهم، والسكوت عن الأمور الجوهرية في عملهم الحضاري، وجعلهم مجرد وسطاء لا غير. والحقيقة أن سائر مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الغرب مدموغة بآثارهم. إن قواميس اللغات الأوروبية تضج بالكلمات العربية سواء ما يتعلق منها بالحاجات اليومية، أو الأطعمة، أو الألبسة، أو العقاقير. وكذلك الأمر فيما يتعلق بالملاحة وفنونها، واصطلاحاتها. وقد أخذ الغرب عن العرب فكرة البريد، كما نقلوا كثيراً من فنون الزراعة. وقد أخذ العرب الأرقام الهندية في أواخر القرن الحادي عشر، ويعود الفضل الأكبر في تعرف الغرب على الأرقام العربية إلى الخوارزمي الذي نقلت كتبه جميعاً إلى اللغة اللاتينية، وكانت مرجعاً هامًّا للعلماء الغربيين.

ويقول جورج سارطون: لقد بلغ المسلمون ما يجوز تسميته معجزة العلم العربي. وقد أوردت كلمة «معجزة» لترمز إلى تفسير ما بلغ إليه المسلمون والعرب من الثقافة والعلم، مما يخرج تقريباً عن نطاق التصديق.

وليس لذلك شبه في تاريخ العالم كله، ويجب أن ندرك أن ذلك التطور الذي لا يكاد يصدق في العالم العربي، لم يبدأ إلا منذ القرن الثاني للهجرة، ويحاول نفر من المؤرخين أن يبخسوا قدر هذا الإنتاج العظيم بادعائهم أنه لم يكن فيه ابتكار ما. وبأن العرب لم يكونوا سوى مقلدين. إن هذا الحكم يكشف عن خطأ فادح. فمن بعض الوجوه ليس ثمة شيء يمكن أن يعد ابتكاراً صحيحاً أكثر من ذلك الظمأ الذي تملك على القادة العرب حواسهم في سبيل المعرفة على أننا لا نشك أن قسمًا من هذه المعرفة، احتاج إليه العرب حاجة مباشرة للإدارة والحكم، وأعظم الابتكارات العربية في الرياضيات والفلك شيئان: علم الحساب الجديد، وعلم الثلث الجديد.

(١٠) الشريعة الاسلامية

أما «الشريعة الإسلامية» فقد استطاعت أن تحصل على اعترافات بتقدير العلماء لها. فيقول العلّامة ساتنيلانا: أن في الفقه الإسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم المدني إن لم نقل أن فيه ما يكفي للإنسانية كلها.

ويرى العلّامة «فمبري» أن فقه الإسلام واسع إلى درجة أنني أقضي العجب كلما فكرت في أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لزمانكم وبلادكم. ويقول العلّامة الألماني: «كهلر» على أثر ظهور رسالة الدكتور: محمد فتحي في مذهب «الاعتساف» في استعمال الحق، والخروج عن حدود الحق في غير ما شرع له الحق قال: إن الألمان كانوا يتيـهون عجباً على غيرهم في ابتكار نظرية «الاعتساف»، والتشريع لها في الـقانون المدني الذي وضع ١٧٨٧. أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحي، وأفاض في شرح هذا المبدأ عند رجال التشريع الإسلامي، وأبان لنا أن رجال الفقه الإسلامي تكلموا فيه طويلاً ابتداء من القرن الثامن للميلاد. فإنه يجدر بالعلم القانوني الألماني أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعدة قرون، وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية.

ويقول العلّامة ليفي أولمان في مقدمة رسالة الاثبات للدكتور محمد صاق فهمي: أن في هذه الرسالة ما يكفي للاعتقاد بأن التشريع الإسلامي كافٍ (وحده) لأن يكون تشريعاً عامًّا، وعلى ضوء كتاب الدكتور صادق فهمي: يجب اعتبار الشريعة الإسلامية في المعاملات مصدراً حيًّا للقانون المصري، ومناطاً للحق في أدواره المختلفة.

ويقول الدكتور هوكنج أستاذ الفلسفة في جامعة هارفارد في كتابه:

روح السياسة العالمية: «إن سبيل تقدم الممالك الإسلامية ليس في اتخاذ الأساليب الغربية التي تدعي أن الدين ليس له أن يقول شيئاً في حياة الفرد اليومية. وعن القانون والنظم السماوية، وإنما يجب أن يجد المرء في الدين مصدراً للنمو والتقدم، وأحياناً يتساءل البعض عما إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة، وإصدار أحكام مستقلة تتفق، وما تتطلبه الحياة العصرية، فالجواب عن هذه المسألة هو أنّ في نظام الإسلام كل استعداد داخلي للنمو، لا بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيراً من النظم المماثلة، والصعوبة لم تكن في انعدام وسائل النمو والنهضة في الشرع الإسلامي، وإنما في انعدام الميل إلى استخدامها. وإني أشعر بكوني على حق. حين أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض.

ويقول العلاّمة هوتنر ندرون وريفي: أنه يوجد في الفقه الإسلامي جميع القواعد الجوهرية التي تتعلق بشريعة الحرب والسلم.

ويقول العلاّمة الكاثوليكي شيرل عميد كلية الحقوق في فينّا: أن محمداً الذي تفخر البشرية بانتسابه إليها. استطاع أن يأتي قبل بضعة عشر قرناً بتشريع سنكون نحن الأوروبيون أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي عام.

بعد هذا الاستعراض السريع للحقائق العشر نقول: لقد حرص النفوذ الغربي أن يحول دون الدعوة إلى الإسلام بأمرين:

الأول: عزل اللغة العربية في مختلف الأقطار التي احتلها وتجميدها. وإحلال لغته بدلاً منها وإعطائها فرصة النمو.

الثاني: إثارة عديد من الشبهات والشكوك حول الإسلام حتى يظل الإسلام دائماً في قفص الاتهام، وفي موضع الإيهام، وحتى يظل كتابه

ومفكروه مشغولون دائمًا بالذود عنه، والرد على ما يثار حوله. وفي موقف الدفاع لا موقف المبادءة. وبذلك لا تتاح الفرصة له، لكي يشق طريق الدعوة والتعريف، وكسب مناطق جديدة، وعقول جديدة. حيث يصدر ذلك عن تعصب، ولكنه يصدر عن إيمان أكيد. بأن الإنسانية لو عرفت الإسلام حق المعرفة لما اختارت لها سبيلاً غير سبيله. ولكن هذا العمل من أجل الدفاع عن الإسلام، أتاح لها فرصاً للكشف عن جوهر الإسلام، وإبراز خصائصه، ومكن للذين قرأوا ما وجه إليه من شبهات أن يجدوا ردوداً حاسمة لكل ما عرض لهم، وقد أتاحت هذه الفرصة تحقيق أمرين:

الأول ـ أن الإسلام قد كشف عن منهج في البحث غاية في الدقة والسماحة، بعيداً عن الغموض وبعيداً عن التعصب، وخالياً من عبارات القدح. أو كلمات الهجاء مع السماحة والأخوة الإنسانية.

الثاني ـ أنه هز عقول المفكرين المسلمين فأزال عنهم طابع الجمود، وحثهم على البحث والتقصي، وإبراز جوهر الإسلام في أسلوب جديد، ومنهج عصري، وكشف في نفس الوقت عن طابع الاجتهاد والتجديد، والحركة وقدرة الإسلام التي لا تتخلف عن الالتقاء بالحضارات والثقافات والامتزاج بها، وامتصاص خير ما تقدمه. ومن هنا استطاع جوهر الفكر الإسلامي العربي أن يبرز على حقيقته، بعد أن أزيحت عنه أغشية الجمود والتقليد التي فرضتها ظروف مرحلة «الضعف» التي مر بها الإسلام خلال القرون الأخيرة. وقد كان إبراز هذه القيم على وجهها الصحيح، قادراً أن يرد بعض خصوم الإسلام عن خطئهم،وأن يكسب إلى صفه كثيراً من طلاب المعرفة الخالصة لوجه الحق.

ومن هنا التقت الدعوة إلى الإسلام مع الدفاع عنه، وما زال سبيل الدفاع عن الإسلام في حاجة إلى مزيد من الجهد، بوصفه أحد سبل التعريف بالإسلام، والدعوة إليه، ذلك أن النفوذ الأجنبي، وحركات

التغريب والشعوبية النابعة من هذا النفوذ. ما زالت تواصل عملها في إثارة الشبهات، وإعادة ترديدها على نحو أو آخر.

* * *

والحق أنه لا يكفي أن نواجه هذه الشبهات بالرد عليها ودحضها على أسلوبنا ومنهجنا العربي الإسلامي، بل إنه كلما وجدت إجابات كتبها مفكرون منصفون من غير المسلمين كان ذلك أبعد أثراً في النفوس. وذلك لعدة أسباب.

أولاً : أن يكون قد شهد بالحق شاهد من أهل أولئك الخصوم.

ثانياً : إن كلمة الباحث المسلم هي كلمة «الضرورة» بينما كلمة الباحث غير المسلم إن خلصت فهي كلمة «الإنصاف».

ثالثاً : تتميز كلمة الباحث الأجنبي عن الإسلام بأنه خروج من النفس والعقائد الأصلية. إذ لا يمكن أن يدافع أحد عن غير دينه إلا بعد أن يكون قد قطع مرحلة طويلة في الدرس والتأمل، حتى يبلغ مرحلة اليقين بما يقول.

رابعاً : إن الكاتب الأجنبي الذي ولد في غير بيئة الإسلام، وارتبطت مفاهيمه بدين آخر وبيئة غير بيئة العرب، مع ما هو معروف من ارتضاع لبان كراهية الإسلام في أغلب ثقافات الأمم الغربية، يجعل للكلمة أهميتها.

خامساً : من أهم مميزات كلمة الكاتب الغربي أنه عاش حياة دينه ومجتمعه. ولذلك فإن كلمته إنما تصدر عن تجربة أصيلة. وعن مقارنة أكيدة، وعن تطلع صادق إلى مفهوم الإسلام.

سادساً : إن الكتابات المنصفة عن الإسلام إنما جاءت تلقائية، وبغير دافع مادي على الإطلاق.

سابعاً : ما زال كثير من الباحثين يطمئنون إلى كلمة الكاتب الغربي

ويرونها حجة في البحث. ودليلاً أكيداً على الحقيقة، وقد دفع هؤلاء المنصفون بعض كتابنا العرب إلى اكتشاف الحقيقة التي كانت بين أيديهم أصلاً من قبل، ولم ينبهوا إليها.

ثامناً : إن وجهة النظر الأخرى إذا كانت منصفة ربما تكون أكثر جرأة وحيوية من كلمة صاحب القضية، وفي الكلمات المعروضة هنا تقدير لا حدّ له لجوانب من الفكر العربي الإسلامي ما نزال نحن نتحاماها، ولا يكاد البعض يعرض لها بمثل هذا الإيمان، بينما يؤمن بها هؤلاء الكتاب.

هذا، ولا يمنع ذلك من الإشارة إلى أن هذا التيار الجديد في الفكر الغربي لإنصاف الإسلام ما زال ضعيفاً إزاء كتابات خصوم الإسلام من المبشرين وبعض المستشرقين، وكتاب الاستعمار والتغريب. ولكن من المعتقد أن يصبح يوماً مصدراً ثابتاً للضوء في مجال الحيرة التي تمر بها الإنسانية اليوم، وتتطلع من خلالها إلى نور جديد.

الباب الأول

القرآن وثيقة الاسلام الخالدة

لكل دين: نبي وكتاب. ودين الإسلام خاتم الأديان: أرسل الله به رسول الله محمداً، وأنزل عليه القرآن نبراساً لهذه الرسالة العالمية الخاتمة.

فالقرآن كتاب الله الخالد الذي أنزل منجمًا في اثنتين وعشرين سنة، واثنين وعشرين يوماً، تبتدىء من ليلة السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاد النبي ﷺ، حيث نزل عليه في غار حراء أول ما نزل من القرآن ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ سورة العلق. وتنتهي بتاسع ذي الحجة يوم الحج الأكبر من السنة الثالثة والستين من ميلاده ﷺ حيث نزلت آية الختام ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ سورة المائدة.

وقد انتظم القرآن الكريم منهج رسالة الإسلام: عقيدةً وعبادةً وتشريعاً وأخلاقاً. ورسم للإنسانية طريقها إلى الحق والعدل والحرية. على ذلك النمط الذي اختاره الحق تبارك وتعالى في أسلوب القرآن. وقد أحيط القرآن منذ نزوله بقدر كبير من التمييز والأفراد. حتى أن الرسول نهى عن أن يكتب حديثه حتى لا يختلط بالقرآن. وقد تم تدوين القرآن كاملاً بإشراف رسول الله، وتحت رقابته، فسلم من كل ما تعرضت له الكتب المقدسة.

نزل القرآن الكريم بلغة قريش، وهي أفصح لهجات العرب، وآيته البالغة أنه نزل بتراكيب لغة العرب. ولكنه جاء مخالفاً لكلامهم في الطريقة والمضمون وإن جانسها في المادة والتركيب. وهذا هو التحدي الذي واجههم، فلما عجزوا عن بلوغ مثاله آمنوا بأنه منزل من عند الله.

وأعظم آثار القرآن على اللغة العربية أنه حفظها من الضياع، وكفل لها الجدة وحرسها عبر الزمان، وكفل لها البقاء، وخاصة في أزمان الغزو، وأبان غلبة اللغات الفارسية والتركية، كما حفظ القرآن اللغة العربية من العجمة حين دخلت في الإسلام الأمم والشعوب، وحين اختلفت لهجات الأمم ظل الإسلام قادراً على حفظ وحدة اللغة العربية دون أن تتحول إلى لهجات إقليمية. ولقد أتاح القرآن للغة العربية أن تكون لغة الدين ولغة العلم. ولعل اللغة العربية هي اللغة السامية الوحيدة التي ظلّت على مدى أربعة عشر قرناً مرتبطة بمفاهيمها الأساسية دون أن يطرأ عليها أي تغيير. إذ ظلت محتفظة بأسسها من كل تبديل. ومن هنا فإن مقاصد القرآن الكريم ما زالت ـ وستظل ـ باقية حية على نفس الصورة التي أنزل بها الوحي.

ولذلك فمن الأهمية بمكان أن يبحث المفكرون الغربيون في تاريخ القرآن. وفي مضمونه وأن يحاول الكثير من خصوم الإسلام إثارة الشبهات والشكوك حوله. ومن الحق أيضاً أن يقال أن هناك من الباحثين من استطاع أن يهتدي إلى عظمة القرآن، وأن يقدره حق قدره، وأمامنا ثلاثة من المفكرين الغربيين الذين استطاعوا أن يتناولوا مباحث القرآن بشيء من الإنصاف يكشف عن تيار واضح دخل إلى الفكر الغربي وأثر فيه.

فالمعروف أن القرآن الكريم قد ترجم منذ أكثر من ستة قرون إلى اللغات الأوروبية المختلفة وأن ترجمته كانت تهدف إلى الكشف عن عقلية المسلمين وجوهر تفكيرهم، وكان يصاحب هذا العمل الكثير من التحيز

والخصومة، وقد مر هذا الدور وانتهى إلى دور آخر يتمثل في كتاب أتيح لهم أن يجدوا في أنفسهم القدرة على أن يقولوا الحقيقة.

وهذا «فيليب دي طرازي» في بحثه التاريخي عن القرآن الكريم يحاول الكشف عن عظمة القرآن الكريم، وتميزه دون سائر الكتب المنزلة الأخرى، ويرسم علاقته باللغة العربية وأثره فيها. وعنده ليس هناك كتاب عربي أثار همم العلماء والباحثين. مسلمين وغير مسلمين في جميع أنحاء العالم. كما أثارها القرآن منذ صدور الإسلام إلى اليوم.

يقول تناول كثير من الباحثين الغربيين والمستغربين والمستشرقين القرآن الكريم بالدراسة والبحث، وأجريت عشرات الدراسات حول تاريخه ومضمونه، كما أجريت ترجمته إلى عديد من اللغات، وقام البعض بتبويب آياته على أبواب وفنون. أما هذا البحث الذي نعرضه. فقد حاول كاتبه أن يكشف في وضوح عن عظمة هذا الكتاب في مجال كونه مصدر اللغة العالمية للمسلمين والعالم الإسلامي.

يقول «القرآن الكريم هو الكتاب الذي يقدسه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ويعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه أنزل على النبي (محمد بن عبد الله) وأنه آخر الكتب السماوية نزولاً، وسمي القرآن الكريم: كتاباً وفرقاناً على أساس ما ورد في سورة آل عمران. وقد ضبطه الخليفة عثمان. وكتب منه أربع نسخ بعث بها إلى الأمصار. وأمر الناس أن يجعلوها أساس مصاحفهم، ومن المقرر الثابت أن للقرآن فضلاً عظيمًا في تأليف شتات العرب. وجمع كلمتهم، مع الأمم المغلوبة المتباينة في لغاتها وأجناسها وأوطانها. فكون من مجموعها عنصراً جديداً مستقلاً. ومن المقرر أنه لولا القرآن لما انتشرت اللغة العربية الفصحى في الخافقين، ولولا القرآن لما أقبل ألوف الألوف من البشر على قراءة تلك اللغة، وكتابتها ودرسها والتعامل بها.

وعنده أن القرآن عزز الجامعة العربية، وصان عنصرها، وضمن سلامتها على توالي الزمان. ذلك أن الإسلام فرض كفاية على كل مسلم أن يدرسه ويجيد قراءته. قبل أي علم من العلوم البشرية. هكذا حفظ التفاهم بالعربية بين الشعوب الإسلامية وغيرها من الشعوب.

وما أن تقهقرت الدول العربية، وتقهقرت معها الحضارة الإسلامية القديمة. خيف أن تندثر لغة تلك الدول، وتندمج في لغة الشعوب المغلوبة على أمرها. ذلك أن اللغة العربية استعصت على نكبات الدهر ورسخت رسوخ الجبال الرواسي خلافاً لما انتاب لغات الأقوام الذين اندمجوا في العرب بعد الإسلام كـالـروم والسريان والأقباط والأنباط والصابئة واليهود وغيرهم من الدول والشعوب.

ويقول: ومن روائع تأثير القرآن أن أئمة المسلمين من غير العرب يرتلونه بلغته العربية ويحافظون على تجويده، ويشرحون أساليبه. وإذا أمعنا الفكرة في أولئك المسلمين غير العرب ألفيناهم منتشـرين في أغلب الأقطار شرقاً وغرباً. أعني في تركيا وإيران والكردستان وأفغانستان وبلوخستان. وفي روسيا والبلقان وجاوة والصين واليابان. وبعض أنحاء أوروبا وأمريكا واستراليا.

وتلك مزية انفرد بها القرآن دون سواه من الكتب المنزلة. فالتوراة مثلاً لا يقرؤها بلغتها العبرية إلا أحبار اليهود، ونفر ممن تفرغوا لدراستها. أما سائر اليهود. فإن كلا منهم لا يقرأ التوراة إلا بلغة سكان البلاد التي يعيش فيها.

وكذلك المسيحيون في أنحاء العالم بأسـره. فإنهم يقـرأون كتابهم الإنجيل مترجماً إلى اللغة الجارية الاستعمال لدى كل شعب. ومن هذا يتضح أن القرآن وحده هو الكتاب الذي جمع كلمة المسلمين على اختلاف مذاهبهم ولغاتهم وأوطـانهم، وأحدث انتشـاره تأثيـراً كبيراً في أخـلاق

الشعوب التي دانت بالإسلام وعقولها وآرائها وميولها.

ويرى طرازي أن الصفة القرآنية تتجلى دائمًا في كتاب الإسلام ومؤلفاتهم، حتى إذا كتبوا في موضوعات لا صلة لها بالدين، تشهد على ذلك مصنفاتهم في الفلاحة والفلك والهندسة والجبر والكيمياء والطب والفلسفة والتاريخ وغيره حتى الصرف والنحو.

وخلاصة القول عنده أن «القرآن» في لغته العربية البحتة له تأثير عميق، فقد حرص المسلمون بقوة القرآن الكريم، وما برحوا يحرصون على سنن الإسلام وفرائضه في كلياتها وجزئياتها، وأولوا غاية الاعتناء بضبط سوره وآياته وأجزائه وألفاظه وحروفه ونقاطه وحركاته وسكناته، وتوفروا على استقصاء حقائقه ومجازاته وتصاريحه وكناياته ودقائقه، كما أقبل فريق كبير من أئمة الإسلام وعلمائه ومفكريه في بلاد المشرق منذ العصور الغابرة على دراسة القرآن، وأمعنوا النظر فيه، وتعمقوا نواميسه وشرائعه. ثم كتبوا عنه الكثير في تصانيفهم وفتاويهم الشرعية، واتخذوه دستوراً في بعض القضايا والفرائض المدنية.

* * *

وقد تفرغ بعض كبار رجال الدين من النساطرة من إنشاء قوانين مدنية ملتهم من أحكام القرآن وسننه، وتصدى غير واحد من قدماء مؤرخي النساطرة لذكر القرآن وتأثيره في القبائل العربية، وفي الشعوب المجاورة لها، ولميخائيل الكبير بطريرك السريان (١٢٠٠ م) عدة أحكام مدنية استخلصها من القرآن الكريم. وعمل أبناء ملته بموجبها، وجاء بعده أبو الفرج بن العبري (١٢٨٦ م) فخلف فصولاً ممتعة في الشرائع والفرائض اقتبسها من القرآن الكريم، وخصص المؤرخ الرهاوي السرياني فصولاً جمة في مؤلفه (تاريخ الأزمنة) لذكر القرآن ونواميسه وأحكامه، ونبغ في الملتين اليهودية والقبطية طائفة معتبرة من الكتاب والأعلام.

هؤلاء الأعلام والكتاب تصدوا لدراسة القرآن الكريم في المشرق.
وإذا انتقلنا من الشرق إلى الغرب رأينا رهطاً من نوابغ المستشرقين ينافسون المسلمين في دراسة القرآن وشرحه وتحليله، ويعتنون بتدوين تواريخه، واكتناز مخطوطاته، ومن ذلك أن المستغرب بابا غاتيني الذي قام بطبع (القرآن) في مطبعة البندقية منذ القرن السادس عشر، ولم يقتصر علماء الاستشراق على طبع نصوص القرآن فقط. بل وضعوا تآليف ضافيه وافية في تفسيره وتعديد مزاياه.

ولسنا نعرف كتاباً عربياً آثار همم العلماء والباحثين في أربعة أقطار المسكونة، كما أثارها مصحف القرآن منذ صدور الإسلام إلى اليوم.

تلك حقيقة صادقة لا تفتقر إلى برهان يسندها أو حجة تدعمها، ولسنا نعرف كتاباً عربياً أثار هذه الهمم التي شملت المسلمين وغيرهم على السواء. فأكبوا على تلاوته، وبالغوا في دراسته، مثل القرآن.

١ ـ وفي بحث للكاتب الفرنسي مارسيل كابي قام بترجمته العلامة: فريد وجدي: يشهد الكاتب بأن القرآن كتاب موحى به، وأنه يفوق ما عرف من هذا النوع كثيراً «فإن العقيدة التي بثها تصلح أن ينعكس نورها على الحياة الاجتماعية. وهذا هو سر قوة الإسلام وسماحته ووحدته». وهو ينفذ إلى رأيه في وضوح فيقول: إن القرآن يحمل إلى الناس أصول العدالة في النظام الاجتماعي الذي يقوم بين الأفراد والجماعات. وهو ـ أي القرآن ـ يفرض على الجماعة حماية الأفراد. وهو بهذا الأسلوب يوافق في جوهره أحدث المناهج الاجتماعية العصرية.

ومن حق أن يقول مارسيل كابي: إن القرآن سبق المناهج الاجتماعية العصرية حين أقر أسلم الأنظمة وأصلحها لقيام الروابط بين الأفراد والجماعات.

ويتلفت كابي إلى ميزة الإسلام الكبرى فيقول: ليس في الإسلام رهبان، ولكن فيه شراح ومفسرون لكتابه، ثم يعود مرة أخرى إلى مفاهيم القرآن، كما استطاع أن يفهمها فيقول: نظم القرآن حياة كل فرد وحياة المجموع، ودعا إلى الحق والواجب، واحتفظ بالحب لله وحده.

ثم يقول: «إن القرآن لا يرى وجود طائفة موضوعة فوق الواجبات في المجتمع، وطائفة أخرى ملفوظة خارج دائرة الحقوق» وعندي أن هذا هو سر بقائه ونفاذه إلى اليوم، بالرغم من تقلبات التاريخ.

ثم يصور حياة المسلمين في ظل الروح الاجتماعية التي فرضها الإسلام على أهله فيقول: تأمل هذه الملايين من المسلمين تدعى خمس مرات في اليوم لأداء الصلاة، فيجيبون داعيها ويتوجهون صوب الكعبة، وينتظمون في صلاة واحدة، يركعون ويسجدون جميعاً على نحو واحد، ويدينون جميعاً بعقيدة واحدة وشريعة واحدة، معترفين جميعاً بالعقد الاجتماعي الذي يربطهم خلال هذه الحركة اليومية الهائلة يشعر كل واحد أنه تحت نظر الجميع، لأن حارس العقيدة والشريعة والعقد الاجتماعي هو الرأي العام في الإسلام. ثم يقول: أنه لا يوجد في العالم رأي عام له مثل هذا السلطان الذي يسري في المجال الأدبي والاجتماعي على حدّ سواء. فالإسلام ليس وقفاً على نظامه السياسي. ولكنه عقيدة وشريعة ووحدة اجتماعية.

٢ ـ أما الباحث الفرنسي. ل. أ. سيديو مؤلف كتاب «تاريخ العرب العام» فإنه حين يتناول في كتابه أثر القرآن في حياة المسلمين يصل إلى بعض الحقائق الجديرة بالتسجيل. فيقول: الحق أنك لا تستطيع أن تدعي أن محمداً ترك واحدة من الحقائق الكبرى دون أن يعلنها على رؤوس الأشهاد. والحق أنك لا تجد في القرآن من العقائد والمبادىء والشعائر ما هو غير منسجم مع ميول الأمة العربية.

ويحيط المسلمون القرآن بأعظم تقديس، فلا يفتحون المصحف إلا بعد الوضوء. ومن القرآن يستنبط المسلمون قسمًا كبيراً من عباداتهم، ويزين المسلمون جدار مساجدهم وأعلامهم ومبانيهم بالآيات، فتذكرهم بما هو واجب عليهم نحو الله، ونحو بني ملتهم، ونحو أنفسهم.

ويتسم الإسلام ببساطة هي مقتضى العجب، فقد بني الإسلام على قواعد خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان. ويشير سيديو إلى أن التوحيد هو أبرز مبادىء الإسلام، وإليه أشار القرآن في عديد من المواضع. وإليه دعا الرسول الناس، وإليه يرجع سبب سموّ الإسلام على جميع الأديان ويقول:

وقد أعلن محمد صحة كتب النصارى واليهود. وأشار إلى أن (القرآن) جاء متممًا لما تقدمه، ومحمد إذ كان رسول الله الخالق، بلغ أن الله لا ولد له. وإن إله الكون واحد. وأن الله مصدر كل قوة، وصحف القرآن توحي بمحبة شديدة لله. ويود محمد لو أن يجتذب الناس إلى عبادة خالق كل شيء بغير واسطة، فلم يأل جهداً في الدلالة على قدرته داعياً إلى النظر في عجائب الخلق.

ويرى سيديو أن مفهوم القدر في الإسلام مختلف عن مفهوم الجبرية. وأن ليس في القدر الإسلامي ما يميت شجاعة المسلم، أو يؤدي إلى فتور همته. فهذا القدر مرادف لسنة الكون التي تهيمن على جميع الناس، وتضع حدًّا لأعمالنا، ويرد على القائلين بأن القرآن ينكر حرية الإنسان وإرادته، وأنه يحصر الإنسان ضمن دائرة من عدم الاكتراث سلبية فيقول: ونحن لا نرى ذلك من الحق، ونرى أن القرآن الكريم يذهب إلى حرية الإنسان، وتأثير إرادته في عمل الخير والشر، ويجب أن نعترف بأن محمداً أثبت خلود الروح. ومن بؤس الحياة ألا يفكر الإنسان في المستقبل، ومبدأ المستقبل

من أقوم مبادىء الأخلاق. ومن مفاخر محمد أن أظهره قوياً أكثر مما أظهره أي مشروع آخر.

ويستطرد سيديو في الحديث عن فضائل القرآن «وفي القرآن حث كبير على الفضيلة خلا تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقي، وفي القرآن دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم. وفي القرآن مقت للعجب والغضب. وقد دعا القرآن في صراحة إلى تحريم الخمر والميسر. وعرض سيديو لموقف القرآن من المرأة وعارض الرأي القائل بأن ما تتسم به حياة المرأة في عصور الضعف التي مرت بالعالم الإسلامي هو: من أثر الإسلام. وأعلن سيديو أن الإسلام قد عالج مسألة تعدد الزوجات بحكمة بالغة. وقد كان عدد الزوجات قبل الإسلام لا حدّ له. وأشار إلى أن القرآن قد رفع شأن المرأة، وجعل حصة الأنثى في الميراث تعد نصف حصة الذكر. مع أن البنات كن لا يرثن في زمن الجاهلية. وإذا كان القرآن قد جعل الرجال قوّامين على النساء، فإنه قد أعطى للمرأة حق الرعاية والحماية على زوجها.

* * *

وأشار سيديو إلى عناية القرآن بالأبناء فقال: لا شيء أدعى لراحة النفس من عناية القرآن بالأولاد. فقد حرم عادة «الوأد» واهتم بحال اليتامى. وكان «محمد» يجد في ملاطفة صغار الأولاد أعظم لذةوأشار إلى أن الزواج في الإسلام لا تحوطه طقوس معقدة، ويكفي لإتمامه «إيجاب وقبول من الزوجين أمام شاهدين. وقال إن القرآن حرم الزواج من الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات». وأشار سيديو إلى أن الإسلام أحل الطلاق، ولكنه جعل ذلك مشروطاً ببعض القيود حتى يمكن الرجوع فيه عند الطيش والتهور ـ وجزاء الزنا صارم في القرآن. وللقرآن نصائح غالية في سورة النور. وقال: وأمر القرآن بأن تكتب العقود أمام

شهود. وأعلن فساد البيوع التي تتم بتغرير. وحظر الاحتكار، وحبس الأقوات، ولم ينظم القرآن صلات المسلمين بعضهم ببعض فقط. بل نظم صلاتهم بغير المسلمين.

ومما تقدم نرى أن القرآن أبصر كل شيء، وأنه لم يهمل أمراً دينياً أو مدنياً أو حربياً، وترى السلطة الروحية في قبضة رجل واحد، ولا ترى سلسلة مراتب ولا طوائف كهنوتية، ولا طبقات ذات امتيازات.

وعارض سيديو ما جاء في دعاوي بعض المؤرخين من أن القصص القرآنية مقتبسة من التوراة وقال إن منهج القرآن في عرض هذه القصص مختلف وبعيد عن طابع الاقتباس.

وأشار إلى أن القرآن كان عاملاً هامًّا في ربط جميع المسلمين بقاعدة مشتركة، وأنه وحدها تحت لواء واحد، وجعل بينها تضامناً قوياً، حملها على أن تقلع عما تعودته من الأثرة، وألزمها الامتثال لنظم واحدة عادلة، فنزع من صدورها الأحقاد، مما جعلها تتضافر على بناء حضارتها وقال: ومن هنا يبدو الاختلاف الواضح بين القرآن وبين التوراة التي أريد قياسها إليها، ودافع سيديو عن الرسول، وعن اتهام الغربيين له بالقسوة. وقال إن ذلك من التجني على حقائق التاريخ. فإن الرجل الذي ألغى عادة الثأر الموروثة الكريهة، وعادة وأد البنات الفظيعة لا يمكن أن يوصف بالقسوة فضلاً عن العفو الكريم الذي شمل به أعداءه بعد فتح مكة والرحمة التي حبا بها كثيراً من القبائل في الحروب

وقال: إن محمداً لم يسيء استعمال ما اتفق له من السلطان العظيم، ولم يأل جهداً في تقويم من يجور من أصحابه، وأنه رفض قتل الأسرى في بدر، وعفا عن قاتل حمزة، حينما حل وقت مجازاة بني قريظة ترك الحكم في مصيرهم لحليفهم القديم سعد بن أبي معاذ. وأنه لم يرفض

قط ما طلب إليه من اللطف والسماح، وأنه تبرأ مما صنع خالد حين أثخن في جذيمة.

وليس من الصواب ما ادعى بعض الكتاب من أن محمداً قد أصابته رجفة قبل معركة بدر، فما أكثر ما عرض في حياته للخطر انتصاراً لدعوته في عهده الأول بمكة، وهو لم ينفك عن القتال في واقعة أُحُدْ حتى بعد أن جرح جبينه وخده، وسقطت ثنيتاه، ووقع في حفرة عن ظهر فرسه. فقد حافظ على اعتدال دمه حتى بعد أن كب مرة أخرى على وجهه، فشقت وجنته بحلق مغفرة، فنفح بكلامه روح الشجاعة في أصحابه، فنجا بذلك من الموت، وهو قد أوجب النصر بصوته ومثاله في معركة (حنين) ومن الحق أن عرف العالم كيف يحيي قوة إرادته، ومتانة خلقه وفصاحته وعبقريته وبساطته. ومن يجهل أنه لم يعدل إلى آخر عمره عما يفرضه فقر البادية على سكانها من طراز حياة وشظف عيش، وهو لم ينتحل أوضاع الأمراء قط، مع ما ناله من غنى وجاه عريض.

* * *

وكان محمداً حليماً معتدلاً وكان يأتي بالفقراء إلى بيته ليقاسمهم طعامه. وكان يستقبل بلطف ورفق جميع من يودون سؤاله. وكان لا يضجر من طول الحديث، وكان لا يتكلم إلا قليلاً. فلا يتم ما يقول على كبرياء أو استعلاء، وقد دل محمد على أنه سياسي محنك.

٣ ـ ويقول المؤرخ إميل درمنجم في معرض حديثه عن القرآن الكريم في كتابه «حياة محمد» لا يزال القرآن معجزة محمد الوحيدة، فهو يثير إلى الآن ساكن من يتلوه، ولو لم يكن من الأتقياء العابدين، فأسلوبه المعجزة، وقوة أبحاثه لا تزال لغزاً، لقد كان محمد يتحدى الإنس والجن، أن يأتوا بمثله، وكان هذا التحدي أقوى دليل على صدق رسالته. وقد

أجمع معاصروه على أن ما في القرآن من تعاليم، ليست من صنع محمد. هذه التعاليم التي رقت عقول الملايين من البشر، ولا تزال ترقى كل يوم شعوباً متأخرة بإشرابها الحقائق الضرورية للذات البشـرية من الـوجهة الدينية والاجـتماعية والخلقية.

وفي مجال استعراض رأي المفكرين الغربيين المثقفين: نجد البحث يتطرق إلى علاقـة القرآن بـاللغة العـربية، وفي هـذا يتساءل الـدكتور ستنجاس.

* * *

ماذا كان مصير هذه اللغة العربية لو لم يكن القرآن؟.

ويجيب: نحن لا ننكر أن اللغة العربية انتجت قبل القرآن ألواناً عديدة من الشعر. هي غاية في الحسن والرقة. إلا أنها كانت كلها محفوظة في أذهان الناس، وغير مكتوبة. زد على ذلك أن الشعر ليس هو الأدب كله، وكان العرب منقسمين إلى قبائل متفرقة مختلفين فيـما بينهم. وفي ظروف طاحنة دائمًا مما أثر على كيانهم، وعلى ألسنتهم المختلفة، ولولا القرآن لذهبوا وذهب معهم لسانهم وشعرهم، ولكان للسائح المجازف مجال للبحث والمخـاطرة في سبيـل جمع مـا باد من هـذا الكنز وزال بسبب شحنائهم وقتالهم.

ولما جاء القرآن أبقى بطبيعته على هذا التراث، وأوجد من مختلف اللهجات العربية لغة موحدة مكتوبة هي لغة الأدب العربي إلى اليوم، وزاد على ما كان موجوداً من الشعر شيئاً كثيراً. وجعل له أساساً يرتكز عليه. بل إنه نظم الحياة الخاصة والعامة للمسلمين في صور كلها أدب وحكمة ونثر عذب لا يزال حتى يومنا هذا نبراساً للأدب العربي في أعلى صوره.

من خلال هذه النظرات المختلفة لعقول وأفكار غير عربية، ولا مسلمة، نجد ضوءاً جديداً يرسله القرآن الكريم في قلوب المتصلين به. حتى من غير قارئيه باللغة العربية: «لغة القرآن» فكيف لو أتيح لهم ذلك عن طريقها.

* * *



الباب الثاني

محمد رسول الله ﷺ



كانت حياة الرسول ﷺ مصدراً غنياً لدراسات عشرات الباحثين والمؤلفين والكتاب في كل اللغات. وقد حظيت بقدر بالغ من النظر في القرون الأخيرة، وواجهها كتاب الغرب على أنحاء مختلفة، ولكن عدداً كبيراً من المنصفين قد أفاضوا في التقدير والإعجاب. وفي مقدمتهم الكاتب توماس كارليل الذي كان من أوائل كتاب أوروبا الذين أنصفوا الإسلام والنبي «وقد عاش كارليل بين ١٧٩٥ - ١٨٨١» وألف كتابه الأبطال وعبادة الأبطال باللغة الفرنسية، وترجم على عدد كبير من اللغات. وقد تناول فيه عدداً من البطولات في مختلف الصور. واختار محمداً ﷺ لفصله الحافل «البطل في صورة نبي» وقد ترجم هذا الفصل عام ١٩١١ المرحوم محمد السباعي في مجلة البيان التي كان يصدرها الأستاذ عبد الرحمن محمد كما تناول رسول الله بالتقدير كثير من الباحثين في مقدمتهم: جوستاف لوبون، وإيتان دينيه، وإميل درمنجم، وكانت لبرناردشو، ولين بـول، وبوسورث سميث، ولامرتين، كلمات مضيئة في تقدير الرسول الكريم، وكذلك تناولته باحترام كبير الكاتبة الإنجليزية أني نيرنت.

أما «توماس كارليل» فإنه يبدأ من حيث انتهى سابقوه من خصوم الإسلام، فأنحى عليهم باللائمة وشك في أقوالهم، وعرض لما نسبوه - كذباً وبهتاناً - إلى الرسول الكريم بنقد منطقي منصف.

يقول: لقد أصبح من أكبر العار على أبناء عصره أن يصغوا إلى ما تردد من اتهامات كاذبة. وجاء الأوان لكي تحارب الأقلام المنصفة مثل هذه الافتراءات، وترد الحق في نصابه.

ويقول: إن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالهم: خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء. كذبة، وخدعة.

أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً. ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبـول. فما النـاس إلا بله ومجانـين، ومـا الحيـاة إلا سخف وعبث وأضلولة. كان الأولى بها ألا تخلق.

وعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات ألا يصدق شيئاً البتة من أقوال أولئك السفهاء، فإنها نتائج جيل كفر، وعصر جحـود وإلحاد، وهي دليل على خبث القلوب، وفساد الضمائر. وموت الأرواح في حياة الأبدان. ولعل العالم لم يرقط رأياً أكفر من هذا وألأم، وهل رأيتم معشر الإخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً عجيباً، والله أن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب، فهو إذا لم يكن عليمًا بخصائص الجير والجص والتراب، وما شاكل ذلك، فما ذلك الذي يبنيه بيتاً، وإنما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد، نعم وليس جديراً أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه، فينهدم فكأنه لم يكن، وإني لأعلم أن على المرء أن يسير في جميع أموره طبق قوانين الطبيعة، وإلا أبت أن تجيب طلبته، وتعطيه بغيته.

أما الرجـل الكبير خاصة، فإني أقول عنه يقيناً أنه من المحال أن

يكون كاذباً، فأنا أرى الصدق أساسه. وأساس كل ما به من فضـل ومحمدة.

* * *

وعندي أنه ما من رجل كبير «ميرابو أو نابليون أو بارنز أو كروميل» كفء للقيام بعمل ما، وإلا وكان الصدق والإخلاص وحب الخير أول باعثه على محاولة ما يحاول. أعني أنه رجل صادق النية، جاد مخلص قبل كل شيء.

بل أقول إن الإخلاص - أعني الإخلاص الحر العميق العظيم الكبير - هو أولى خواص الرجل العظيم كيفما كان، وإخلاص الرجل الكبير هو مما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه، كلا ولا يشعر به.

ولما شب محمد ﷺ، وترعرع صار يصحب عمه في أسفار تجارته. وفي الثامنة من عمره نراه فارساً مقاتلاً، يتبع عمه في الحروب، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذاك الذي حدث قبل هذا التاريخ ببضع سنين إلى مشارف الشام. إذ وجد الفتى نفسه هناك في عالم جديد إزاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جدًّا في نظره.

ولست أدري ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس «بحيرا» الذي يزعم أن أبا طالب ومحمداً سكنا معه في دار، ولا ماذا يتعلمه غلام في هذه السِّنّ الصغيرة من أي راهب ما. فإن محمداً لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشر من عمره، ولم يكن يعرف إلا لغته، ثم لا ننسى أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً.

* * *

وتظهر لي أن الحقيقة هي أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة، وكل ما أمكنه تعلمه هو عيشة الصحراء وأحوالها، وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينه، ويتلقّى بفؤاده من هذا الكون.

ويقول توماس كارليل أن بيان محمد وأحاديثه ليست مقتبسة من فكر إنسان آخر. فهو لم يغترف من مناهل غيره. وقد لوحظ عليه ذلك منذ كان شاباً مفكراً. وقد سماه رفقاؤه بالأمين، وإني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت، فإذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص، لا يتناول غرضاً إلا وقد أنار شبهته، وكشف ظلمته، وأبان حجته، وقد رأيناه طوال حياته رجلاً راسخ المبدأ، صارم العزم، بعيد الهمة، كريماً برًّا رؤوماً فاضلاً، رجلاً شديد الجد. مخلصاً. وهو مع ذلك سهل الجانب، لين العريكة، جم البشر والطلاقة حميد العشرة، حلو الإيناس.

ويدحض كارليل الزعم الباطل الذي يردده بعض كتاب الغرب من أنه قام بدعوته ابتغاء عرض الحياة، والسلطان ويقول: كلا وأيم الله. لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار. والفلوات المتوقد المقلتين العظيم النفس أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه. لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة، وبحقائق الأمور.

ولقد كان سر الوجود يسطع لعينيه، ولم يك هنالك من الأباطيل ما يحجب عنه، وأهم خصائص البطل، وأول صفاته وأخراها هي أن ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن. فقد سطعت لعينيه الحقيقة الهائلة: تضحية النفس في سبيل الله، وهذا أشرف ما نزل من السماء على نبي الأرض، نعم هو نور الله قد سطع في روح هذا الرجل. فأنار ظلماتها. ولا شك أن العلم والنفاذ إلى صميم الأمور، وجواهر الأشياء لسر من أغمض الأسرار.

ولقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف، فإذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه. فشدّ ما أخطأوا وجاروا فهم يقولون: «ما كان الدين لينتشر لولا السيف».

* * *

وأرى أن الحق ينشر نفسه، ولندع الحقائق تنشر نفسها وسلطانها، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها، لأنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم، وليس في طاقتها قط أن تفني ما هو خير منها. بل ما هو أحط وأدنى، فإنها حرب لا حكم فيها إلا للطبيعة ذاتها. وعلينا أن ننظر إلى ما كان من سرعة الإسلام إلى القلوب، وشدة امتزاجه بالنفوس، واختلاطه بالدماء والعروق، إذن لأيقنا أنه كان خيراً مما كان هناك. لقد جاء الإسلام على تلك الملل وإن حل فابتلعها. ويتطرق كارليل إلى نظرة منصفة للقرآن فيقول:

أما «القرآن» فإن فرط إعجاب المسلمين وقولهم بإعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة. هذا وإن لترجمته تذهب بأكثر جمال الصنعة، وحسن الصياغة. ولقد رآه العرب من المعجزات، وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه أحد لكتاب سماوي.

وقد زعم براديه وأمثاله أن «القرآن» طائفة من الأخاديع والتذاويق لفقها محمد لتكون إعذاراً له، وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته، ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال، فإني لأمقت كل من يرمي محمداً بمثل هذه الأكاذيب، وما كان ذو نظر صادق لا يرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل.

«والقرآن» لو تبصرون ما هو إلا جمرات ذاكيات، الإخلاص المحض الصراح يظهر لي أن فضيلة القرآن التي حببته إلى العربي المتوحش، وهي أولى فضائل الكتاب أيًا كان، وهي منشأ فضائل غيرها. بل لا شيء غيرها يمكنه أن يبعث للكتاب فضائل أخرى. ومن العجب أن نرى في القرآن عرقاً من الشعر يجري فيه من بدايته إلى نهايته، ثم يتخلله نظرات نافذات.

وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلمًا وعدواناً، وشد ما

نجير ونخطىء إذا حسبناه، ولا همّ له إلا قضاء مآربه من الملاذ. كلا. فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أيا كانت.

لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله. وكان طعامه عادة الخبز والماء. وأنهم ليذكرون أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده. فهل بعد هذا مكرمة ومفخرة، فحبذا محمداً من رجل خشن اللباس، خشن الطعام، متبتل في الله، قائم النهار، ساهر الليل، دائب في نشر دين الله غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو سلطان، غير متطلع إلى ذكر أو شهوة، كيفما كان رجل عظيم، وإلا فما كان ملاقياً من أولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراماً. وما كان يمكنه أن يقودهم ويعاشرهم ثلاثاً وعشرين حجة، وهم ملتفون به، يقاتلون بين يديه، ويجاهدون من حوله، وأيم الله بطل كبير، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا، وقد كانوا أطوع له من بنانه.

* * *

وظني أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد. قيصر من القياصرة، بتاجه وصولجانه لما كان مصيباً في طاعته، مقدراً لما ناله محمد في ثوبه المرقع بيده فكذلك تكون العظمة. وهكذا تكون الأبطال.

ثم يصور كارليل مشاعره الذاتية إزاء النبي ﷺ فيقول:

وإني لأحْب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع. ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقل الرأي، لا يعول إلا على نفسه، ولا يدعي ما ليس فيه، ولم يكن متكبراً. ولكنه لم يكن ذليلاً ضرعاً، فهو قائم في ثوبه المرقع، كما أوجده الله، وكما أراد. يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم، وقياصرة العجم، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة.

ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، وأيقظ به

من العرب هامدة، وأرضاها مدة. فإذا الخمول قد استحال شهرة. والغموض نباهة، والضعة رفعة، والضعف قوة، ووسع نوره الأنحاء، وعم ضوؤه الأرجاء، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب، والمشرق بالمغرب، وما هو إلا قرن بعد هذا ، حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند، ورجل في الأندلس، وأشرقت دولة الإسلام حقباً عديدة، ودهوراً مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة، ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة.

* * *

وكذلك الإيمان العظيم، وما زال للأمة رقي في درج الفضل، وتعريج إلى ذرى المجد، ألستم ترون كأنما وقعت شرارة على تلك الرمال، فإذا هي بارود سريع الانفجار. وإذا هي قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهي.

ولطالما قلت أن الرجل العظيم كالشهاب من السماء، وسائر الناس في إنتظاره كالحطب، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا.

وعلى كل حال فهذا الدين فيه للمبصرين أشرف معاني الروحانية وأعلاها، فاعرفوا له قدره، ولا تبخسوه حقه، وهو الدين القويم، والصراط المستقيم لخمس العالم، وما زال فوق ذلك ديناً يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم، ولا أحسب أن أمة من الأمم قد اعتصمت بدينها اعتصام المسلمين بإسلامهم. فهم يوقنون به كل اليقين، ويواجهون به الدهر والأبد.

وسينادي الحارس الليلة في شوارع القاهرة أحد المارة: من «السائر» فيجيبه السائر «لا إله إلا الله» وأن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن في آناء الليل وأطراف النهار في تلك الملايين الكثيفة.

أما الدكتورة آني بيزنت الكاتبة الإنجليزية فإنها قد اهتدت إلى عظمة الإسلام ورسوله حين راحت تقارن بين الأديان. وتراجع ما كتب عنها. وكانت آني بيزنت قد وقفت حياتها على دراسات العلم والفلسفة، وقامت بتأليف بضعة وعشرين مؤلفاً لها شهرة عالمية، وترجم بعضها إلى لغات عديدة، وتوفيت عام ١٩٣٣.

أما كتابها «الديانات الموجودة في الهند» فقد أفردت فيه فصلاً عن النبي محمد ﷺ تناولت فيه بالتحليل شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام تقول:

توجد أربع مسائل تجب دراستها في كل دين وهي:

١ ـ حياة مؤسسها الذي لا بد من أن تتطبع صورة روحه وأخلاقه عليها.

٢ ـ الناحية العامة لذلك الدين.

٣ ـ فلسفة الدين.

٤ ـ ناحيته القلبية، وهي مظهر الحاجة الخالدة للنفس البشرية التي لا تفتأ تنزع إلى الاتصال بمصدرها الأول، فلندرس الإسلام تحت ضوء هذه التقاسيم.

اتبعني أيها القارىء إلى سوريا وبلاد العرب في القرن السادس الميلادي، وانظر في حالة بلاد العرب الجميلة، وسورية. فإنك تجد الحرب الدينية يتأجج سعيرها في كل مكان، تهدم البلدان، وتفرق بين الناس. معارك وحشية دموية، وأحقاد تتوارث من جيل إلى جيل، غارسة بذور الشقاق بين الأجيال والقبائل والشعوب. وانظر إلى بلاد العرب. تلك البقعة التي تسود فيها وثنية وحشية قاسية تسمح بالتضحية بالنفوس البشرية لمرضاة الأوثان. حيث كان عباد الله يقيمون الولائم بأجساد الموتى. وحيث كانت الشهوات قد حلت محل الحب الإنساني، والإباحة محل الحياة البيتية، وحيث كانت الحروب الطاحنة التي لا تخمد نارها تشب لأتفه الأسباب،

وحيث كان الرجل يقتل قريبه، والجار يهلك جاره، حيث كانت الحياة على وجه الإجمال قد فسدت إلى حد لا يمكن أن يصفه الإنسان.

في معمان هذا السعير المحرق من الشهوات وسفك الدماء، والإباحة الحيوانية، والقسوة البهيمية، ولد طفل فاتحاً عينيه البريئتين للنور، وكان ذلك في **٢٩** أغسطس سنة **٥٧٠** في مدينة مكة من قبيلة قريش، وكان أبوه قد مات قبل ميلاده ببضعة أسابيع، ولحقت أمه بأبيه بعد بضع سنين، كبر هذا الطفل وترعرع في بيت جده هادىء النفس، كثير الصمت، ذا طبع جذاب لطيف، صبوراً، محبّباً إلى قلوب الناس، ولم تمض إلا بضع سنين حتى مات جده، فكفله عمه أبو طالب، وهو أنبل جميع أقاربه طبعاً وأحناهم عليه نفساً، كفله بعد أن ذاق مرارة اليتم مرتين. بل ثلاثاً، فلبث عند عمه حتى بلغ سنّ الشباب، فسافر إلى الشام لمزاولة الأعمال التجارية متأملاً في كل ما هو حوله من مشاهد بنظر ثاقب نفاذ، فلما بلغ الرابعة والعشرين سافر إلى الشام في تجارة «خديجة» ولما عاد وجدته من الأمانة والقناعة والطهر والاستقامة بحيث ارتضته زوجاً لها، ولم يكن محمد قد أوتي النبوة بعد، وقد سعدا بزواجهما، وعاشا معاً عيشة تعتبر مثلاً أعلى في هذه الحياة إلى اليوم الذي توفيت فيه خديجة تاركة زوجها في الخمسين من عمره.

كان محمداً إذا سار في طرقات مكة احتفت به الصبية، وتعلقوا بركبتيه، فكان يقابلهم بكلمات طيبة، وملاطفات تناسب طفولتهم، ولم يعهد عليه قط أنه أخلف وعداً أو تجهم فقيراً أو محزوناً، ولكنه كان عندها لهما من النصح ما يخفف ما بهما، وقد لقبه جيرانه بالأمين الجدير بالركون إليه، وهو أجمل لقب يمكن أن يحصل إنسان عليه.

وكان محمد يفزع إلى الصحراء، شهوراً تليها شهور، حتى بلغت خمسة عشر سنة، فكان يأوي إلى غارٍ في وسط الصحراء وحيداً ساكناً

متأملاً راجياً الله سائلاً نفسه عن معنى الرسالة التي يتوقعها. ويقول: وقد حدث ذات ليلة صافية الأديم. بينما كان مستلقياً على الأرض أن غشيه نور نزل إليه من السماء. وإذا بملك كريم واقف أمامه، وهو يقول: «قم إنك رسول الله» وأخذ الملك يلقنه ما يجب أن يعرفه من تكوين للعوالم، وخلق الإنسان، وتوحيد لله. ومن ثم أصبح هذا الرجل الذي كان أشد الناس اعتزالاً. أصبح مصدراً لحياة أمة برمتها.

وكانت زوجته أولى أتباعه ـ واستطاع أن يبني دولة مهيبة، ويحمل خلفاؤه إلى أوروبا «مشكاة العلم» بعد أن انطفأت فيها. ويقومون أمام الله بعبادة لم يعهد لها مثيل في أية دولة أخرى.

نعم، فإنه يجب عليكم معشر الذين لا يتبعون ديانة هذا النبي العربي أن تحققوا بأنه لا يوجد في جميع الديانات ديانة توحي إلى الآخذ بها عقيدة أبين صحة، وأعلق بنفس صاحبها من الديانة التي خرجت من فم النبي العربي.

ويقول: وإذا كان الأمر كما يقول الفيلسوف (تـين): أن العقيدة تثبت صحتها متمثلة في سيرة أهلها، فتأمل في اتباع محمد، وانظر كيف تتحكم أقواله إلى اليوم في أعمال الناس.

لا يوجد مسلم في الأرض يخجل من السجود في الصلاة، وانظر إلى أي مدى قهرت العبادة عند أتباعه كل خوف من الموت. إن مثل هذا الإيمان لا بد من أن يكون له مستقبل باهر في هذا العالم، ويجب أن يرفع هذا الإيمان إلى كل مكان أرفع من المكان الذي هو فيه اليوم.

مكث محمد يعمل ثلاث سنوات في هدوء، فلم يزد أتباعه بعد انقضائها على الثلاثين، فاضطر أن يعلن الدعوة لأول مرة. فتكلم عن «وحدة الله» ونعى على عادة القربان البشري، والانهماك في الشهوات،

فاجتمع إليه عدد آخر من الأشياع مأخوذين في تيار الكلمات التي تنبعث من شفتيه. ولكن بقدر ما أصبح كثير الأنصار أخذ الاضطهاد يشتد عليه، وشرعوا في تعذيب أصحابه بقسوة يكاد يكون من المحال أن يتحملها الجسم البشري. فكانوا يمزقون أجسامهم، ويطعنوهم بالرماح، ويلقون بهم على الرمضاء المحرقة، ثم يأمرونهم بأن يكفروا بالله ورسوله فيأبون، ويموتون وهم يقولون «لا إله إلا الله ـ محمد رسول الله».

وكان يوجد بين هؤلاء المضطهدين رجل قطعوا لحمه قطعة قطعة، فسألوه الذين يتولون تعذيبه وهم يضحكون. ألا تحب أن يكون محمد مكانك، وأن تكون أنت في دارك آمناً فيقول: الله شهيد على ما أقول، «أنا لا أحب أن أكون في بيتي، ومحمد تشوكه شوكة واحدة».

هذا مثال من الحب الذي كان يبثه محمد في قلوب الذين يموتون من أجله. أي صنف من صنوف الرجال كان محمد.

أما المصور الفرنسي العالمي (اتيان دينيه) الذي أسلم في الجزائر عام ١٩٢٧. وأعلن اعتناق الإسلام أمام جمهور كبير من الجزائريين والعلماء وأشهرهم على أنه اختار الإسلام ديناً قبل سنوات، ولم يجهر به إلا في ذلك اليوم. فقد ألف كتاباً ضخمًا باللغة الفرنسية أطلق عليه اسم المحمدية. وشاركه في إعداده صديقه العربي المسلم سليمان بن إبراهيم الجزائري. وقد ترجمه الدكتور عبد الحليم محمود إلى اللغة العربية. وقد تسمى هذا الفنان الفرنسي بعد إسلامه «ناصر الدين دينيه» وألف كتاباً آخر هو (أشعة من نور الإسلام) ترجمه العلّامة (راشد رستم) ولهذا الباحث نظرة صائبة في تقدير رسول الله وشمائله فيقول: إن دراسات المبتدعات التي دخلت في تاريخ النبي قد أتاحت لنا أن نكشف عن أنها كانت أحياناً وليدة كراهية شديدة للإسلام يصعب التوفيق بينها وبين العلم، كما أنها نظرية بحتة تسجل على مؤلفيها جهلاً عجيباً بعبادات العرب، وأنها على

تناقض بحيث ينسخ بعضها بعضاً. وأخيراً فإنهم غلوا في الخيال فيما يتعلق بالظواهر النفسية الشرقية، ليظهر بأجلى بيان صدق تلك الآثار المأخوذة بها.

والحق أننا نرى من بين جميع الأنبياء الذين أسسوا ديانات أن «محمداً» هو الوحيد الذي استطاع أن يستغني عن مدد الخوارق. والمعجزات المادية معتمداً فقط على بداهة رسالته ووضوحها، وعلى بلاغة القرآن الإلهية، وأن في استغناء محمد مدد الخوارق والمعجزات لأكبر معجزة على الإطلاق. ومع ذلك فقد أتى (محمد) بمعجزة، أنها المعجزة الوحيدة التي منحت، ولكنها معجزة أقضت مضاجع المشركين، وأعني بها (آيات القرآن).

إن معجزات الأنبياء الذين سبقوا محمداً ـ ﷺ ـ كانت في الواقع معجزات وقتية، وبالتالي كانت معرضة للنسيان السريع. بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية: «المعجزة الخالدة» ذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر. ومن اليسير على المؤمن في كل زمان ومكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله تعالى، وفي هذه المعجزة تجد التعليل الشافي للانتشار الذي أحرزه الإسلام، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوروبيون، لأنهم يجهلون القرآن الكريم، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة، فضلاً عن أنها غير دقيقة.

إن الجاذبية الساحرة التي يمتاز بها الكتاب الكريم عن أي كتاب آخر لا تحتاج منا نحن المسلمين إلى تعليل، ذلك لأننا نؤمن بأن القرآن الكريم كلام الله المنزل على رسوله ﷺ.

وقال العلّامة: اتيان دينيه: أن اللغة العربية (لغة القرآن) لا يوجد على ظهر البسيطة، ما يضارعها غنى وانسجاماً، وعن طريق هذه اللغة

خاطب القرآن الناس جميعاً، وأملى محمد ﷺ تعاليمه وأحاديثه بكل ما فيها من بلاغة.

ويقول استانلي لين بول: إن أسلوب القرآن ـ وقد عرفناه عن طريق الترجمات ـ قد هزّ نفوسنا، وأن كلماته العميقة قد أثارت فكرنا. وإذا كان أسلوب القرآن قد أحدث مثل هذا التأثير في نفوسنا ـ نحن الذين لسنا عرباً، ولا مسلمين ـ فماذا ترى تكون قوته وأثره في نفوس العرب. وهو الذي نزل بلغتهم، لا يستطيع أن يكون أحد لنفسه فكرة مقاربة. وإن كانت مصغرة، إلا أولئك المسافرون. حينما تتاح لهم الفرصة لمشاهدة التأثر الذي يمتلك قلوب قوم ينصتون إلى إمامهم في الصلاة. وهو يرتل الآيات المقدسة. لقد رأينا الإعراب فور وصولهم من أسفارهم المجهدة، وقد كستهم رمال الصحراء يتسابقون إلى المسجد يجذبهم إليه كالمغناطيس، صوت الإمام، لا يسمعون القرآن إلا وتمتلك قلوبهم انفعالات هائلة. هذه الآيات الخارقة، من المستحيل أن تصدر عن محمد، وأنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلي القدير الذي أملى تلك الآيات البينات.

ويقول: لقد حاول بعض كتاب الغرب الغض من قدر النبي، ولقد قضى كارليل في كتابه الأبطال على هذا التعصب الذميم، وتلك الحماقة العمياء. حين قال: أيستطيع رجل مخادع أن يؤسس ديناً. كلا وربيّ أن رجلاً مخادعاً لا يستطيع أن يقيم بيتاً من آجر.

وروى الكاتب كيف أن المشركين من أهل مكة عجزوا عن مقاومة الأثر القاهر الذي تحدِثه تلاوة القرآن في صفوفهم، فقرروا أن يمنعوا الناس عن الإنصات إلى الرسول، وهو يتلو الكتاب المنزل كعادته على باب الكعبة، كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم، لكي لا يسمعوا ترتيله، ولكن هل تدري ماذا كانت النتيجة الغريبة؟ لقد أحس هؤلاء الذين حرموا الإنصات إلى القرآن، أحسوا هم بالرغبة الملحة تعتمل في نفوسهم، فخرج

أبـو سفيان وأبـو جهل والأخنس من بيـوتهم، ليذهبـوا خفية إلى بيت الرسول. وهناك ألصقوا آذانهم بـالحائط. وراحـوا يستمعون إلى تـلاوة النبي، وشملهم ظلام الليل، فلم ير أحد منهم الآخر، ولكنهم في طريق عودتهم، عندما أشرق الفجر جمعهم وجهاً لوجه، فتلاوموا وقال كل منهم للآخر.

ـ لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في أنفسهم شيئاً!.

فقطعوا على أنفسهم عهداً غليظاً ألا يقدموا مرة أخرى على مثل هذه الحماقة.

ولكن ليلة الغد وليلة اليوم الذي تلاها شهدتا نفس الحادث، ونفس التراجع والتلاوم.

ويمضي إتيان دينيه في وصف رسول الله ﷺ فيقول: كان رسول الله وسطاً بين الطول والقصر، قوي الجسم، ضخم الرأس، أبيض مشرباً بحمرة، طيب الخلق، وكانت المعاني تتدفق غـزيرة من ألفاظه المحكمة الموجزة التي تعبر عن مراده خير تعبير. أما سحر بيانه فكان شيئاً إلهياً، يغزو القلب ويأسر اللب.

لا يقوى أحد عـلى مـقاومته، وكـان الرسـول لا يغـرقُ أبـداً في الضحك، فإذا اشتد به المرح حجب وجهه بيده، هادىء الخلق، حليم الطبع، لا تكبر فيه ولا خشونة، لا يدعو أحداً إلا أجابه، يحب الأطفال ويلاعبهم ويضمهم إلى صدره، سواء في ذلك الأشراف والعبيد، وكانت طبيعته محبةً وحناناً.

وكان إذا سمع بكاء طفل، وهو في صلاة الجماعة. أسرع في صلاته من أجل أن يسمح للأم بإسكات طفلها. وقد حرم أول ما حرم «وأد البنات»، تلك العادة القبيحة القاسية، ثم وضع حدًّا لتعدد الزوجات، ومن أحـاديثه: «أبغض الحـلال إلى الله الطلاق». وبفضـل تشريعـاتـه

أصبحت البنت البالغ تستشار قبل زواجها، وتمنح المرأة حق الطلاق إذا لم يوف الرجل بواجباته الزوجية، وأصبح المهر لا يعطى للأب بل للعروس نفسها، ومنح الرسول أيضاً المرأة حق الميراث، وحقها فيه نصف حق الذكر، ذلك لأن المرأة لا تدفع مهراً كالرجل: وليست مكلفة بحاجات البيت. وكان الرسول يحب الطيب لأن الطيب يكمل طهارة المؤمن، وكان محمد يتطيب بالمسك، ويحرق في بيته الصندل والكافور والمسك. ويدهن شعره بالدهون، ويقص لحيته وشاربه ويمشطها.

وكان له نمط من التألق غاية البساطة، ولكنه على جانب كبير من الذوق والجمال، وكان يحرم التغالي في الملبس، وعلى الخصوص لبس الحرير، وكان عدله ورحمته من الشمول بحيث يتناول الحيوان الأعجم، فضلاً عن الإنسان، وكان يقوم بأعماله بنفسه، يحلب شاته، ويخصف نعله، وكان يحمل بنفسه ما يشتريه من السوق.

والحق أن الإسلام الذي جاء به محمد ملائم لجميع الأجناس البشرية. فلم يكن العرب وحدهم هم الذين اتبعوا الإسلام. بل كان من ضمنهم من هو فارسي كسلمان، ومن النصارى كورقة، ومن اليهود كعبد الله بن سلام، ومن الأحباش كبلال، فدين محمد قد أكد من الساعات الأولى لظهوره. وفي حياة النبي أنه «دين عام صالح لكل زمان ومكان». وإذا كان صالحاً بالضرورة لكل جنس، كان صالحاً بالضرورة لكل عقل. إذ هو دين الفطرة، والفطرة لا تختلف في إنسان عن آخر، وهو لهذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة، وهو على ما فيه من تسامح، وبساطة سواء بالنظر لمذهب المعتزلة أو بالنسبة لمذهب المتصوفة، يؤدي للعالم هداية وتوفيقاً، سواء في ذلك الأوروبي المتحضر أو الزنجي الأسود، من غير أن يعوق حرية الفكر عند أحدهما، ثم يزيد على هذا بالنسبة للزنجي انتشاله من عبادة الأوثان، ثم هو لا يعوق الرجل العملي، الذي يرى حياته في

العمل ويعتبر الوقت من ذهب، ولا يعوق الرجل الصوفي والشرقي المتأمل في بدائع الصنع. فإذا ما دخل الإسلام في الحضارة الغربية بفضل اشتراكه العظيم في الحوادث، سيتضح سناه الحقيقي، وستعرف الأمم حقيقته التي حجبت زمناً، وسيمد الكل أيديهم لمحالفته، ولو نهض أتباع محمد لرجع لهم عزهم السالف، فصاروا أمة لا تعرف الجور، وتبوءوا مكانهم الذي يليق بمجدهم.

ويصور جورج برنارد شو: الرسول في كلمات واضحة الدلالة. وكان برنارد شو الفيلسوف الإيرلندي الأشهر قد طاف بالعالم بالإسلامي، واقترب شيئاً من دراسات الإسلام، وقد عبر عن رأيه في الإسلام.

يقول برنارد شو: لقد وضعت دائمًا دين محمد موضع الاعتبار السامي بسبب حيويته العظيمة فهو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنه حائز أهلية العيش لأطوار الحياة المختلفة، بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل زمان ومكان.

لا مشاحة في أن العالم يعلق أهمية كبيرة على نبوءات كبار الرجال. لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوروبا في الغد القريب. وقد بدأ يكون مقبولاً لديها اليوم. لقد صور أكليروس القرون الوسطى (الإسلام) بأحلك الألوان. إمّا بسبب الجهل أو التعصب. ولقد درست محمداً باعتباره رجلاً عظيمًا، فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح. بل يجب أن يدعى «منقذ الإنسانية» وإني لأعتقد أن رجلاً مثله لو تولى حكم العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم «السلام والسعادة» اللذين هو أشد الحاجة إليهما. وأشار برناردشو إلى التحول الواضح في الفكر الأوروبي عن طريق بعض المنصفين من الكتاب لقول كلمة الحق يقول:

ولقد أدرك في القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال كارليل.

وجوت، وجيبون «القيمة الذاتية» لدين محمد. وهكذا وجد تحول حسن في موقف أوروبا من الإسلام ـ ولكن أوروبا في القرن الراهن تقدمت في هذا السبيل كثيراً، فبدأت تعشق عقيدة محمد، وعنده أن أوروبا قد تذهب الأيام القادمة. إلى أبعد من ذلك، فتعرف بفائدة هذه العقيدة في حل مشاكلها بهذه الروح، يجب أن تفهموا نبوءتي.

وفي الوقت الحاضر دخل كثير من أبناء قومي من أهل أوروبا في دين محمد، حتى ليمكن أن يقال أن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ. لقد بدأت أوروبا الآن تتعشق الإسلام، ولن يمضي القرن الحادي والعشرون حتى تكون أوروبا قد بدأت تستعين به في حل مشاكلها.

يمتد الإسلام الآن من مراكش إلى أنقرة، ومن زنجبار إلى الصين، ويخطو في داخل إفريقيا خطوات كثيرة، وتعتنقه أمم كثيرة. وقد خطا بنفسه، وثبت قدمه في الكونغو التي صارت بلاداً إسلامية بأجمعها: أما في الهند فإن التمدن الغربي الذي كان يهدم أركان الوطنية، فإنه يمهد الطريق للإسلام لا غير. لقد أفاد الإسلام التمدن ونشر راية المساواة والأخوة. وهذه الأدلة نذكرها نقلاً عن تقارير الموظفين الإنجليز، وعما كتبه أغلب السياح عن النتائج الحسنة التي نتجت من الدين الإسلامي، وظهرت آياتها. فإنه عندما تدين به أمم من أمم إفريقيا تختفي من بينها في الحال عبادة الأوثان، وتحرم أكل لحم الإنسان، وقتل الرجال، ووأد الأطفال، وتضرب عن الكهانة، ويأخذ أهلها بأسباب الإصلاح، وحب الطهارة، واجتناب الخبائث والرجس، والسعي نحو إحراز المعالي، وشرف النفس، ويصبح عندهم قرى الضيف من الواجبات الدينية. أما الغلو في الحرية والجري وراء الشهوات، فلا تجيزه الشريعة الإسلامية، والإسلام هو الدين الذي يعمم النظام بين الورى، ويقمع النفس عن الهوى، ويحرم إراقة الدماء والقسوة في معاملة الحيوان والأرقاء ويوحي بالإنسانية، ويحض على

الخير، ويقول بالاعتدال، وإني لأعتقد أن رجلاً كمحمد لو تسلم زمام الحكم في العالم بأجمعه لتم النجاح في حكمه ولقاده إلى الخير، وحل مشاكله على وجه يكفل السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة.

* * *

أما الباحث الغربي بورسوث سميث: فإنه يصور في كلمات قليلة عظمة محمد ﷺ حين يقول: كان محمد في وقت واحد مؤسساً لأمة، ومقيمًا لامبراطورية، وبانياً لدين. وقد أتى بكتاب يحوي أدباً وقانوناً وأخلاقاً عامة، وهو كتاب يقدسه إلى يومنا هذا سدس مجموع الجنس البشري لأنه معجزة في دقة الأسلوب، وسمو الحكمة، وجلال الحق.

* * *

وفي كتاب بعنوان: محمد والدين المحمدي: بقلم لين بول يقول: إننا إذا رجعنا إلى التاريخ وحكمناه في هذه المسألة لتبين لنا أن القسوة لم تكن قط من أخلاق محمد. بدليل معاملته للأسرى بعد موقعة «بدر» وتسامحه مع أعدائه وصبره على أذاهم، وعطفه على الأطفال المرضى، وحقنه للدماء، وعفوه عن أولئك الذين قضوا في محاربته ثمانية عشر عاماً. ولما استتب له الأمر، وجاءه نصارى نجران اليمانيون لم يحاول قط أن يكرههم على اعتناق الإسلام، وأمنهم على أموالهم وأرواحهم، وأمر ألا يتعرض لهم أحد في معتقداتهم أو طقوسهم الدينية، بل أكثر من ذلك، لم يفرض عليهم أي ضريبة أو جزية.

يقول الشاعر لامرتين: أي رجل قيس بجميع المقاييس التي وضعت لوزن العظمة الإنسانية أعظم منه، أعظم من محمد، لو كان مقياس العظمة، هو إصلاح شعب متدهور. فمن ذا يتطاول إلى مكان محمد لقد سما بأمة متدهورة، ورفعها إلى قمة المجد، وجعلها مشعلاً للمدنيّة، ومورداً للعلم والعرفان. لو كان مقياس العظمة هو توحيد البشرية المفككة

الأوصال. فمن أجدر بهذه العظمة من «محمد» الذي جمع شمل العرب وجعلهم أمة واحدة، وامبراطورية شاسعة، لو كان مقياس العظمة هو إقامة حكم السماء في الأرض، فمن ذا الذي ينافس محمداً. وقد محا مظاهر الوثنية لتصبح عبادة الخالق وحده، لو كان مقياس العظمة هو الأثر الذي يخلده في النفوس على مرّ الأجيال، فها هو «محمد» يمجده مئات الملايين من الناس من مختلف البقاع مع تباين أوطانهم وألوانهم وطبقاتهم.

ويقول إميل درمنجم في كتابه حياة محمد: لا يزال القرآن وهو معجزة محمد الوحيدة يثير إلى الآن ساكن من يتلوه، ولو لم يكن من الأتقياء العابدين، فأسلوبه المعجز، وقوة أبحاثه لا تزال لغزاً. كان محمد يتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وكان هذا التحدي أقوى دليل على صدق رسالته، ولا يستطيع أحد يشك في إخلاص محمد. فحياة محمد شاهدة على الاعتقاد بصدقه في حمل أمانته الثقيلة ببطولة: وأن قوة إبداعه وعبقريته الواسعة وذكائه العظيم، وبصره النافذ، وقدرته على ضبط نفسه، وعزمه المكين، وحذره، وحسن تدبيره، وطراز عيشته كلها شاهدة على عظمته.

ويقول (واشنجطون أرفنج) أن حياة محمد تعتمد على الإخلاص، ولم يكن هناك ما يدفعه إلى خوض هذه المصاعب والعقبات التي صادفته منذ إعلان دعوته، لو لم يكن الإيمان الخالص لرب العالمين يملأ فراغ عقله وقلبه. ومن مظاهر عظمته تسامحه مع خصومه ومعارضيه. وهل وجدنا في تاريخ العالم تسامحاً كالذي رأيناه من هذا الرسول الكريم. لقد كان هذا التسامح سلاحاً فعالاً من أسلحة المسلمين، فقد أثرت سماحة النبي تسامحاً في نفوس العرب، فلانت قلوبهم، ورقت نفوسهم، فأقبلوا نحوه في نفوس آمنة، وقلوب واعية.

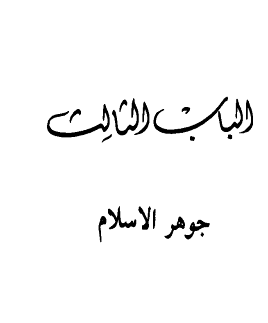
أما جنرال (ر. ف. بودلي) فيقول: لقد ظلت أخلاق محمد ثابتة لا

تتبدل أيا كان العمل الذي يعمله، سواء أكان يرعى غنمه في سكون البادية، أم يبيع عطوره أو أنماطه في الشام، ولم تتبدل أمانته، ولم يتغير صدقه، بل بقيت فضائله ثابتة على الأيام، وكان حاضر البديهة، عذب الحديث، معنياً بملابسه وهندامه، وما كان ثرثاراً، وإن كان صادق الترحاب بمن يقبل عليه.

ويقول الكونت ليون تولستوي: لا ريب أن هذا النبي من كبار المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام، ويكفيه فخراً أنه فتح لها طريق الرقي والتقدم.

ويقول (سير وليم ميور): أن من صفات محمد الجديرة بالتنويه: الرقة والاحترام اللذين يعامل بهما أتباعه حتى أقلهم شأناً. فالرقة والتواضع، وإنكار الذات والرأفة والأناة والسماحة والسخاء تغلغلت في نفسه فأحبه كل من حوله، وكان يكره أن يقول «لا» فإذا لم يتمكن من أن يجيب طالبه فضل السكوت.

ومن جماع هذه الكلمات التي أوردها كتاب غربيون في عديد من أبحاثهم ومقالاتهم يتكشف ذلك التيار الجديد الذي أشرنا إليه، والذي يفرض نفسه رغم كل ما يقوم به المبشرون، وكتاب الغرب المغرضون من كتابات مليئة بالشبهات. وعندنا أن هذا التيار سوف يعمق، وسوف يهدي الكثيرين إلى الخير والحق: إلى جوهر الإسلام.



جوهر الاسلام

تناولت عشرات الأبحاث التي كتبها المفكرون الغربيون «جوهر الإسلام» واستطاع كثير من المنصفين أن يصلوا إلى فهم عميق لروح الإسلام ومقاصده. وقد هدتهم إليها كتابات المسلمين والعرب التي ترجمت إلى اللغات الأوروبية المختلفة، وفي مقدمتها مؤلفات الأستاذ الشيخ محمد عبده، وما كتبه بالإنجليزية الكاتب الهندي المسلم: أمير علي، وخاصة كتابه الضخم «روح الإسلام».

وقد استطاع أغلب هؤلاء الكتاب المنصفين أن يصلوا إلى الحق، ويهتدوا بنور الرسالة عن طريق اقتناع وإنصاف من النفس دلهم عليه ما درسوه، وما قارنوا بينه وبين كتابات خصوم الإسلام، ولكن أغلب المنصفين كانت هدايتهم إلى الحق نتيجة لقربهم من أرض الإسلام.

وقد كانت رحلات بعض الباحثين الغربيين إلى المغرب والجزائر، وإلى القاهرة والجزيرة العربية عاملاً فعالاً في كشف الحقائق الخافية.

١ - وإميل درمنجم وهو في مقدمة الباحثين قد عرف باتصاله بالمسلمين في المغرب، واكتناه أسرار حياتهم، وهو صاحب كتاب: «حياة محمد». وكان قد بدأ بحثه بترجمة فصول درمنجم، ثم استقل بالبحث، وقد أصدر درمنجم كتابه هذا عام **١٩٢٩** في باريس. وأعجب به شباب العرب

ومثقفيه هناك، وكتب عنه الأستاذ أحمد عبد السلام بلافريج في مجلة الفتح وقال: إن درمنجم أقام بالمغرب أيام الحركة الوطنية بالريف «في المغرب الأقصى» مراسلاً لجريدة الأنفور ماسيون، فتعرف بالشباب العربي المسلم، وخالطهم. وقال: بلافريج أن درمنجم مسيحي، ولكنه معجب بالإسلام، وأن كتابه بالنسبة للغة التي ظهر فيها يحسب له حساب. ذلك أن أوروبا لم تعرف في الزمن الماضي، ولا الزمان الحاضر التي عمت فيه روح العلم والتحقيق إلا صورة للإسلام مشوهة كاذبة. ولهذا يعتقد أنه سيكون له أثر في تصحيح بعض ما كانوا يتخيلونه في سيرة النبي.

يقول درمنجم في بحث مستقل له تحت عنوان: «القيم الخالدة في الإسلام»: لكل حضارة أو دولة في التاريخ، بل لكل جنس أو مجتمع بشري «شخصية» متميزة بخواصها وصفاتها الملازمة.. وقيمة الأمة الإسلامية. ليست فقط في أثرها التاريخي، وهو تصفية تركة العالم القديم، وتغيير نظم الحكم على ضفاف البحر المتوسط، فتلك أمة في صميم تركيبها تشتمل على تعاليم ونظم ما زالت إلى يومنا هذا حية قوية. بل قد كتب لها الخلود. وحضارة الإسلام لا تحتقر الأمور الدنيوية، ولكنها تعتمد أيضاً على الروحية، وترمي إلى مثل أعلى رفيع، فهي تجمع بين الدين والدنيا، وهي لذلك بعيدة عن النفعية وعن الرهبانية على حد سواء، ورسالة «الإسلام» تطرق مسائل متنوعة خطيرة، فهي قد جاءتنا بدروس فذة في ميدان الحرية الفردية، وعلاقة الفرد بالمجتمع، ونظام الطبقات وفي العدل والمساواة بين القوى والضعيف والتسامح. حتى خلال شدائد الحرب، وفي الزهد وسط مغريات العصر والكرامة، والاباء عند الفقر والعوز، وهي فوق ذلك تعلم الفرد كيف يكون السموّ والطهارة في العبادة. وثبت في نفسه الإيمان بأن لا قيمة لشيء إذا قيس به «المطلق» وأن لا وجود لشيء إلا بمشاركته في هذا «المطلق».

وحينما يهتف المؤمن بقلبه، وليس فقط بلسانه «الله أكبر» فهو يهتف بالحرية الصحيحة الفعلية، وعبد الله لا يمكن أن يكون عبداً لكائن آخر، وبمقدار تفانيه في عبادة الله تكون حريته بالنسبة للغير. وهذا المبدأ الرفيع ليس فقط منبعاً للحرية الحقة. بل إن منه تتفرغ مبادىء الإخاء والمساواة. فالإسلام قد سوى بين بني الإنسان في إنسانيتهم، وآخى بين الرجال من كل الطبقات، وحقق احترام الأفراد بعضهم لبعض، مهما إختلفت أحوالهم، وتباينت ألوان معيشتهم. وبفضل عبادة الناس للإله المطلق أصبحوا مجتمعاً واحداً مترابطاً لا أفراداً يتفرقون شيعاً حسب الأهواء والعادات والنظم المختلفة.

وليس إذن لأمة أن تسيطر على أمة غيرها، وليس لجنس أن يتحكم في غيره من الأجناس، الكل سواسية أمام الله الذي خلق الإنسان على صورته، وجعل من البشر أهله.

فلا عجب أن يكتسب الإنسان من هذا التشابه، ومن هذه القرابة قيمة سامية في شخصية وكرامة ذاتية تحول بينه وبين الخضوع لكائن من كان.

وينتقل إميل درمنجم إلى الحديث عن تعاليم الإسلام فيقول: وفي العدل والرحمة تجد الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية تؤكد أن خير عمل للإنسان بعد الإيمان بالله. هو: أن يرحم أخاه في الإنسانية، وأن من أراد رحمة الله فليرحم غيره من الخلائق، والرحمة هي التي تشمل الكائنات كلها بما فيها الدواب، وما أبعد هذه النصائح السامية من مبادىء نيتشه أو ميكافيلي، أو أنصار «إرادة القوة».

إن تعاليم الإسلام لا تحمد عمل من يسعى إلى السيطرة والنفود، وتهزأ من هؤلاء الذين يظلمون الخلق يرون أنهم بذلك إنما يظلمون

أنفسهم. ومن الأحاديث المشهورة: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى». فالله قد أرسل رحمته إلى البشرية كلها. والناس جميعاً في هذه الرحمة سواسية كأسنان المشط، ويروى أن رجلاً قال يوماً لبلال: يا ابن السوداء، فلامه الرسول.

* * *

وأن نظم «الحرب» نفسها في تعاليم الإسلام لتخضع للقيم الإنسانية، ولمثل العدل والشرف. فالمفروض أن الحرب «جهاد» مقدس في سبيل الدين والحق. وبهذا التسامي على الأغراض الدنيئة، وضع الإسلام حدًّا لفوضى الحرب وآثامها، وفتوحات العرب الأولى تمتاز بجو من الرحمة والإنصاف. يختلف كل الاختلاف عن أجواء الحروب الأخرى في العصور القديمة والحديثة.

والنبي «محمد» في القرن السابع الميلادي: كان يعلم القبائل العربية البدائية. كيف تكون الحرب الصحيحة فيلقي عليهم بنصائح لم نسمعها قط من قائد قبله، فهو يوصيهم بتجنب السرقة أو الغش، وبالمحافظة على حياة الأطفال والنساء، والشيوخ، وبالإنصاف حتى بين الأعداء، وبعدم تخريب البيوت، أو نهب الحقول، أو قطع النخيل.

والخليفة الأول (أبو بكر الصديق) يأمر جنده باحترام العهود والوفاء بالمواثيق التي يعطونها للأعداء، ان هذه التعاليم الرفيعة جديرة حقًّا بالإعجاب، وخاصة إذا عَلِمنا كيف كانت الحرب بين بلدان الغرب في ذلك العصر.

ودعوة الناس إلى «الجهاد» تكثر في القرآن. ولكنها محددة بقوانين وقواعد صارمة واضحة ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾.

* * *

«والسلم» في الإسلام هو الحالة الطبيعية للإنسانية. بل هو خير الحالات، وليست الحرب في الحقيقة إلا جهاداً بسيطاً. إنها «الجهاد الأصغر» أما «الجهاد الأكبر» فهو «جهاد النفس». ذلك الجهاد المقدس العنيف الذي يقوم به الإنسان مستعيناً بسيف العزيمة لمقاومة أنانية النفس الأمّارة بالسوء، وللسيطرة على الرغبات الدنيئة، وللسمو بالروح نحو أرفع مراتب الكمال.

فما أبعد الشوط الذي قطعه الإسلام للوصول بالإنسانية إلى غايتها الصحيحة، وما أبعد الفرق بين تعاليمه الرحيمة، وبين ما سواه، ولن يجد الباحث بين مفكري الإسلام من بنى مذهباً له في السياسة، والحكم على دعامة غير العقل السليم والعدل.

ولقد وفق الإسلام بين الاتجاهين المتقابلين: المادي والروحي. وقال الرسول ﷺ: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» وفي القرآن الكريم ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ وأن حضارة تعتمد قبل كل شيء على القيم الروحية للإنسان لا يمكن أن يجرفها التيار المادي البحت، وكان محمد عليه السلام كثيراً ما يقول لأصحابه أنه يخشى عليهم الغنى والإسراف. وأن المال لا شيء يطهره سوى الزكاة. ثم الإنفاق لوجه الخير والزكاة. وهي ركن من أركان الإسلام الخمسة، وتمثل نظاماً طيباً للتعاون. «والإسلام يفرض للفقير حقاً معلوماً في مال الغني».

٢ ـ وننتقل من إميل درمنجم إلى (إتيان دينيه) والفرق بينهما أن الأول يتحدث عن الإسلام حديث الاعجاب. أما الثاني: فإنه يتحدث عنه حديث معرفة عميقة دفعته أن يتخطى كل الأوضاع، وأن يعتنق الإسلام. وقد خصص كتابه «أشعة خاصة بنور الإسلام» في سبيل تصوير مفهومه للإسلام: يقول: الشخصية التي حملها محمد عليه السلام كانت

خارقة للعادة، وذات أثر عظيم جدًّا حتى أنها طبعت شريعته بطابع قوي جعل لها روح الإبداع. وأعطاها صفة الشيء الجديد.

إن للإسلام عقيدة التوحيد الإلهية العليا، وله تلك المبادىء السامية الذي لم يعتمد في إتمام رسالته على المعجزات، جاء بذلك الدين الحنيف الذي لم ينفك يزداد أنصاره كل يوم منذ ثلاثة عشر قرناً. وقد حرص محمد على ألا تنسب إليه المعجزات غير «القرآن» حتى أنه لما مات ابنه إبراهيم حزن عليه، وحدث أن كسفت الشمس ساعة دفنه. فقال الذين من حوله إنها لمعجزة يا محمد. فقد شاركتك الشمس في حزنك على ولدك. فقال النبي: «إن الشمس والقمر آيتـان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته».

وأن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يأمر بالرفق والإحسـان في الدين، والمسلمون يحملون لعيسى في نفوسهم التبجيل والتعظيم. وقد رفع محمد قدر العلم إلى أعظم الدرجات. وأعلى المراتب، وجعله من أول واجبات المسلم ويقول: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهـداء» «وفضل العلم خير من فضل العبادة». وقد أحس محمد بالأثر السيء الشديد للخمر في النفوس، فحاربه حتى حرمه تحريماً تامًّا. وذلك هو الداء الفتاك في عصرنا الحاضر. «والوسيلة» هي إحدى كبريات المسائل التي فاق بها الإسلام جميـع الأديان. إذ ليس بـين الله وعبده وسيط. وليس في الإسلام وسطاء. وقد حرم الإسلام نظام القداسة، ومحا الولاية. فنفى بذلك الخرافات الضارة، وأزال آثارها ونتائجها. وليس للمسلم أن يدعو الرسول. وإنما له أن يدعو الله وحده لا شريك له. وقد يكون للمسلم أن يـدعو الله للرسـول، ولكن لا يدعـو الرسـول لله ولا لذاتـه. والدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكـلاً بشريـاً، ولم يجرؤ مصور أو نحات أن تجري ريشته، أو ينحته إزميل. ذلك لأن «الله»

لم تكن له صورة محصورة. وهو الواحد الأحد. الفرد الصمد، لم يكن له كفواً أحد. وأبرز معالم الإسلام.

(١)
علو الهمة

ولما كانت الشريعة الغراء قد ساوت بين الناس، ولما كان لا بد للناس من مراتب لم تجعل لأحد منهم فضل على أحد إلا بعلو الهمة في مكارم الأخلاق.

(٢)
المساواة

لقد حقق الإسلام نظرية المساواة بين هذه القبائل والشعوب. وهي النظرية التي لم تأت أخيراً إلا على يد الثورة الفرنسية.

(٣)
الفروسية

إن الفروسية ونبالة مقصدها لم يكن يعرفها الأقدمون من اليونان والرومان. ولكنها كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام، ثم هذبها الإسلام وطهرها تطهيراً. وعلى يده دخلت أوروبا ووصلت إلينا نحن الغربيين، ولم يبق أحد ينكر نسبتها إلى المسلمين والعرب، وقد ذكر العالم المسيحي المتدين (بارتلي سان هيلار) في سياق حديثه عن القرآن: «أن العرب هم الذين يرجع إليهم الفضل على سادات أوروبا وفرسانها في

القرون الوسطى في تعديل عاداتهم الخشنة، وتلطيفها، ثم تعليمهم رقة العاطفة، وتهذيب نفوسهم، والرفعة بها إلى حيث الإنسانية والنبالة. وكل ذلك دون أن يصيبهم ضعف يفقد من فروسيتهم شيئاً» وقد حفظ التاريخ في سجلاته عن فروسية المسلمين وروحها العالية جميع أدلة العظمة الموشاة بالرقة والتهذيب.

(٤)
مسايرة الطبيعة

لا يتمرد الإنسان على الطبيعة التي تغلب، وإنما هو يساير قوانينها، ويزامل أزمانها. وليس يكفي الإسلام أن يساير الطبيعة. إنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولاً. وأسهل تطبيقاً في إصلاح ونظام ورضا ميسور والأمثلة عديدة لا تعوزنا.

(٥)
لغة القرآن

لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية، أن تقوم بها، أنه مكن اللغة العربية في الأرض بحيث لو عاد أصحاب الرسول إلينا اليوم لكان ميسوراً أن نتفاهم تمام التفاهم مع أهل اللغة العربية. وهذا عكس ما يجد مثلاً أحد معاصري (رابليه) من أهل القرن الخامس عشر الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن من الصعوبة في مخاطبة العدد الأكبر من فرنسيّي اليوم. وأن لغة القرآن الكريم وإن كانت تمت في أصولها إلى عصور بعيدة قديمة، فهي مرنة طيعة تسع التعبير عن كل ما يجد من المكتشفات والمخترعات الحديثة دون أن تفقد شيئاً من رونقها وسلامتها.

(٦)
بساطة الصلاة والنظافة

إن الحركات والإشارات في الصلاة الإسلامية هما ذات بساطة ولطافة، ونبالة لم يسبق لها مثيل من نوعها في صلاة غيرها. كما أنها لا تدعو الوجوه بالتظاهر والتكلف حقا. وأن الصلاة الإسلامية خالية من تلك الأمور الشائنة، وهي ذات دلالة على الرزانة والهدوء والاطمئنان، وهي خالية من مبالغات الورع وتكلفات الخضوع والتظاهر بذلك وهي فضلاً عن ذلك تقدم للجسم أعظم مزايا الحركات الرياضية. أضف إلى ذلك حكمة الوضوء الذي يسبق كل صلاة، ففيها للبدن انتعاش صحة ونظافة، والنظافة من الإيمان.

ويتميز الإسلام في الدعوة إلى الصلاة بأن الإنسان هو الذي يدعو إخوانه إلى تأدية هذه الفريضة. وأن صوت الإنسان صوت طبيعي، وهو أدعى إلى حمل العاطفة الإنسانية الصادرة من قلب المؤمن إلى إخوانه المؤمنين للقيام بأهم أركان الإسلام.

(٧)
طابع الإسلام

إن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة في سبيل التفكير، فقد يكون المرء صحيح الإسلام، وفي الوقت نفسه حر الفكر، أو لا تقتضي حرية الفكر أن يكون المرء منكراً، وكما أن الإسلام منذ نشأته هو لجميع الشعوب، والأجناس، فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات، وجميع درجات المدنيات، وللإسلام على النفوس طابع لا يمحى، فهو يهيج في نفس الرجل العملي في أسواق لندن، حيث مبدأ القوم (الوقت من ذهب) إذ هو

يأخذ بلب الفيلسوف الروحاني، وكما يتقبله عن رضى ذلك الشرقي ذو التأملات، ورب الخيال. إذ يهواه ذلك الغربي الذي أفناه الفن وتملكه الشعر، وهو الدين الذي ليس له مرتدون. هذا ولو أردنا أن نعرف الأثر الحقيقي والطابع الكبير للإسلام على الأفئدة والنفوس أوجب دراسة القرآن دراسة تحليلية حتى يظهر قدر العظمة والتأمل في روح العقيدة الإسلامية فيما يتعلق بالله سبحانه وتعالى.

* * *

وبعد فهذه محاولة لتقديم عصارة موجزة لرسالة مسيو إيتان دينيه من أكبر رجال أهل الفن والتصوير الفرنسيين، وصاحب اللوحات النفيسة القيمة التى تزدان بها جدران المتاحف الفرنسية الكبرى، وله في متحف لوكسمبرج بباريس عدة صور منها: الصورة المشهورة باسم (فداء وغداة رمضان). وكان قد درس الإسلام واعتنقه عام ١٩٢٧ - وسمى نفسه ناصر، وله عدة مؤلفات منها: حياة العرب - وحياة الصحراء - وكتاب الشرق كما يراه الغرب. ومن أهم كتبه تاريخ الرسول، وضعه بالفرنسية، وزينه بالصور الملونة الرائعة من ريشته الخاصة، وقدمه لأرواح الجنود الإسلامية التي استشهدت في الحرب الكبرى. وقد توفي إلى رحمة الله في الأعوام الأخيرة، وقام بترجمة بعض آثاره: راشد رستم. ومن بينها رسالة (أشعة خاصة بنور الإسلام). التي قدمنا خلاصة لها في هذا الفصل القصير، والذي بدأه بقوله: «إن الشخصية التي حملها بين برديه كانت خارقة للعادة. وكانت ذات أثر عظيم جدًّا حتى أنها طبعت شريعته بطابع قوي جعل لها روح الإبداع، وأعطاها صفة الشيء الجديد. وتلك هي الأمة الإسلامية على اختلاف أجناسها وبلدانها قد طبعها الإسلام بطابعه الواضح المحسوس. بل ان آثاره لا تزال باقية في أهل إسبانيا وإن كانوا قد ارتدوا عنه منذ خمسة قرون.

٣ ـ أما الدكتورة (لورا فنيشيا فاليري) الكاتبة الإيطالية، وأستاذة اللغة العربية، وتاريخ الحضارة الإسلامية في جامعة نابولي بإيطاليا، فإنها تتميز في عرضها للإسلام بطابع مختلف، فهي مثقفة دفعها إيمانها بتحرير الأبحاث الدينية إلى مراجعة ما كتب عن الإسلام في المراجع الموجودة في جامعة نابولي. فلما لم تجد ما يشفي غلتها أو يدلها على الحقيقة، تطلعت إلى مؤلفات المسلمين باللغة العربية، فاستحضرت مؤلفات الغزالي وابن تيمية ومحمد عبده، ولم تلبث أن كتبت بحثاً مطولاً تحت عنوان (محاسن الإسلام) ترجمه في أوائل الثلاثينات (طه فوزي) بمحكمة استئناف مصر عام ١٩٣٤ ـ ثم أعاد ترجمته تحت عنوان آخر هو: «دفاع عن الإسلام»: منير البعلبكي وطبعه في لبنان عام ١٩٦١ ـ والكتاب يروي قصة إيمان حقيقي للكاتبة بالإسلام. وقد لقيت الكاتبة ـ كما تروي في تضاعيف كتابها ـ متاعب جمة من جراء التصريح برأيها في الإسلام من بعض الدوائر الثقافية الغربية. ويبدو في عرضها طابع الشاعرية التي تتسم به كتابات المرأة ذات الثقافة اللاتينية تقول:

تفجر ينبوع ماء سلس عذب منعش في وادٍ غير ذي زرع. ذلك الينبوع هو: (الإسلام) الذي تدفق بغزارة، واتخذ سبيله في الأرض سرباً. فكان نهيراً استحال بعده إلى نهر عظيم سرعان ما تفرّعت منه آلاف الجداول والأنهار التي تغلغلت في البلاد طولاً وعرضاً، ولم يلبث الناس أن تذوقوا هذا الشراب العجيب، وشفوا منه أمراضهم الاجتماعية، واستحال هذا الماء المقدس سيلاً جارفاً اكتسح بقوته الساحرة بلاداً عظيمة، فتغلب عليها واكتسحها اكتساحاً وأيقظ بصيحته العقول الغافلة التي كانت تغط في سبات عميق. وتقول:

لم يشهد التاريخ حدثاً مماثلاً لهذا الحادث الخطير، لأن السرعة العظيمة التي أتم بها (الإسلام) فتوحاته كان لها أبلغ الأثر في حياته. إذ

أصبح ديناً لعـدة ملايـين من الناس ـ ليت شعـري كيف تأتى لهؤلاء المجاهدين غير المدربين أن ينتصروا على شعوب تفوقهم مدنيـة وثروة. ويزيدون عليهم دربة ومراساً للحروب، وكيف استـطاعوا أن يبسـطوا سلطانهم على بلاد متسعة الأرجاء، وأن يحتفظوا بفتوحاتهم هذه، ويوطدوا هذا الصرح الضخم الذي ثبت أمام حـروب شديـدة استمرت قـروناً عديدة. فلم تقو على هدمه ونقض بنيانه الشامخ المتين، وكيف أمكن هذا الدين أن يوطد في نفوس أولئك المهتدين به أقوى الأسس. وكيف تسنى له أن يحتفظ بحيويته العظيمة التي لم تعرف مثلها ديانة أخرى من قبل حتى بعد ثلاثة عشر قـرناً خلت من حياة مؤسسه، وتقول:

بعد أن زالت مدنيّتا الدولتـين: الفارسيـة والرومـانية، وتهـدمت ديانتيهما سرى في عروق الشعوب تيار جديد، وانتشرت بينها ديانة جديدة بسيطة تتحدث إلى العقل وإلى القلب معاً كما ظهر نظام جديد للحكم يفضل كثيراً تلك النظم التي كانت متبعة هناك في ذلك الوقت. نظراً لمبادئه الخلقية الكريمة. كذلك انتقل المال المحبوس في خزائن الأشراف إلى أيدي الفقراء وعامة الشعب. وأخذت تتناوله الأيدي مرة ثانية، وتستفيد من ثمراته. وبعد أن هدأت الفتوحات. بدأ عهد جديد عهد نجاح وثراء لم تره القارة الآسيوية منذ قرون بعيدة. كما أن مختلف الطوائف كانت تجد في حكامها الجدد كل ضمـان لطمـأنينتهم، ويتمتعون بكـافة حقـوقهم المشروعة ـ كما أن أرواحهم وأملاكهم كانت مكفولـة. وبالجملة كـانوا يعاملون معاملة إخوانهم المسلمين سواء بسواء.

* * *

أما الذين دهشوا لهذا الانقلاب الاجتماعي الديني السياسي فإنهم لم يدركوا أن القوة الإلهية هي التي أعطت الإشارة الأولى لهذه الحركة الواسعة النطاق، ولم يشاءوا أن يصدقوا أن الحكمة الإلهية هي التي اقتضت أن

يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وسجلت له إلى الآن رسالة عامة إلى الناس أجمعين بغير تمييز بين جنس وجنس، أو بين بلد وبلد.

ولقد كان محمد كثير التسامح، وبخاصة مع أهل الكتاب، كما أنه أخذ غير المسلمين بالكثير من الصبر والأناة، لأنه كان يتوقع هدايتهم مع الزمن، وكما كان النبي يعقد المعاهدات مع خصومه المغلوبين على أمرهم. فكذلك فعل الخلفاء، ولما كانت تعاليم النبي وخلفائه الأوائل تعتبر بمثابة قانون للمسلمين، فإنه يمكن القول بحق أن الإسلام لم يقتصر على التوصية بالتسامح. بل إنه قد أدمجها في قانونه السماوي بحيث صارت قاعدة أصيلة من أصول الدين.

وتقول: ولقد كان محمد ـ كرسول يدعو إلى الله ـ رجلاً رحيمًا لين الجانب حتى لأعدائه الشخصيين. وبذلك اجتمعت فيه فضيلتان كلتاهما أكبر الفضائل التي يتصورها العقل البشري، وهما «الرحمة والعدل». وقد انهدمت الوثنية بفضل الإسلام، وتحررت المدارك، ونشطت العقائد، وخلصت الحياة الاجتماعية من مظاهر الوحشية، وانقشعت الأوهام التي كانت تسيطر على النفوس وبخلوص النفس البشرية من أوهامها تحررت إرادة الإنسان من الروابط التي كانت تقيدها بإرادة الآخرين، أو بسلطات خفية، وسقط كل الذين كانوا يزعمون لأنفسهم الوساطة بين المرء وربه، فصار الإنسان بفضل الإسلام عبداً لإله واحد، وصار الناس سواسية كأسنان المشط، ورفع الإنسان النقاب الذي أسدل من قبل عن الكتب المقدسة للحيلولة دون فهمها، ولم يعترف الإسلام لكائن من كان من أتباعه بحق الحكم على إيمان أحد من إخوانه في الدين، وإذا كان أتباع المذاهب المختلفة في الأزمنة السابقة. قد اتهم بعضهم بعضاً. فإن الإمام الغزالي حجة الإسلام أعلن في الإسلام المذهب القائل: بأن الإجماع على العقائد الأساسية للدين هو أساس الاعتراف بإيمان الناس. وبأن

الاختلافات حول التفاصيل في الاعتقاد والمذاهب لا يؤدي إلى المروق من الدين. وفي صدر نظرية العدالة الإلٰهية يؤكد القرآن في غير موضع أن أعمال الإنسان سواء كانت طيبة أم سيئة، هي مما كسبت يداه «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى» ولن يغلق الله الباب في وجه واحد من عباده، حتى الأشرار منهم. بل يسر لهم المقدرة والكفاية لعمل الخير، وأن رحمة الله هي إحدى المسائل التي تكرر ذكرها في القرآن، وأن تسميته بالرحمن التي تبدأ بها كل سورة من سور القرآن، لتدل دلالة واضحة على أهمية هذه المسألة.

وتقول: على أن المعجزة التي تفوق كل المعجزات، والتي وصلت إلينا أخبارها من مصادر غير مشكوك في صحتها. فهي (القرآن) فإنه كتاب لا يستطيع إنسان أن يأتي بمثله. إذ أن كل عبارة من عباراته منسقة متزنة. مشتملة على معانٍ كثيرة سهلة المأخذ، فلا هي كثيرة الإيجاز، ولا هي بالغة حدّ الإسهاب والإطالة، ولما كان أسلوب (القرآن) فريداً في بابه، ولم يكن له مثيل سابق في الأدب العربي، فإنه يقع من النفس البشرية موقعاً صحيحاً لا تصنع فيه ولا افتراء ولا تمويه ولا استكراه. إذ أن آياته كلها على جانب عظيم من الفصاحة، حتى ما كان منها خاصًّا بالأوامر والنواهي التي يجب منطقيًّا أن تكون في أسلوب هادىء، كما أن سير الأنبياء، وأوصاف بدء الخلق ونهايته، والأحكام وخصائص الله وصفاته. كل ذلك يتكرر ذكره في هذا الكتاب العجيب بأشكال وصور متعددة، ولكن دون أن يفقد شيئاً من روعته ومكانته، وكذلك فإن الانتقال من موضوع إلى موضوع في القرآن يحصل كثيراً، ولكن بغير أن ينحط التعبير عن مستواه ودون أن تقل حلاوته. وكذلك فإن التعمق وسلامة التعبير، وهما صفتان يندر أن يجتمعا معاً. وقد ظهرتا متجليتين في القرآن، وفيما عدا ذلك، وأن كل صور البلاغة تجد تطبيقاً كاملاً في القرآن، فكيف إذن والحالة هذه

يمكن القول بأن هذا الكتاب العجيب من عمل محمد الذي لم ينظم طوال أيام حياته بيتاً واحداً من الشعر سوى قوله: «أنا النبي لا كـذب، أنا ابن عبد المطلب».

ولقد تحدى النبي قومه أن يأتوا بكتاب مثل القرآن أو بسورة واحدة منه، ومع أن الفصحاء بين العرب كانوا أكثر من رمل الصحراء، فإن أعداء الإسلام لم يستطيعوا أن يعارضوا القرآن، ولكنهم حاربوه بالسلاح عندما لم يجرؤوا على محاربته بالكلام، وفضلاً عن روعة الشكل، وجمال الأسلوب اللذين اختص بهما القرآن، فإنه لا يشبه كتاباً آخر في مادته، فإننا نقرأ فيه نبوءات بحوادث مستقلة، وقصصاً عن حوادث مجهولة، وقعت منذ أجيال بعيدة، كما أنه حوى إشارات إلى العلوم المختلفة من دينيـه ودنيويـة. واجتمعت فيه كذلك حكمة لا يستطيع إدراك كنهها أذكى الناس فهمًا وأطول الفلاسفة باعاً وأعظم السياسيين حنكة. فلكل هذه الأسباب لم يكن من المعقول أن يكون بعيداً عن الأوساط العلمية ورجال الدين، رجل كان يرى نفسه كسائر الناس بعيداً عن الأوساط العلمية ورجال الدين، رجل كان يرى نفسه كسائر الناس غير جدير بالإتيان بالمعجزات. اللهم إلّا إذا كان بعون من الله القدير، ولم يكن مثل هذا الكتاب ليصدر إلا عمّن وسع كرسيه السموات والأرض، وأحاط بكل شيء علمًا. على أن هناك دليلًا آخر على قدسية القرآن، وهو أنه بقي طوال هذه القرون العديدة التي مضت منذ نزوله إلى يومنا هذا. دون أن تنال منه يد تغيير ولا تبديل، وسيبقى هكذا إلى ما شاء الله.

* * *

وتقول: ولقد حاول أعداء الإسلام أن يظهروا النبي في صورة رجل رغبة بأن اتخذوا من زيجاته العديدة حجة لاتهامه. فاتهم أمر هام لم يحسبوا له حساباً. وهو أن النبي أيام فتوته، وعنفوان شبابه لم يتزوج إلا من امرأة

واحدة هي: السيدة «خديجة» وحفِظَ لها في أثناء الخمس والعشرين سنة كل محبة وإخلاص، ولما فقدها وكانت سنه حين ذاك خمسين سنة. تزوج من أخرى، كما عقد زيجاته المختلفة التي كانت في أغلب الأحيان لدواع اجتماعية أو سياسية.

وتقول: أما المرأة فقد أعطاها الإسلام حقوقاً، وكرمها تكريماً، وإذا كانت المرأة في أوروبا قد بلغت شأواً في السنين الأخيرة. فإن مركزها قانوناً كان إلى وقت قريب في كثير من البلاد أقل استقلالاً من مركز المرأة المسلمة في العالم الإسلامي. فإن المرأة المسلمة فضلاً عن تمتعها بحق مشاركة أخواتها في الميراث، ولو بنسبة أقل، وعدم زواجها بأحد بغير رضائها، وعدم إكراهها على معاشرة زوج يسيء معاملتها، فإن لها الحق في قبض مهر من زوجها. وأن يقوم الزوج بالإنفاق عليها حتى ولو كانت موسرة، وأن تتمتع بكامل استقلالها وحريتها في إدارة ممتلكاتها.

وبعد: فإن الأهمية التي يضفيها الإسلام على العقل. هي في نظر معظم المسلمين بحيث أنه إذا جاء ما يوهم ظاهرة أنه غير متمش مع العقل وجب الاعتقاد بأن الظاهر هو غير المراد. هذا الإيمان الذي أساسه الاقتناع الفكري والذي يفرض على الرجل أن يستعمل مواهبه الفطرية، وأخصها الفكر في تفهم أصول الدين، كيف يستطيع أن يكون هذا الإيمان عائقاً للعلم والفلسفة.

ولكن هل منع الإسلام تقدم الثقافة والعلوم في الأجيال السالفة. عندما كانت مدارس العرب وقصور أمرائهم ينبعث منها النور إلى أوروبا، التي كانت غارقة في ظلمات القرون الوسطى، وعندما كان فكر فلاسفة العرب قد بلغ أسمى علاه حتى صار مناراً تهتدي به عقول الغربيين. ألم يمارس العرب الطريقة التجريبية قبل أن يعلن عنها العلّامة «بيكون» ألم يكن للعرب الفضل الأول في تقدم علم الكيمياء والفلك. وفي نشر العلوم

اليونانية ومتابعة الأبحاث الطبّية، وفي اكتشاف الكثير من القوانين الطبيعية. وهل بعد هذا يمكن أن يقال أن «الدين الإسلامي» من طبيعته إعاقة تقدم العلوم والثقافة؟ من الحق أن يقال أنه لا يوجد في الإسلام أي أسس للاعتقاد بأن النبي أو وارثي تعاليمه قد نصحوا يوماً بترك الحياة الدنيوية والاشتغال عنها بالعبادة.

٤ ــ أما العلّامة سنكس الفرنسي فإنه يحاول على قدر استطاعته تصوير الإسلام، ويخلص أساساً إلى حقيقتين هامتين:

الأولى: أن الإسلام خلص الإنسان والفكر الإنساني من وثنية القرون الأولى الخشنة. واضطر العالم أن يرجع إلى نفسه، وأن يبحث عن خالقه في صميم روحه.

الثانية: أن الإسلام أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره، فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة.

يقول: حمل مهمة ترقية العقول البشرية، وإيصالها إلى الاعتقاد بإله واحد، وبحياة بعد هذه الحياة. وبعد أن أمضى محمد عدة سنين في الحياة التأملية أعلن للأفراد المخلصين له بأنه سيقوم بنشر دين الله، ويحمل إلى الناس سعادة هذه الحياة، وسعادة ما وراءها من الوجود الثاني. فتصداه قومه في مكة، وهددوه بالقتل، فلجأ إلى المدينة (مدينة النبي) ومن تاريخ الهجرة يؤرخ المسلمون.

ولم يمض إلا بعض قرن بعد وفاة النبي ﷺ، حتى كانت جميع شعوب البلاد العربية وشمال إفريقيا من أول مضيق هرمز إلى شواطىء المحيط الاطلنطي خاضعة للراية الإسلامية.

وكانت إسبانيا قد تم فتحها. ومنها زحف المسلمون على فرنسا، ولم يصدهم عنها إلا أن الشعوب اليونانية والرومانية كانت لا تزال متأثرة

بأساطير الوثنية الشعرية، فلم تستطع أن تفهم ديانة غاية في البساطة والصراحة. ولما وقف الشرق في فتوحاته دخل في عهد جديد من الحياة الفكرية، فارتقت الآداب والصنائع والعلوم ارتقاءاً عجيباً. فبينما كانت أوروبا تتخبط في غياهب القرون الوسطى. كان المسلمون قد وصلوا إلى درجة من المدنية عالية بالنسبة لما كان موجوداً منها. وأكب العرب المتعلمون على تزجمة كتابات الفلاسفة الأقدمين، وأسسوا جامعات في بغداد وقرطبة، فحفظوا بذلك المعارف الإنسانية وزادوها.

ثم مضى العلّامة سنكس فدافع عن الإسلام اتهام خصومه، ووصفه بالتعصب. وقال: وقد ظلمه من عابه من هذه الوجهة، فلم يقل محمد قط «لا خلاص إلا بالإسلام» بل قال عكس ذلك. فظهر أعظم روح للتسامح في عدد كبير من سور القرآن.

وقد أمر النبي بعدم إيذاء الناس من أجل عقائدهم، وبعدم إكراههم على الإسلام. وقد عابوا على القرآن بثه في أتباعه الاعتقاد بالقضاء والقدر. أي عقيدة عدم استخدام الإرادة أمام الحوادث التي قدرها الله قبل وقوعها. وقالوا: إن ذلك جعلهم في حالة من الجمود العقلي والجسدي ينافي كل تقدم مدني.

وقد غالى عائبوه في ذلك، فإن القرآن ككل الأديان أوصى بالخضوع المطلق لإرادة الله، ثم أن القرآن لم يجعل الإيمان بالقضاء أصلاً مطلقاً، كما جعله لوثر وكالفان (مؤسسا البروتستانتية) نعم أن عدداً عظيًا من سور القرآن تذكر القضاء والقدر، ولكن منطق الإسلام يقرر أن الإنسان حر، وأنه مسؤول وحده عن نجاته وهلاكه، وأنه يستطيع أن يكون باراً، وأن يكون فاجراً بإرادته.

وقد أظهر محمد في عهد نبوته نشاطاً وعزماً وقوة لا تدل فقط على

ثقته بالله، ولكن تدل على ثقته بنفسه، وعلى حريته في الأغراض التي يرمي إليها. وقد ظهرت في المسلمين قوى وصفات لا يمكن لشعب جامد على عقيدة القدر أن يظهرها.

ويتحدث العلاّمة سنكس عن مفهومه للقرآن فيقول: «والقرآن» هو مجموع ما سنه الإسلام، وقد وصفه (بارتلمي سانتهلير) وقال: ولم أر ما يشبهه في جميع ما ضم التاريخ الديني للعالم الإنساني. وهذا الأمر يفسر التأثير العظيم الذي أحدثه ذلك الكتاب في العرب الدين اعتقدوا بأن محمداً لا يستطيع أن يؤلف بنفسه هذا الكتاب، وأنه لا بد من أن يكون قد أملاه عليه «الملك جبريل». وقد كان محمد يؤكد أنه يتلقى معارفه عن الملأ الأعلى، وقد أجمع معاصروه بأن ما في القرآن الكريم من تعاليم، ليست من صنع محمد، هذه التعاليم التي رقت عقول الملايين من الناس، ولا تزال ترقى كل يوم شعوباً متأخرة بإشرابها الحقائق الكبرى الضرورية للذات البشرية من الوجهة الدينية، والاجتماعية والخلقية والبيئية، ولن تمضي سنوات حتى تصبح إفريقيا كلها دائنة للإسلام والمسلمون يزدادون كل يوم عدا. وكل دليل على حيوية وعظمة ديانة الله.

ولم يأت محمد لمكافحة التوراة والإنجيل، فهو يعترف بأن هذين الكتابين قد أنزلا من السماء مثل القرآن لهداية الناس إلى الحق.

وأن تعاليم القرآن جاءت مصدقة لهما، ولكنه ـ أي القرآن ـ يزيد على ذلك، وقد رفض جميع الرموز، ودعا المؤمنين به لعبادة إله واحد قادر.

وأمر بخمس صلوات في اليوم ليتخلى الإنسان عن اشتغالاته المادية لحيظات في اليوم، يرتفع خلالها إلى مولاه، وأمر بأن لا تجعل العبادة موجهة لأغراض ذاتية، وأوجب على المسلم: أن يتصدق بحصة من

إيراده، وتلك غير الصدقة الاختيارية، وأوجب حماية المرأة بالاعتراف لها بحقوقها البيتية التي كان غير معترف بها إلى عهده، كما هذب مبدأ تعدد الزوجات، وحمى الأطفال بتحريم قتلهم تخلصاً من إعالتهم، ورعى حق الرقيق، فأمر بمعاملته باعتباره عضواً في البيت، وكان أول من قرر مبدأ المساواة أمام العدالة بين جميع المسلمين من أغنى الناس وأقواهم إلى أفقرهم وأضعفهم وحرم السرقة والقتل والإكراه. وأعلن محمد بأن للإنسان حياة مستقبله فيها عقاب وثواب.

وعبادة المسلمين لا ترى واسطة بين الإنسان وربه. فالإنسان يستطيع أن يناجي ربه مباشرة دون واسطة، والله واحد أبدي لا يتغير ولا يرى.

* * *

وينتقل الباحث إلى أثر الإسلام في العقول والمجتمعات فيقول:

وقد أحدث الإسلام رقيًا عظيمًا جدًّا في تدرج العاطفة الدينية. فقد أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد بين أيدي الكهنة، من ذوي الأديان المختلفة، فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة، يجازى فيها على أعماله، وبإله واحد يمكنه أن يعبده ويرتفع بروحه إليه دون وسيط. ثم إن أمر محمد بتحريم الصور في المساجد، وكل ما يمثل الله، قد خلص الفكر الإنساني من وثنية القرون الأولى الخشنة، واضطر العالم بهذه الصورة أن يرجع إلى نفسه، وأن يبحث عن الله خالقه في صميم روحه. وأن يرتفع إليه عقب ذلك بالعبادة القلبية المملوءة بالاحترام والحب.

ويقول: إن الناس لم يلتفتوا للترقي العظيم الذي أوجده الإسلام من الوجهة الأدبية. فإن ذلك الترقي تحقق بعيداً عنا في أمم اعتدنا أن نصفها بالبربرية، لأنه ليس لديهم مثل أفكارنا وعقائدنا، ولأنهم متأخرون عنا من الوجهة العملية والعقلية. ولكن مع هذا يجب الاعتراف بأن هذه

الحركة قد ساعدت بقوة، وتساعد كل يوم لإثارة عقول الأمم. والإسلام الخالص من كل التعاليم الخاصة بالشعوب الطفلة. ومن كل الشروح الضالة يظهر لنا أنه أعظم المدركات على العلاقات التي يجب أن توجد بين الإنسان وخالقه. وأكثرها انطباقاً على الطبيعة والمنطق.

٥ ـ ويحاول العلّامة الفرنسي «هنري لاوس» أن يتحدث عن أثر الإسلام في الثقافة. وكيف وحدت العقول على مفاهيم شاملة متكاملة ذات طابع استقلالي عن ثقافات اليونان والفرس وغيرهم ممن سبقوا عصر الإسلام الأول. يقول: إن وحدة الثقافة الإسلامية، تقوم بوحدة العقائد الإسلامية، وما كان الانقسام عند المسلمين إلا في الفروع، ومهما يكن من تأثير العنصر الديني في الثقافة الإسلامية، فليس في الإسلام ما يمنع البحث العلمي، وقد قامت عند المسلمين مدارس مهمة للطب والعلوم.

ويتساءل هنري لاوس: ما هي الثقافة؟.

ويجيب بأنها مجموع الأفكار والعادات والموروثات التي يتكون منها مبدأ «خلقي» لأمة ما. ويؤمن أصحابها، بصحتها، وتنشأ عنها عقلية خاصة بتلك الأمة تمتاز عن سواها. وجميع الثقافات تتكون وتتطور بعوامل داخلية وتتأثر ببعض المؤثرات الأجنبية، ويأتي عليها زمان تكون فيه القمة العليا من النشاط والظهور، ويعتريها الوهن في بعض الأحيان، ثم يعقب انحطاطها نهوض تنتعش به. وبهذا المعنى أمكن القول بوجود ثقافة إسلامية عامة ابتدأت في التاريخ بالدعوة الإسلامية في عهد النبوة، ثم تكونت في زمن الخلفاء الراشدين، والدولة الأموية ثم في عهد العباسيين ببغداد، وانتشرت في مختلف الأقطار الإسلامية من الشرق إلى الغرب.

ويقول: تتكون الثقافة الإسلامية من الأدب الجاهلي، وهو العنصر الأول الذي يمثل الأقطار، ووصف الحياة في الصحراء ويتجلى فيه «المروءة» التي كان يمتاز بها عرب الجاهلية، والعنصر الثاني هو العنصر الديني

المحض. وفي مقدمته «القرآن والحديث» منه ما نزل من السور في مكة، وما نزل في المدينه، ويتناول القرآن التكوين السياسي والاجتماعي للأمة الإسلامية، ولا غنى للمستشرقين عن دراسة القرآن. أما الذين لا يفعلون ذلك ولا سيما الذين يظنون أن الإسلام قد زال نشاطه فإنهم يعنون بدراسة المسلمين أكثر ما يعنون بدراسة الإسلام نفسه. والقرآن ما زال يفسر بالسنّة التي جاءت مبينة لمشاكله، ومفصلة لمجمله، وهي تتناول التشريع في العبادات وغيرها. وجميع ما يتصل بالحياة اليومية. ولما انتشر الصحابة في البلاد بعد الفتوح أخذ الناس عنهم الحديث، وتناوله القصاص، فوضع بعضهم أحاديث وقصصاً. فانبرى لهم من العلماء رجال ميزوا بين الصحيح والموضوع. وردوا ما دسه الوضاعون. وكانت نتيجة ذلك تدوين كتب «السنة» المعتمدة. وأقول أن التمسك بالسنة أقوى ما يوجبه الإسلام. وأن الإمام أحمد بن حنبل وأتباع مذهبه من أشد المتمسكين بالسنة. والعنصر الثالث في الثقافة الإسلامية، هو «المؤثرات» الأجنبية، ومن أهمها ثقافة اليونان. لأن المسلمين ترجموا طائفة من كتب الفلسفة، وبذل بعض المسلمين أموالاً طائلة في هذا السبيل.

وتساءل هنري لاوس مرة أخرى عما إذا كان المسلمون قد اقتفوا أفكاره، وحضارة الأمم السابقة. أم كانت لهم ثقافة متميزة، وإن استعانوا بتراث الحضارات من قبلهم، ونموه وزادوا عليه؟.

وأجاب: أن الذي أراه أن الثقافة الإسلامية لها طابعها المتميز، ثم عرض لفنون الثقافة الإسلامية وفي مقدمتها التاريخ فقال:

وجميع المؤرخين في الإسلام على نمط واحد في إيراد الحوادث والوقائع. لا كما نفعل الآن بتحويل البيئات والمؤثرات والظروف ما خلا (ولي الله عبد الرحمن بن خلدون) فإنه طبق قواعد النقد على التاريخ بكل

معاني الكلمة، وحاول أن يعلل الحوادث التاريخية على ضوء نظرياته الاجتماعية.

ومن مظاهر وحدة الثقافة الإسلامية من جهة الأدب «الشعر»: فإن جميع المسلمين في المشرق والمغرب يتخذون من دراسة الشعر العربي قاسماً مشتركاً لهم. ومن أوثق الروابط بين الأقطار الإسلامية ما رأيته بنفسي في المغرب من عناية المغاربة بشعر شوقي وحافظ. فهذا كله مما تترتب عليه وحدة الثقافة.

وعندي أن «اللغة العربية» من أهم دواعي الوحدة الثقافية بين المسلمين، وأهم أسباب تفوق هذه اللغة أنها اللغة الرسمية، ولغة الدين. ولا بد لأجل فهم القرآن والحديث النبوي من معرفة اللغة العربية معرفة دقيقة. وقد قام اللغويون والنحاة بمجهود عظيم في البصرة والكوفة لخدمة هذه اللغة.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما قام به الباحثون علمنا إلى أي حدّ أصبحت اللغة العربية: لغة العلم والفلسفة في العالم وقال:

ومن مميزات هذه الأيام الإلحاح في البحث عما اقتبسته الأمم الغربية من ثقافة الإسلام. ولقد كان ملتقى الأدبين في الأندلس وصقلية، وبعض المدن الإيطالية كالبندقية وجنوة، وفي الحروب الصليبية أيضاً حدث احتكاك في الأقطار بين الشرق والغرب. وقد كان لتأثير الإسلام في الأمم الغربية في القرون الوسطى أشكالاً مختلفة، ويجب علينا الرجوع إلى تاريخ العلوم لنقدر ما كان للمسلمين من التأثير على الحركة العلمية في مدارس الافرنج في القرون الوسطى، وأن لغتنا الفرنسية لا تزال إلى اليوم محافظة على كلمات اقتبستها من لغة العرب. وفي ذلك لمحة دالة على ما وراء ذلك من تأثير.

ويمضي هنري لاوس في عرضه فيقول: ثم لاحت مبادىء النهضة

الإسلامية في العصور الأخيرة، وللثقافة الإسلامية عدة اتجاهات. أهمها الحركة «السلفية» التي يراد بها الرجوع إلى بساطة الإسلام الأولى، وتبتدىء هذه الحركة بابن تيمية، وبتلميذه ابن القيّم. وأظن أن في الشرق الأدنى طوائف من المسلمين تميل إلى هذه الطريقة. وقد لاحظت أنا بنفسي اتجاهاً نحو ذلك في المغرب. وهناك تيار تفكيري آخر ينتسب إلى السيد جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، وهو أقرب تناولاً من الأول. وقد شاهدت ميلاً عظيمًا إلى هذا التيار في مختلف بلاد الإسلام في الشرق والغرب.

وهناك تيار تفكيري ثالث يقوم به فريق يريدون أن يأخذوا من الغرب كل شيء بلا تمييز ولا نقد، وهم يريدون أن يتبعوا سنن الغرب في الآداب.

وأقول بغير دهان ولا خوف ولا إفراط أن مصر ستكون عاصمة التفكير للعالم الإسلامي الممتد من بلاد جاوة إلى أسواق الجاليات العربية والإسلامية في أمريكا. وسبب ذلك أن مصر سبقت غيرها من الأمم الإسلامية عن طريق الرقيّ والتقدم، وللأزهر مركز جغرافي يجعله المدرسة الأدبية الجديدة للأمم الإسلامية المختلفة.

ليس الإسلام عدوًّا للنصرانية

يقول القس البريطاني إسحاق تيلور، وقد شهد له الباحثون بإنصاف في النظرة إلى الإسلام وأهله: «لما كان الإسلام داعياً إلى نفسه، انتشر في قسم كبير من الدنيا، وفاق غيره في النجاح، ليس تفوق الإسلام منحصراً في أن الداخلين إليه أكثر عدداً. بل إنه يكسب أقاليم يتقهقر فيها غيره، فقد امتد دين الإسلام من المغرب إلى جاوة. ومن زنجبار إلى الصين، ثم هو ينتشر في إفريقيا بخطوات العباقرة، فمتى دخلت قبيلة إفريقية في

الإسلام اختفت عنها في الحين الوثنية وعبادة الشيطان وعبادة البشر؟ وأكل لحم الإنسان، وتقديم الضحايا البشرية، وقتل الأولاد والسحر، وصاروا يرتدون الثياب، وحلت بهم النظافة، وشعروا بالعظمة، واحترام النفس، وصار قرى الضيـوف عندهم من الـواجبات الـدينية، مـع نبذ شـرب المسكرات، وتحريم القمار، وفوضى اختلاط الجنسين، وصـارت طهارة العرض من أعظم الفرائض، وذهبت البطالة والكسل، وحل العمل والكد محلها. وأبدلت الدعارة والانهماك بالانقياد للشرع. وتغلب النظام والرزانة على الشقاق، وحرمت القسوة عـلى الحيوان والعبيـد، وتعلموا الشعـور بالإنسانية واللطف والأخوة، ودخل الرق، وتعدد الزوجات تحت قانون يحدد شرهما ويخففه.

ليس الأهم أن نوضح انتشار الدعاية الإسلامية. بل أهم منه أن الإسلام متى وقع في كفه أحد قبض عليه بيد من حديد فلا يغلبه، وفوق ذلك كله. فالإسلام أقوى وأكمل دين اجتماعي في القناعة والاعتدال في تناول اللذات. وإن اتصلت الرذيلة بالتجارة الغربية الزاحفة على العالم الإسلامي.

أما الإسلام فإن تمدّنه خالٍ من غمط الناس، واحتقارهم، وهو يحض على تعلم الكتابة والقراءة، ولبس الثياب اللائقة والنظافة البدنية، والصدق وعزة النفس. والحق أن تمدين الإسلام وتقويته للنفوس لعجيب.

وبعد فليس الإسلام عدوًّا للنصرانية. بل هو أنصف النصرانية. والإسلام دين عام لجميع الأقوام، ليس منحصراً مثل اليهودية في شعب واحد. بل عام شامل لجميع أهل الأرض، والمسلمون يؤمنون بجميع الأنبياء السابقين. وفي مقدمتهم إبراهيم وموسى وعيسى. ليس في تعاليم محمد شيء يعادي النصرانية أو يضادها. ويستطرد القس تيلور فيقول:

جاء الإسلام فجرف الخرافات الفاسدة. وكان خصمًا شديداً للتبتل

الذي يزعم أنه تاج التقوى. وجاء بعقيدة الدين الأصلية القائمة على توحيد الله وتعظيمه. وإبدال التبتل والرهبانية بالرجولة، كما فتح باب أمل للرقيق، وباب أخوة للنوع الإنساني كله، واعترف بالحقائق الجوهرية للطبيعة البشرية، والفضائل التي يعلمها الإسلام هي التي يمكن للشعوب البشرية النامية أن تفهمها، الاعتدال في التمتع بالملذات والنظافة والعدل. والصبر والشجاعة والإحسان والضيافة والصدق والرضا بالقضاء، فأمكنهم أن يعلموا أصول الفضائل الأربع، وأن يجتنبوا السيئات المهلكات.

ويفوق الإسلام غيره من الأديان في أن الأخوة التي يدعو إليها عملية. وأن المساواة الاجتماعية تامة بين جميع المسلمين، فمتى دخل شخص في الإسلام انتظم في سلك الأخوة الإسلامية، وصار عضواً في جمعية يبلغ تعدادها (كذا) مليوناً. ولقد أبطل الإسلام عادة قتل البنات. وجعل لكل امرأة حماية شرعية.

٦ ـ أما العلاّمة المؤرخ البريطاني (أرنولد توينبي) فقد عرض للإسلام في مواضع مختلفة في دائرة معارفه التاريخية. وقد حاول في بحثه هذا الذي نورد ملخّصاً له أن يستكشف موقع الإسلام تاريخياً على قدر غير قليل من الإنصاف. ويرى توينبي أن الإسلام بدأ كديانة قومية للعرب. وفي نفس الوقت ديانة عالمية لكل البشرية. ويقول عن الرسول ﷺ: هناك بطبيعة الحال تأصيل بمقتضاه لا يمكن أن يترك رجل عظيم جدًّا العالم من بعده كما وجده أولاً، وإنما هو يصنع أثراً كبيراً على التاريخ اللاحق. وهذا هو عين الحق بالنسبة إلى النبي محمد.

ويقارن العالم توينبي بين انتشار الإسلام في منطلقه الأول، وبين انتشار المسيحية. وعنده أن المسيحية لم تستطع أن تصبح دولة خلال عمر المسيح أو بولس، ويرجع ذلك إلى أنها نشأت داخل تخوم دولة عالمية موجودة آنذاك هي «الامبراطورية الرومانية» واستغرق تمسح الامبراطورية

الرومانية مدة ثلاثمائة سنة. أما الإسلام فقد استطاع أن يقيم دولة في حياة الرسول. ولقد انبسطت هذه الدولة بعد وفاته حتى أصبحت دولة عالمية.

ثم أشار توينبي إلى مظهر اتساع الإسلام بحسبانه ديانة عالمية. وأرجع السر في انتشاره إلى أن الفاتحين العرب لم يكونوا دعاة قساة. بل كانوا سمحاء رحماء. فضلاً عما ضمن لغير المسلمين من أهل الكتاب من حياة طيبة، وحرية في العبادة.

ويستطرد توينبي فيقول: على أن دخول الناس إلى الإسلام بأعداد ضخمة، داخل الممتلكات السابقة للخلافة، ودخولهم إليه خارج الحدود السابقة لها، لم يبدأ إلا بعد سقوط الخلافة في بغداد، ولقد حلت الأزمة الكبرى حين ذاك بالنسبة للإسلام حين بلغت الغزوات الهجومية ذروتها. الغزو المغولي في القرن الثالث عشر من التاريخ المسيحي، وكانت خراسان والعراق تعانيان من انخفاض في السكان. ولقد كانت هناك مفاتحات بقصد القضاء على الإسلام بين المغول الذين وصلوا إلى الفرات، والصليبيين والغربيين الذين ما فتئوا ملتصقين ببعض القلاع على طول ساحل سورية. بيد أن الإسلام تغلب على هذه الأزمة. فقد حافظ الإسلام على قلعتين عسكريتين وسياسيتين، أولهما تتمثل في قوة المماليك الأتراك في مصر وسورية، وثانيتهما تتمثل في قوة تركية أخرى في شبه القارة الهندية. وكان المماليك هم الجنود الوحيدون في القرن الثالث عشر الذين كانوا أكثر من مجرد ندّ للمغول. ولقد أغار المغول على غرب الفرات. وشرق نهر الهندوس، ولكنهم لم يتمكنوا أبداً من أن يقيموا استحكامات دائمة خلف النهرين. ثم إن الإسلام قهر المغول آخر الأمر في إيران والعراق. وكذلك فقد هزم الإسلام المسيحية النسطورية في المنافسة على هداية المغول.

ويمضي توينبي فيقول: لقد حرر العرب المسلمون سلسلة - من البلدان الشرقية من سلطان إغريقي - روماني - مسيحي - من سوريا إلى إسبانيا عبر شمال إفريقيا. وقد كانت تلك البلدان تحت الحكم الإغريقي أو الروماني نحو ألف من السنين، منذ فتح الإسكندرية الأكبر للامبراطورية الفارسية، وإسقاط الرومانيين لقرطانجه. وذلك بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر.

* * *

وواصل المسلمون فتحهم للهند على مراحل، فنجحوا في الاستيلاء عليها كلها تقريباً. وفوق ذلك سار دينهم «سلمًا لا حرباً» إلى أبعد من تلك الأنحاء. فتوغل في أندونيسيا والصين في الشرق وفي إفريقيا الاستوائية وفي الجنوب الغربي، وكانت روسيا قد خضعت زمناً في العصور الوسطى المتأخرة للتتر الذين أصبحوا مسلمين واقتحم العثمانيون المسلمين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ما بقي من المسيحية الأرثوذكسية الشرقية في آسيا الصغرى، وفي جنوب أوروبا الشرقي، وحاصر هؤلاء الأتراك «فيّنا» للمرة الثانية في زمن لا يتعدى - ١٦٨٢ - ١٦٨٣. ومع أن إخفاق ذلك الحصار كان بداية لهبوب الرياح في صالح الغرب في معركته مع الامبراطورية العثمانية. فإن «راية الهلال» كانت ولم تزل ترى خفاقة على ساحل الادرياتيك الشرقي مقابل ساحل إيطاليا حتى سنة ١٩١٢.

ويقول: إن عقيدة التوحيد - التي جاء بها «الإسلام» هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم. فنقول: إن المهم فيها ليس ما يؤدى من مناسك. وإنما هي رمز للإخاء الذي يربط المسلمين بعضهم ببعض دون تفرقة لونية أو عنصرية. وما دام الأمر كذلك. فمن الخطر على الإسلام تعطيل هذه الشعيرة.

إن المجتمع الإسلامي هب ظافراً منصوراً في مرحلتين من مراحل

التاريخ أولاهما ـ عندما حرر مصر وسورية من السيطرة الهلينية التي ظلت جاثمة على صدر البلدين طوال ألف عام، وثانيتها عندما وقف «عماد الدين زنكي» ونور الدين، وصلاح الدين، والمماليك صامدين في وجه العدوان الصليبي في الغرب والتتار في الشرق.

* * *

إن آفة المدنية المعاصرة هي الصراع الطبقي والعنصرية. وإن الإسلام قد قضى على النزعة العنصرية. والصراع الطبقي بتقرير مبدأ الإخاء الإسلامي، والمساواة المطلقة بين المسلمين. إنني أدعو العالم إلى الأخذ بهذا المبدأ الإسلامي. وأدعو الغرب إلى نبذ معاداة العرب. وبذلك تنجو المدنية الحالية مما يدب فيها اليوم من عناصر الفناء.

عندما كانت حضارة الغرب الرومانية تنحدر إلى الهاوية في القرن السابع المسيحي، وظهرت الحضارة الإسلامية الفتية أصابت الغرب نوبة هستيرية لظهور هذا الخط الجديد. وأشد ما خشيه الغرب من الحضارة الإسلامية الناشئة أنها كانت تستند إلى مثل أعلى فوق المادة لا ينفع في دفعه ما لدى الغرب من أسلحة مادية.

إن الإسلام قد استنكر الوثنية، والشرك وعبادة الأصنام، واسترد عبادة الإله الواحد الذي دعاإبراهيم إلى عبادته من قبل.

* * *

٧ ـ وحين نراجع ما كتبه الدكتور (بول دي ركلا) نجده يعرض لجانب آخر من علاقة الإسلام بالغرب وكلامه متشح بالإنصاف إلى حد كبير. ومن ذلك قوله:

آن لنا أن نعرف ويعرف العالم أجمع جوهر هذا الدين. لأن معلوماتنا عنه ليست قليلة فحسب. بل هي سيئة جدًّا، وأرى من جهة ثانية أنني

أكون أسديت إلى قومي الفرنسيس خدمة إذا ما أوقفتهم على حقيقة دين جاء بمبادىء فيها كل الفوائد لأعمالهم. اللهم إذا انقادوا للحق واتبعوا أوامره الجلية.

دين يجب ألا نكتفي بتسميته ديناً ونقف. بل لنعطيه اسمه الحقيقي ولنسميه فلسفة حياة. وبذلك نكون قد أعطيناه مركزه بين الأديان.

ولست بمغالٍ إذا صرحت علناً، وقلت إن الإسلام مفتوح بابه على مصراعيه، وهو أوسع الأرجاء ليتلقى الرقي الحديث الذي أنتجته الأجيال الطويلة، وليس كما يزعم التعصب بمحدود الأطراف. وضيق المدخل، لأن تعاليمه الرفيعة وضعت لكرور الدهر. وستبقى خالدة وضاءة الأنوار تكسف كل مدنية تتمحض عنها العصور.

ويكفيه فخراً أنه لا يقر مطلقاً بالقاعدة الشاملة (لاسلام خارج الكنيسة) التي يتبجح بها كثير من الناس. وقد أظهرت لنا الأيام أنه هو الدين الوحيد الذي حل بعدل مشكلة حقوق البنين وواجباتهم باعترافه بالمولود ضارباً عرض الحائط بالترتيب الغريب المخالف لنظام الطبيعة ونواميسها الذي أوجده الدين الكاثوليكي بحق الأولاد الشرعيين وغير الشرعيين. إذ فرق الدين الكاثوليكي بينهم. فأعطى الأول كل الحقوق، وحرم الآخر من كل الحقوق، فعمل كهذا منافٍ لسنن الطبيعة وجريمة كبرى نقترفها بحق الأولاد غير الشرعيين.

وإن الإسلام هو الدين الوحيد بين جميع الأديان الذي أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب إلى الفسق والفجور، ويكفيه فخراً أنه قدس الأنسال وعظمها ليرغب الرجل بالزواج ويعرض عن الزنا المحرم شرعاً وتشريعاً.

وإن الإسلام قد حل بعقلية عالية عادلة أغلب المسائل الاجتماعية التي لم تزل للآن تشغل مشترعي الغرب بتعقيداتها.

فالإسلام هو الدين الديمقراطي الوحيد سواء أكان بتعاليمه أم بشرائعه أو بعاداته فهو لا يعترف مطلقاً بالزعامة الدينية. وما الرتب والألقاب سوى نعوت شرقية تعطى لبعض الأشخاص الذين لهم مركز بيّن في الهيئة الاجتماعية ولا تورث للأعقاب.

فالإسلام وهو في ترقٍ مستمر يستحق، ولا ريب أن تدرس تعاليمه من قبل عظماء رجالنا الموكول إليهم أمر نشر نفوذنا. ومع الأسف قد أساءوا العمل بالإغضاء عنه، لأنهم يجهلون جوهره الثمين، مساقون في ذلك إلى اتباع خطى أسلافهم فهم مقلدون ليس إلا.

٨ ـ أما المؤرخ العلاّمة روم لاندو الذي طاف بالعالم الإسلامي، واتصل بالمسلمين والعرب في مختلف البقاع. فيقول في كتابه: الإسلام والعرب أن الإسلام رسالة اجتماعية تتمتع فيها مصلحة المجتمع الكلية بالأهمية الرئيسية ويمضي فيقول:

نشأ محمد يتيمًا في كنف أحد أعمامه «أبي طالب» منفقاً ساعات طوالاً متوحداً في مكة، أو في ضواحيها يرعى الغنم. وفي إمكان المرء أن يتخيل في يسر ما استشعره الشاب الحساس من وحدة وانفراد. والأثر الذي كان لا بد لهذا الوضع أن يتركه في تكوينه العقلي. والواقع أن ما نزل عليه بعد من وحي لم يهبط في فراغ بل هبط في جو من الاستيطان المحتوم، والتساؤل الروحي. وكان محمد في أوائل العقد الثالث من عمره عندما عهدت إليه «خديجة» في قيادة قوافلها التجارية. وكان في خدماته المخلصة لها، وفي أمانته ما جذب مستخدمته إليه، فإذا بها تمسي زوجاً له.

ولم ينسب محمد في أي يوم من الأيام إلى نفسه صفة ألوهية، أو قوى أعجوبية. ولقد كان حريصاً على النص على أنه مجرد رسول اصطنعه الله لإبلاغ الوحي للناس. كان محمداً تقيًّا بالفطرة. وكان من غير ريب مهيأ لحمل رسالة الإصلاح التي تلقاها، وبالإضافة إلى طبيعته الروحية كان في جوهره رجلاً عملياً عرف مواطن الضعف، ومواطن القوة في الخلق العربي، وفي نفس الوقت كان محمد يملك إيماناً لا يلين بفكـرة (الإله الواحد) وعزماً راسخاً على استئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام التي كانت سائدة بين الوثنيين العرب.

وكانت مهمة محمد هائلة، كانت مهمة ليس في ميسـور «دجال» تحدوه دوافع أنانية. وهو الوصف الذي رمى به بعض الكتاب الغربيين المبكرين الرسول العربي أن يرجو النجاح في تحقيقها بمجهوده الشخصي، والزعم القائل بأن فترات تلقيه الوحي كانت في الواقع نوبات صـرع خاطىء على نحو جلي، وذلك بأن من يتعرض لمثل هذه النوبات لا يمكن أن يكون مالكاً وعيه ومنطقه إلى حد القدرة على النطق بمثل المقاطـع العميقة من وجهة النظر الفكرية التي تقع على كثير منها في القرآن. وأن الإخلاص الذي تكشف عنه محمد في أداء رسالته. وما كان لأتباعه من إيمان كامل فيما أنزل عليه من وحي، واختبار الأجيال والقرون «كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد بأي ضرب من الخداع المتعمد، ولم يعرف التاريخ قط أي تلفيق «ديني» متعمد ـ حتى ولو كان صاحبه دجالاً عبقرياً ـ استطاع أن يعمر طويلاً. والإسلام لم يعمر حتى الآن على ما ينوف على ألف وثلثمائة سنة. وحسب بل إنه لا يزال يكسب في كل عام أتباعاً جدداً، وصفحات التاريخ لا تقدم إلينا مثلاً واحداً على محتال كان لرسالته فعل في خلق امبراطورية من امبراطوريات العالم، وحضارة من أكثر الحضارات نبلاً. إن الشكل المكتوب للوحي الذي تلقاه محمد مثبت

وفقاً للاعتقاد الإسلامي، كما أنزله الله تماماً عن طريق جبريل. فقد دون أصدقاء الرسول كلماته على أي سطح تيسر لهم الوقوع عليه، ولكن هذه المدونات لم تجمع كلها في كتاب واحد إلا برعاية عثمان الخليفة الثالث.

* * *

ويجد المسلمون الهداية والإلهام في المقام الثاني بعد القرآن في السنة، وهي مجموعة أقوال محمد، وما ثبتت صحته من أفعاله، ولقد جمع «الحديث» وهو الاسم الذي يطلق على هذه المجموعة في كتب متعددة. ومن بلاد العرب الوثنية اقتبس بعض العادات والأعراف. ولكنه طهرها من صبغتها الوثنية. لقد احتفظ بالحج إلى مكة، ولكن بعد أن حطم مئات الأصنام التي سادت الكعبة.

وفي المقام الثاني في الأهمية بعد الإيمان بالله، أكد الإسلام على حياة المؤمن المقبلة في الجنة. وفي ذلك الجو الذي كان مشحوناً بالريبة الكاملة. أعلن محمد عقيدة جعلت جميع المؤمنين أكثر من أخوة. لقد كانت مهمة «الإسلام» أن يحول قانون الشرف والوحدة القبلي الضارى إلى عقيدة دينيه منظمة خليق بها أن تشمل البدوي والمدني في آن واحد.

هذه العقيدة الداعية إلى تساوي الناس أمام الله، ووحدة المؤمنين في الله أحدثت تغييراً عميقاً في تفكير العربي وسلوكه. ولقد كان ثمة تعبير أصيل عن المساواة في صدر الإسلام الأول، تجلى في الطريقة الديمقراطية التي اختير بها خلفاء محمد الأولون، وانعدام التمييز العرفي ونظام الطبقات الاجتماعية. وبعض الكتاب يطلق على المسلمين اسم «المحمديين» وهذا خطأ يوهم السامع بأن المسلمين يعبدون أو يؤلهون الرسول.

إن «الإسلام» تطبيق يطلق علمًا على ذلك النظام الإيماني المبني على القرآن، وهو مشتق من لفظة «أسلم» أي «أذعن» العربية ولفظة «أسلم» تعني من أسلم نفسه لله.

وأن ورح المفهوم القرآني لله هو البساطة بعينها «الله لا إله إلا هو». وقد أنشأ المسلمون مفهوماً لوحدة الله لا يعرف اللين البتة. والواقع أن هذا المفهوم قد مثل خطوة جبارة يخطوها الرجل العربي برغم ما كان يكتنفه من مئات الآلهة التي غصت بها الكعبة. والقرآن يؤكد على أنه ليس ثمة إثم أشنع من الإيمان بأن لله شركاء. وذلك حين يقول: ﴿ أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾. ويمكن تلخيص وجهة النظر السنية بهذه الكلمات: « الله واحد. أحد. فرد صمد. لم يتخذ صاحبة ولا ولد» فالله عند المسلم هو خالق الكون وسكانه. وقدرة الله أهم في نظر المسلم من محبة الله بكثير. وليس عجيباً أن تكون فكرة قدرة الله وقوته أقرب إلى فؤاد العربي العائش في محيط عسير قاس، من فكرة المحبة وثمة مفهوم آخر «لله» كان ذا شأن عظيم. ولا يزال عند الكثرة الكاثرة من المسلمين. أعني المفهوم القائل بأن الله موجود في كل مكان، وأن وجوده ليس مقصوراً على أي مكان أو حيز أو زمن بعينه.

وواجبات المسلم الدينية الرئيسية تدعى في بعض الأحيان «أركان الإسلام الخمسة» هي التي تؤلف شعائر الإسلام بالنسبة إلى المسلم العادي.

وقد مزج الإسلام ما بين الاصلاح الأخلاقي، والعبادة الدينية مزجاً ينسجم انسجاماً رائعاً مع أمزجة العرب وحاجاتهم.

ولم يكد الإسلام يولد حتى واكبه النجاح والفتح. فالإسلام في أساسه دين علمي. فالقواعد التي ينص عليها القرآن الكريم ليست جامدة. ولقد كيفت وفقاً لما قضت به الأحوال والظروف.

وفي شكل المصلي المسلم المتقوس، وفي شكل الكعبة المكعب، وفي مستطيل الجامع المقبب ينعكس الشعور الإسلامي بالاستقلال الذاتي. إن

المسلم لا يستشعر أن الله هو «هناك فوق» بل يستشعر أنه موجود في ذات نفسه.

ويمضي روم لاندو فيقول: والقواعد الأساسية التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية هي «الحرية» التي هي هبة من هبات الله، وقد نصّ الرسول على هدفها بقوله: «يَسِّروا ولا تعسِّروا». لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ومن المهم أن نشير هنا إلى الشريعة التي برغم هيمنتها الكاملة على الجماعة الإسلامية لا تلزم غير المسلمين.

والحق أن اهتمام الإسلام الرئيسي لينصب على المجتمع أكثر من انصبابه على الفرد. ومن أجل ذلك تعني الشريعة على الجملة بالمظهر الاجتماعي من القانون.

إن الإسلام رسالة اجتماعية تتمتع فيه مصلحة المجتمع الكلية بالأهمية الرئيسية. فالفرد بما هو فرد محجوب دائمًا بالمجموع. وأن التوكيد الأساسي في الإسلام منصب على قوة الله وقدرته. ومن هنا يذعن المسلم التقيّ له تعالى من غير تردد ولا مناقشة.

وكان محمد قد أبلغ الناس رسالة لا تقر أي وساطة بين الله وعبده، ولا ترضى القول بأي تجسد.

ويختتم روم لاندو بحثه الذي لخصناه في هذه السطور فيقول: والواقع أن إلقاء نظرة على أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين لتعطينا فكرة عما يعتبره أهل السنة أساسياً في مفهوم لطبيعة الله. وإذا أردنا الإجمال استطعنا القول أن في الإسلام إيماناً بوحدانية الله وقدرته الكاملة، ووجوده في كل مكان، وعلمه بكل شيء، ووعيه ذاته، وطبعاً بجميع الصفات التي تعددها أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين.

الباب الرابع

الاسلام والعلم



اعترف بدور الإسلام في بناء المنهج العلمي التجريبي كثيرون وقد أصبحت هذه الحقيقة عالية الذرى فوق كل راية وقد عرض درابر لنظريات النشوء والارتقاء عند المسلمين فقال: ولما وليّ الخلافة أبو جعفر المنصور: نقل تحف الملك إلى بغداد، وجعلها عاصمة فخيمة، فلم يأل جهداً في بذل الوسع في درس العلوم، وتأسيس مدارس الطب والشريعة. واتبع هارون الرشيد جده في هذه الفتوحات العلمية، وأمر بإضافة مدرسة إلى كل مسجد، ولكن عصر العلم الزاهر في القارة الآسيوية، لم يشرق إلا في خلافة المأمون، فإنه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى، وجمع إليها كتاباً لا تحصى، وقرب إليه العلماء، وبالغ في الحفاوة بهم.

* * *

ذاق العرب من الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يحد القريحة ويشحذ الذهن. وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت الأمم كلها مجتمعة. أما في العلوم فقد كان توفقاتهم فيها ناشئة من الأسلوب الذي توخوه في المباحث، فإنهم قد تحققوا أن الأسلوب العقلي النظري لا يؤدي إلى التقدم. وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بشاهدة الحوادث ذاتها. ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم الأسلوب التجريبي والدستور العلمي والحسي.

ويلاحظ المطالع لكتبهم العديدة في الميكانيكا، والأيدروستاتيك (علم موازنة السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) ونظريات الضوء والأبصار بأنهم قد اهتدوا إلى حلول مسائل عن طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات. هذا هو الذي قاد العرب لأن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء والمكتشفين لحملة آلات للتقطير والتصعيد والاسالة (اسالة الجوامد) والتصفية الخ. وهذا بعينه هو الذي جعلهم يستعملون في أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة، والسطوح المعلمة، والاسطرلابات: وهي آلات لقياس أبعاد الكواكب. وهذا أيضاً الذي بعثهم لاستخدام الميزان في العلوم الكيماوية. وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته، وهو أيضاً الذي أرشدهم لعمل الجداول على الأوزان النوعية للأجسام والأزياج الفلكية (جداول تعرف منها الكواكب) مثل الذي كانت في بغداد وقرطبة وسمرقند. وهو الذي أيضاً أوجب لهم هذا الترقي الباهر في الهندسة وحساب المثلثات، وهو الذي همّ بهم لاكتشاف علم الجبر، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية.

ولقد دأبوا على جميع الكتب بصفة منتظمة لأجل أن يتوصلوا إلى تكوين المكتبات. وقد قيل أن المأمون نقل إلى بغداد مائة حمل بعير من الكتب، وقد كان أحد شروط معاهدة الصلح بينه وبين الامبراطور ميشيل الثالث أن يعطيه إحدى مكاتب القسطنطينية التي كان فيها بين الذخائر الثمينة الأخرى كتاب بطليموس عن الرياضيات السماوية. فأمر المأمون بترجمته للعربية وسماه (المجسطي).

وقد حصلت العناية بأمر هذه المكاتب، حتى أن مكتبة القاهرة كان بها نحو من مائة ألف كتاب معتنى بكتابتها. وتجليدها غاية الاعتناء. وكان يوجد من بين هذه الكتب ستة آلاف مجلد في الطب والعلوم الفلكية فقط. وكان من نظام هذه المكتبة أنهاتعير كتبها للطلبة الساكنين في القاهرة. وكان

بتلك المكتبة كرتان أرضيتان إحداهما من الفضة، والأخرى من البرونز، قيل إن الأولى صنعها بطليموس الفلكي نفسه. وأنها استدعت ثلاثة آلاف كورون (نقود يونانية) من الذهب. وقد اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس فيما بعد على ستمائة ألف مجلد. وكان جدول أسمائها وحده محتوياً على أربعة وأربعين جزءاً، وغير هذا فقد كان في الأندلس سبعون مكتبة عامة. وكثير من المكتبات الخاصة. ومما يحكى أن أحد الدكاترة العرب رفض دعوة سلطان بخارى له محتجاً بأن كتبه لا يمكن نقلها إلا على أربعمائة بعير.

لقد كان يوجد في كل مكتبة كبيرة سجل خاص للنسخ والترجمة. وقد كان لبعض الخاصة مثل ذلك. وكان لكل خليفة مؤرخ خاص يكتب تاريخه، وكل المؤلفات كانت تنشر بدون رقابة أو حجر.

١ ــ وكان الملك الإسلامي العربي مملوءاً بالمدارس والكليات. وكانت بلاد المغول ومراكش والأندلس حاصلة على عدد عديد منها. من طرف من أطراف المملكةالواسعة التي فاقت المملكة الرومانية كثيراً، مرصد في سمرقند لرصد الكواكب، وكان يقابله في الطرف الآخر مرصد جيراك في الأندلس، قال جيبون: كان أمراء المسلمين في الأقاليم يناظرون الملوك في حماية العلم والعلماء. وكان من نتيجة تنشيطهم هذا للعلماء أن انتشر الذوق العلمي في المسافة الشاسعة التي بين سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة، ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتي ألف دينار لتأسيس كلية علمية في بغداد، ووقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنوياً. وكان عدد الطلبة فيها ستة آلاف، لا فرق بين غني وفقير، وكانوا يكفون التلاميذ الفقراء مؤنة دفع أجر التعليم ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة.

* * *

ولقد اهتم الفلكيون العرب بتحسين آلات الإرصاد وتهذيبها،

وبحساب الأزمنة بالساعات المختلفة، والأشكال والساعات المائية، والسطوح المدرجة الشمسية وهم أول من استعمل البندول «الرقاص». أما في عالم العلوم التجريبية فقد اكتشفوا الكيمياء، وبعضاً من محللاتها الشهيرة بحمض الكبريتيك وحمض النتريك والكحول (الاسبرتو) واستخدم العرب علم الكيمياء في الطب لأنهم أول من نشر علم تحضير العلاجات والأقرباذينات، واستخراج الجواهر المعدنية. أما في علم الميكانيكا فإنهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام، وكانوا عارفين تمام المعرفة بعلم الحركات.

أما في الأيدروستاتيك (علم موازنة السوائل) فقد كانوا أول من عمل الجداول المبينة لأنواع الأوزان النوعية، وكتبوا أبحاثاً عن الأجسام السابحة والغائصة تحت الماء.

أما في نظريات الضوء والابصار فقد غيروا الفرض اليوناني الذي يقول بأن الابصار يحصل بوصول الشعاع من المرئي إلى العين، وكانوا يعرفون نظريات انعكاسات الأشعة وانكساراتها. وقد اكتشف «الحسن بن الهيثم» الشكل المنحني الذي يأخذه الشعاع في سيره في الجو، وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة في الأفق، وكذلك في الغرب نراهما قليلاً بعد أن يغيبا.

إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليًّا بالتقدم الباهر الذي نالته الصنائع في عصرهم. فقد استفادت منها فنون الزراعة، وانتشرت معامل الصنائع لكل أنواع المنسوجات، وكانوا يذيبون المعادن، وكانوا يجرون في عملها على ما حسنوه وهذبوه من صنعها وسبكها.

وكان العرب من عشاق الموسيقى والشعر، وقد وهبوهما وقتاً كبيراً،

وحبوهما مكانة من أفئدتهم، وهم الذين علموا الأوروبيون لعب الشطرنج، وبثوا فيهم ذوق مطالعة الأقاصيص.

وكان للعرب لذات روحية حتى في مجالات الأدبيات الفلسفية. فكان لديهم مؤلفات عالية جدًّا في تقلب الأحوال الإنسانية، وعلى نتائج عدم التدين، وعلى زوال النعم، وعلى أصل العالم وبقائه وآخرته، وأنا ندهش أحياناً حينما نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية، وما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر، من ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهباً حديثاً كان يدرس في مدارسهم. وقد كانوا وصلوا به إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه. وذلك بتطبيقه على المواد الجامدة، والمعدنية أيضاً.

وقد احتفروا المناجم واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب. وبرعوا في صناعة الصباغة، ومهروا في سقي الفولاذ مهارة بعيدة المدى، حتى أن صفاح (طليطلة) أصدق البراهين على ذلك، ونعرف أنه كان لمنسوجاتهم وأسلحتهم ومدبوغاتهم من الجلود، ولورقهم شهرة عامة. وأنهم في كثير من فنون الصنائع برعوا براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن.

وإذا كانت لهم معلومات عالية في الطبيعة النظرية خصوصاً في نظريات الضوء والابصار. فقد حفظت عنهم اختراعاتهم لأجهزة ميكانيكية من أدق ما يعرف من نوعها، واكتشافهم للجواهر التي تعد من أعظم أراكين علم الكيمياء مثل الكحول، وحمض النيتريك. وقد سجلت لهم أكبر العمليات الأساسية مثل التقطير، وأثر عنهم استخدام الكيمياء لفن الصيدلة.

٢ ـ ويمضي العلاّمة شاتليه أستاذ العلوم الاجتماعية والإسلامية في

الكوليج فرانس في أوائل القرن فيصور العلاقة بين التوحيد الإسلامي.
وبين العلم فيقول:

إن اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن أهم رابطة وأوثق عروة بين أعضاء العائلة الإسلامية الكبرى. لأنه إذا كان لا يتكلم بهذا اللسان في المعاملات اليومية الجارية سوى الآسيويين والافريقيين بين نهري الفرات والنيجر، فمما لا مشاحة فيه أن النطق به جار على ألسنة المسلمين كافة فيما يرتلونه من الآيات القرآنية في بلاد الصين وإفريقيا الجنوبية من جهة، وبين جزائر الفيليبين ومراكش من جهة أخرى. فضلاً عن أن الكتابة بها عامة بين سائر المسلمين الذين يقرؤون كتاب الله. وإذا وجد بين الأمم المسلمة أمماً لم تتخذه لساناً لها في معاملاتها اليومية. فمما لا ريب فيه أن لغاتهم هي قد تأثرت تأثراً محسوساً بذلك اللسان، فإنها استخدمت الحروف العربية في تدوين لغاتها. ومن هذا الفريق الأتراك والفارسيون، والماليزيون، واستعارت كثيراً من الألفاظ والكلمات العربية حتى أنك لتجد هذه الكلمات شائعة ومتفشية، في لغة الأورد والهندية، ولغة السواحلية وغيرهم من بربر إفريقيا.

ثم إن أساس الدين الإسلامي هو التوحيد، وعماده وحدة التعاليم، وإن يكن ثمة اختلاف في مذاهبه وطرائقه. ولكن المسلم فيما بين شمال آسيا، وجنوب إفريقيا. وبين سواحل المحيط الهادي، وشطوط الأقيانوس الهندي، وبين البحر الأبيض المتوسط والأقيانوس الاطلانطي. وبالجملة حيثما يوجد مسلم يلقى أقواماً يفهمون مراميه، ويبادرون إلى معونته.

* * *

والمسلمون منذ نهض بهم الإسلام لم يروا أمامهم من السبل ما يجدر بهم أن يتسابقوا فيه شوطاً طويلاً سوى الانكباب على العلم، والعكوف على العمل لما فيه خير الإنسانية. وقد ورثوا علوم اليونان المستفيضة، ولم

يكتفوا بأن يحرصوا عليها. بل مدوا في أطرافها، ووسعوا في نطاقها، وأتوا فيها بالعجب العجاب. وقد استبقوا ثمار هذه الأعمال الجليلة، دانية القطوف بما شادوا من المؤسسات الضخمة، ودور الكتب والمدارس الأهلية بالطلاب، وقد بلغ من تعهدهم معاهد العلم بالرعاية أنهم أنشأوا في بغداد مدرسة للمترجمين والمعربين، وجامعة تضم بين جدرانها ستة آلاف طالب من جميع الطبقات. كانوا يتلقون العلم مجاناً، وأقاموا المراصد الشامخة البناء لرصد كواكب السماء، وأينعت ثمار العلوم الرياضية وأبرزوا من حيز العدم العلوم الكيمية، وشادوا المستشفيات والملاجىء. وتفننوا في أساليب الأبنية، واستنبطوا لها كل ما راق الناظر، ووافق الذوق والخاطر، وبرعوا في علم الحيل (الميكانيكا) براعة لم يسبقهم إليها سابق، ولم ينافسهم فيها منافس، وكفى ما صنعوا من ساعات ضبط الوقت، وما مهروا فيه من الدقة في نسيج المنسوجات الفاخرة. والطنافس الثمينة، برهاناً على حوزهم قصب السبق في ميادين العلوم والفنون.

٣ ـ أما الدكتور جورج سارطون. فقد عرض لمنهج الإسلام في البحث العلمي عرضاً وافياً منصفاً. وسارطون عالم بلجيكي الأصل. ولد عام ١٨٨٤ وأحرز عام ١٩٠٦ درجة دكتور في العلوم، وأتيح له عام ١٩٣١ أن يزور بلاد الشرق العربي حيث تعمق في دراسة العربية والإسلام.

وفي كلية المقاصد الإسلامية في بيروت ألقى محاضرة تحدث فيها عن مقام العرب في العلوم الطبيعية، فكشف صفحة زاهرة من صفحات الحضارة الإسلامية.

وأبرز مؤلفاته، «مقدمة لتاريخ العلم» وفيه أنصف حضارة العرب والإسلام وقد أصدر منه ثلاثة أجزاء. وقد أثرنا أن نلخص مفهومه لتراث العلم ومشاركة المسلمين فيه:

يقول: ينتمي بعض عمالقة العصور الوسطى إلى الحضارة الغربية. فكان منهم الرياضيون والفلكيون. أمثال: الخوارزمي والفرغاني والبتاني. وكان فيهم الفلاسفة أمثال الفارابي، والغزالي. وابن رشد، وابن خلدون. كما كان فيهم الأطباء أمثال: الرازي وعلي بن عباس وأبو القاسم وابن سيناء. ويفوق حصر الكل هذا بكثير. ولم يقنع العرب بالعلم الإغريقي والهندي. هم أعجبوا بالكنوز التي وقعت بين أيديهم واحترموها. إلا أنهم كانوا عصريين ومهتمين بالعلم. مثلما نحن اليوم، فرغبوا في المزيد، هم نقدوا أقليدس وأرشميدس، وناقشوا بطليموس وحاولوا تحسين الجداول الكلية، وحذف مواطن الخطأ المستترة في النظريات المقبولة، وساعدوا على تطور الجبر، وحساب المثلثات، وهيأوا الطريق أمام علماء الجبر في أوروبا في القرن السادس عشر، كما أتيحت لهم الفرصة لتحديد مفاهيم جديدة، ووضع مشكلات جديدة، وإضافة إضافات جديدة إلى التراث السابق.

وللحضارة العربية أهمية خاصة عند دارسي التراث الإنساني بصفة عامة، ولهؤلاء الذين يهتمون بإظهار تكامل الجهود الإنسانية مرة أخرى في وجه الأقطار الوطنية والعالمية، وعلى حين كانت الحضارة اللاتينية حضارة غربية، والحضارة الصينية حضارة شرقية، وكانت الحضارة العربية غربية شرقية معاً بسبب امتدادها على طول الطريق من المغرب الأقصى إلى الشرق الأقصى، وعلى حين كانت الحضارة اللاتينية حضارة البحر المتوسط، والمحيط الاطلنطي، وكانت الحضارة الهندية حضارة المحيط الهندي، وكانت حضارة الشرق الأقصى حضارة المحيط الباسفيكي بآفاق البحارة العرب كانوا يملأون كل محيطات العصور الوسطى، وعلى حين كانت الحضارتان اللاتينية واليونانية مسيحيتين. والحضارة العبرية يهودية، وحضارة شرق آسيا بوذية. فإن الحضارة العربية كانت إسلامية في المحل

الأول، وإن لم تكن إسلامية تماماً، ممتدة بين مسيحيـة الغرب وبـوذية الشرق، مجاورة لها في آن واحد منهما.

وقد ظهر الدين المسيحي في الشرق الأدنى، فحمله القديس بولس إلى الغرب، حيث تطور هناك باعتباره ديناً غربيًّا. وعلى العكس من ذلك. فقد نشأت البوذية في الهند، ثم رحلت نحو الشرق، وكما أن تـاريخ المسيحية ضروري لفهم تطور حضارتنا نحن. فإن تاريخ البوذية ضروري لفهم حضارة الشرق الأقصى، وكان الدين في الحالين هو الذي حمل العلم على جناحيه. أما الدعوة الإسلامية التي أحيت عقيـدة التوحيـد، فإنها نجحت أعظم نجاح، ونفذت أعمق نفاذ إلى ممالك الغرب المسيحية، وممالك الشرق البوذية على السواء. وبينما كانت الحضارة الهندية مقفلة على نفسها. وأكثر منها في ذلك الحضارة الصينية. فقـد اختلطت الحضارة العربية بالحضارة اللاتينية اختلاطاً كثير التشابك. فإذا كان بالإمكان أن نستبعد ما حدث في الهند والصين من تطورات، حين نكون بإزاء تفسير الحضارة الغربية. فإن استبعاد التطورات العربية ليس في استطاعتنا. أن قصة الحضارة العربية تيسر لنا فهم حضارتنا، لأنها ما هي إلا جزء داخلي منها.

وإذا كانت اللغات التي كتب بها العلم والفلسفة في العصر الوسيط لغات أربعاً هي: اليونانية والعربية، واللاتينية والعبرية، وكانت كلها ذات أهمية. فإن أهمها جميعاً كانت هي اللغة العربية. وقد انفصل الكتّاب اللاتينيون عن المنابع الإغريقية حتى نضب علمهم أو كاد باللغة اليونانية. وفقدوا كل وسائل الاتصال بالمنبع الرئيسي للعلم لولا العرب.

وكما أن المسلمين تحققوا في حاجتهم إلى العلم لكي يقيموا حضارتهم قد تحقق اللاتينيون كذلك من حاجتهم إلى العلم «العلم العربي» فكانت

ضرورة لفهم اللغة العربية. إن العلم قوة. وقد أدرك الحكام المسلمون ذلك منذ المبدأ.

معجزة العلم العربي

٤ - وفي بحث آخر لجورج سارطون يكشف جـواذب أخرى عن موقف الإسلام من العلم - يقول: أستطيع أن أؤكد أنه لم يتح لنبي من قبل ولا من بعد أن ينتصر انتصاراً تامًّا كانتصار الرسول محمـد، وأن الاصرار على تفوق اللغة العربية خاصة، أو على حاجة الدين إليها هو الذي جعل لها انتشارها الحاضر، ثم حفظ لها التفوق قروناً عدة.

يجب أن نقف لحـظة لأسرد عليكم حـادثـة واحـدة من أخصب الحوادث الكبرى في تاريخ الإنسانية، وهي: «ظهور الإسلام» فقد ولد أبو القاسم محمد بن عبد الله القرشي - ﷺ - في مكة نحو (٥٧٠ م). ثم صرّح بالدعوة نحو عام (٦١٠ م) وعمره إذ ذاك أربعون سنة، بعد أن عظمت خبرته بالناس، وامتلأ صدره بإيمان متقد وطيد، في ذلك الحين كانت «مكة» المركز الرئيسي للتجارة في شبه جزيرة العرب، وسلك أهل مكة مع محمد ﷺ، كما سلك أكثر الأقوام مع أنبيائهم، ثم هاجر النبي إلى يثرب التي أصبحت تدعى منذ ذلك الحين، مدينة الرسول.

أما اسم هذا الدين الجديد فهو «الإسلام» ومعنى «الإسلام» أن يسلم الإنسان نفسه إلى الله. أما اسم أتباعه فكان مشتقاً من المصدر نفسه «المسلمون» وقد كان الإسلام كما أوحى به إلى رسول الله، وكما صـدق به رسول الله «ديناً بسيطاً نقيّاً».

ولكي أدل بأمثلة على عظمة الرسول. أتحدث في المرتبة الأولى عن

«عبقرية اللغة العربية» ففي المرتبة الأولى لم يكن الرسول ﷺ يعرف لغة سوى لغته. ثم إن الإسلام نزل على الرسول عليه الصلاة والسلام باللغة العربية: لغة القرآن ولغة الوحي ولغة أهل الجنة. ومن ثم أصبحت اللغة العربية من اللغات البارزة في العالم، وإحدى الوسائل الأساسية للثقافة في العصور الوسطى، وهي إلى اليوم لم تزل لغة أمة موزعة في جميع بقاع الأرض.

وإن اللغة الوحيدة التي عرفها رسول الله ﷺ كانت من أجمل اللغات في الوجود. إن خزائن المفردات في اللغة العربية غنية جدًّا، ويمكن لتلك أن تزداد بلا نهاية. وذلك لأن الاشتقاق المتشابك، والأنيق، يسهل إيجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة.

ولغة القرآن على أنها لغة العرب، كانت بهذا التحديد «كاملة» وها نحن هنا أمام اتفاق عجيب. فإن الرسول ﷺ مع أنه أميّ كان يملك ناصية اللغة. إذ أتاه الله بياناً ووهب اللغة العربية مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحي الإلهي أحسن تدوين. وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة.

أما في المقام الثاني فقد جعل الإسلام «الحج» أمراً سهلاً نسبيًّا، لأولئك الذين يعيشون نسبياً في شبه جزيرة العرب، ولكن لما انتشر المسلمون في بقعة إسلامية من الأرض. أصبح أمراً فيه شيء كبير من المشقة، ينطوي على مصاعب لا تصدق، وعلى أنواع من الحرمان من أسباب الرفاه. ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من الناس. وهذا يبعث حقاً على الدهشة كانوا يقومون بالحج على الرغم من كل عائق. وفي أثناء الموسم الذي خص بهذا الواجب المقدس كانت مكة والمدينة تبدوان مكان انعقاد مؤتمر دولي. وهناك كان المهتمون بالقضايا المتشابهة يجتمعون ويتبادلون الآراء.

وخلاصة القول أن الرسول ﷺ جاء بدين توحيدي، ثم أنه شعر بتفوق اللغة العربية من غير أن يكون عارفاً بلغة غيرها. كذلك نجح في الدعوة إلى إيجاد مركز ثقافي للإسلام في الحج.

واسمحوا لي أن أؤكد أنه لم يتح لنبي قبل، ولا من بعد أن ينتصر انتصاراً تاماً كانتصار الرسول محمد، إن الإصرار على تفوق اللغة العربية - خاصة - أو على حاجة الدين إليها في انتشارها الحاضر، ثم حفظ لها هذا التفوق قروناً عدة. ومن أجل ذلك لم يكن محمد نبي الإسلام فحسب، بل نبي اللغة العربية. ولقد قبلت القبائل العربية الدين الجديد بسرعة مدهشة. وهكذا وجدت هذه القبائل نفسها للمرة الأولى في تاريخ وجودها موحدة على أساس متين. على أساس الدين، ولقد بدأ المسلمون التاريخ بالسنة الإسلامية بعد سبع عشر سنة فقط من الهجرة حين احتاج الغربيون إلى ألف عام لوضع تقويمهم. ولا ريب أنه مما سهل وضع التقويم الإسلامي، وورود الحث عليه في القرآن، ولذلك كان جزءاً أساسيًّا من الإسلام، يقصد الآية﴿إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾.

ولقد بلغ المسلمون ما يجوز أن نسميه (معجزة العلم العربي) وقد أوردت كلمة «معجزة» لترمز إلى تفسير ما بلغ إليه المسلمون والعرب من الثقافة والعلم، مما يخرج تقريباً عن نطاق التصديق. وليس لذلك شبه في تاريخ العلم كله، ويجب أن ندرك أن ذلك التطور الذي لا يكاد يصدق في العلم العربي لم يبدأ إلا منذ القرن الثاني للهجرة.

ويحاول نفر من المؤرخين أن يبخسوا قدر هذا الإنتاج العظيم بادعائهم أنه لم يكن فيه ابتكار ما. وبأن العرب لم يكونوا سوى مقلدين. إن هذا الحكم ينطوي على خطأ فادح. فمن بعض الوجوه ليس ثمة شيء يمكن أن يعد ابتكاراً صحيحاً من أكثر من ذلك الظمأ الذي تملك على القادة العرب حواسهم في سبيل المعرفة، على أننا لا نشك أن قسمًا من

هذه المعرفة احتاج إليه العرب حاجة مباشرة للإدارة والحكم.

وأعظم الابتكارات العربية في الرياضيات والفلك علم الحساب الجديد، وعلم المثلثات الجديد. والواقع أن العرب لم ينسخوا من المصادر اليونانية والسنسكريتية نسخاً، ولو أنهم فعلوا ذلك لما جاءوا بفائدة. ولكنهم جمعوا بين المصدرين، ثم لحقوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية. وإذا لم يكن هذا الذي فعله العرب ابتكاراً فليس في العلم إذن ابتكار على الإطلاق.

أما ذروة الفلسفة العربية والحكمة العربية، فبلغت مداها على يدي رجلين غربيين. ومن غريب الاتفاق أن يولد هذان الرجلان على مدى بضع سنوات، وفي مدينة واحدة هي «قرطبة» التي كانت أعظم المدن في غرب أوروبا بهاءاً وعظمة، والتي كانت المنافسة الغربية لبغداد، وقد ثبت بالبراهين الوافية أن ما وصل إليه المسلمون من التقدم الفكري والعلمي كان في العصور الوسطى في غاية الأهمية، التي برهنت أن ثلاثة قرون على الأقل من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر الميلادي شهدت تفوق العلم عند العرب.

ويقارن جورج سارطون بين سماحة الإسلام وبين موقف غيره من الأديان من العلم فيقول: إن «ابن النفيس» قد اكتشف الدورة الدموية الصغرى. قبل أن يعرف ذلك ميخائيل سرفيت الإسباني بمائتين وخمسين عاماً. وقد عرف الغرب لابن النفيس فضله في ذلك. بينما سرفيت الإسباني أحرق علناً في جنيف بسويسرا عام ١٥٥٣ م.

أما التشريح فقد كان في أوروبا ممنوعاً البتة. فإذا جئنا إلى الإسلام رأينا أن صناعة التشريح قد بلغت فيه الذروة، وخصوصاً في المغرب. وما يقال عن الطب والتشريح عامة يقال عن أمراض العين خاصة. فإن

المسلمين كانوا لا يزالون حتى القرن الثالث عشر قادة العالم في أمراض العيون.

أما اللغة العربية فقد استمرت حتى القرن الرابع عشر تحتل مكاناً مرموقاً في عالم التأليف العلمي إذ كانت اللغة الثانية بعد اللغة اللاتينية من حيث الاتساع. أما من حيث التأليف فقد وجب أن تكون بلا ريب أرقى من اللاتينية يدلنا على ذلك كثرة ما نقل من كتب العلم والفلسفة في العصور الوسطى من العربية إلى اللغتين اللاتينية والعبرية، ومع أن دانتي الليجيري شاعر إيطاليا لم يكن يعرف العربية. فإن كتابه: «الكوميديا الإلهية» متأثر بالإسلام إلى حد بعيد. وكذلك استمر أثر «ابن رشد» بارزاً في القرن الرابع عشر. والحق أنك لا تدرك عظمة العرب العلمية حتى تدرك الروح التي كافحوا بها في سبيل العلم. لقد عدت المعارك التي خاضها العرب ضد الفرنجة في الأندلس وحدها (٣٧٠٠ معركة) وأن أمة تكون أيديها مغلولة بثلاثة آلاف وسبعمائة معركة، ثم لا تنسى رسالة العلم المقدسة. بل تبلغ بالعلم والتفكير ذروة الرقي والتقدم لأمة عظيمة حقًّا.

٥ ـ أما الدكتور فرانز روزنتال فإنه يعالج مناهج العلماء المسلمين في مجال العلم والتأليف والتحقيق العلمي على نحو يدل على قدر وافر من المراجعة والتحقيق، والدكتور روزنتال ألماني الأصل مولود عام **١٩١٤** في برلين. وقد عمل أستاذاً للغات السامية بالولايات المتحدة. وأستاذ اللغة العربية في جامعة بنسلفانيا. ثم شغل كرسي اللغات السامية في جامعة بيل وله أبحاث متعددة في الفكر العربي الإسلامي. أهمها كتابه عن مناهج المسلمين في كتابة التاريخ وكتابه مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي.

إن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو لنا جلياً في حقل المعرفة

التجريبية ضمن دائرة ـ ملاحظتهم، واختبارهم، فإنهم كانوا يبدون نشاطاً واجتهاداً عجيبين حين يلاحظون ويمحصون. وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة، أو أخذوه من الرواية والتقليد. ولذلك فإن أسلوبهم في البحث أكبر ما يكون تأثيراً عندما يكون الأمر في نطاق الرواية والوصف.

ولذا يحتل التاريخ والجغرافية المقام الأول في أدبهم وبصفتهم أصحاب ملاحظة دقيقة، وبصفتهم مفكرين فإنهم قد أتوا بأعمال رائعة في حقلي الرياضيات والفلك وللسبب ذاته نجح العرب في التشريع وفي وضع قواعد اللغة من صرف ونحو في شكل شامل محكم. إن الغاية يجب أن تكون عند المسلم محددة واضحة قبل الشروع في أي بحث، أما البحث الذي لا يعلم صاحبه إلى أين سيؤدي به، ولا النتائج التي قد يسفر عنها. فيحرم في الإسلام، وحاجة هذا العلم أن يعرف الإنسان أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وأعتقد أن العقيدة بالقضاء والقدر لم تؤثر التأثير السيء في النشاط الفكري الإسلامي طيلة قرون عشرة ازدهرت فيها الحياة الفكرية. ومن الجلي الظاهر أننا لن نستطيع فهم الشرق والعرب والمسلمين جميعاً فهماً صحيحاً إذا ظل التحيز والتعصب مسيطرين على عقولنا. ومن المزالق التي يندر أن يتحاماها الباحثون الغربيون عن تقديرهم البحث العلمي عن المسلمين، أنهم يضعون مقاييس أشد صرامة من تلك التي نطبقها على ذواتنا نحن الغربيين.

ويمضي الدكتور روزنتال فيقول: لقد كان المؤرخون المسلمون كما كان علماء الدين أيضاً يعتمدون على الوثائق المدونة، ولم يكن للمعارف التي تعتمد عليها الذاكرة شأن في تآليفهم، ولم يستنكف المؤلفون المسلمون عن ذكر الجزازات التي كانوا يدونون عليها الملاحظات، أو ينسخون فيها

المقتبسات عن الكتب التي كانوا يقرؤونها. وينبغي لطالب العلم المسلم أن يعني بتحصيل الكتب المحتاج إليها في العلوم النافعة ما أمكنه شراء أو إجارة أو إعارة، لأنها آلة التحصيل، ولا يجعل تحصيلها وجمعها وكثرتها حظه من العلم، ونصيبه من الفهم، ويستحب إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه فيها ممن لا ضرر منه بها، وإذا استعار كتاباً فلا يبطىء به في غير حاجة، وإذا طلبه المالك فيحرم عليه حبسه ويصير غاصباً له، وقد جاء في ذم الإبطاء برد الكتب المستعارة عن السلف نظمًا ونثراً كثيراً. ولا يجوز أن يصلح كتاب غيره بغير إذن صاحبه، قلت: وهذا محله في غير القرآن. فإن كان مغلوطاً أو ملحوناً فليصلحه. إذ لم يكن خط المصلح مناسباً فليأمر من يكتب ذلك بخط حسن، ولا يكتب شيئاً في بياض فواتحه ولا خواتمه، إلا إذا علم رضى صاحبه، ولا يعيره غيره، ولا يودعه لغير ضرورة، ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه، وإذا نسخ من الكتاب أو طالعه، فلا يضعه مفروشاً على الأرض. بل يجعله مرتفعاً. وإذا وضع الكتب مصفوفة، فلتكن على شيء مرتفع غير الأرض، لئلا تندى فتبلى، ويراعي الأدب في وضعها باعتبار علومها، فيضع الأشرف أعلى الكل، فإذا استوت كتب في فن، فليراع شرف المصنف فيجعله أعلى، وليجعل المصحف الكريم أعلى الكل، ثم كتب الحديث الصرف كالبخاري ومسلم، ثم تفسير القرآن ثم تفسير الأحاديث، ثم الفقه، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم النحو والتصريف ثم أشعار العرب ثم العروض، ولا يضع ذوات القطع الكبير فوق ذوات القطع الصغير، كيلا يكثر تساقطها. ولا يجعل الكتاب خزانة للكراريس، ولا مخدةً، ولا مروحةً، ولا مستنداً، ولا متكئاً، وإذا استعار كتاباً فينبغي أن يتفقده عند إرادة آخذة من ورقة محتاج إليها. وإذا اشترى كتاباً نظر أوله وآخره، ووسطه وترتيب أبوابه، واعتبر صحته، وإذا نسخ شيئاً من كتب العلم الشرعية، فينبغي أن يكون لها طهارة. مستقبل القبلة، طاهر البدن والثياب، والحبر والورق. ويبتدىء كل بكتابه «بسم

الله الرحمن الرحيم» وإن كان مصنفه تركها فليكتبها هو ثم ليكتب. قال الشيخ أو قال المصنف، ثم يشرع في كتابة ما صنفه، المصنف، وليختم بقوله: آخر الجزء «الأول أو الثاني» ويتلوه كذا وكذا إن لم يكن أكمل الكتاب فإن أكمله فليقل: «تم الكتاب الفلاني» ففي ذلك فوائد كثيرة. وكلما كتب اسم الله تعالى اتبعه بالتعظيم مثل تعالى أو سبحانه أو عز وجل، أو القدسي، أو تبارك. وكلما كتب اسم النبي ﷺ، كتب بعد الصلاة عليه والسلام، ولا يسأم من تكريرها. وإذا مر بذكر أحد الصحابة كتب رضي الله عنه. وإذا مر بذكر أحد من الأئمة والأعلام كتب «رحمه الله».

ويمضي فيقول: ولا يهتم المشتغل بالمبالغة في حسن الخط، وإنما يهتم بصحته وتصحيحه، ويتجنب التعليق جدًا، وهو خلط الحروف التي ينبغي تفرقتها، ولا يكتب الكتابة الدقيقة، لأنه ربما لم ينتفع به وقت حاجة الانتفاع به من كبر وضعف. والكتابة أولى بالحبر، وينبغي ألا يكون القلم صلباً جدًا، فيمنع سرعة الجري، وعلى الكاتب مقابلة كتابه بأصل صحيح موثوق به.

وينبغي أن يفصل بين كلامين أو حديثين بدائرة أو قلم غليظ، ولا يواصل الكتابة كلها على طريقة واحدة. ولا بأس بحواشي الكتاب من فوائد متعلقة به. وعليه ألا يكثر الحواشي كثرة يظلم معها الكتاب. ولا بأس بكتابة الأبواب والتراجم والفصول، ونحو ذلك باللون الأحمر، فإنه أظهر في البيان، وفي فواصل الكلام. وفي مجال المخطوطات كانت الدقة والأمانة في النسخ من الشروط الأساسية التي يجب توافرها. فقد يقصر الناسخ المحترف أحياناً في واجبه من هذه الناحية، ولكن قل أن تجد ناسخاً كان يتعمد الأخطاء قصد تغيير نص أو تحريفه، وكان العالم المسلم حريصاً على أوثق النسخ لاستنساخها.

وكانت أعظم النسخ قيمة تلك التي كتبها المصنف نفسه، وعليها

توقيعه، لم تأتِ في الدرجة الثانية، وتكاد تحل محل المخطوط الموقعة، المخطوطة التي نسخها أحد الطلاب المصنف كما سمعها منه إملاء في حلقة الدرس أو بإشراف المصنف نفسه.

وبصورة عامة نستطيع أن نقول: إن «العلماء المسلمين» كانوا حذرين حريصين على ألا يمسوا النسخة الخطية بإصلاح أو تعديل.

* * *

وقد عني علماء الحديث والفقه في الدرجة الأولى بالأمانة والدقة في ذكر المصادر المأخوذ عنها، لأن «الأسانيد» هي جزء من مادة البحث، وكل علم آخر له علاقة مباشرة بهذين العلمين «الحديث والفقه» تأثر إلى حد بعيد بالأسلوب المتبع في درسها ومعالجتها. مثال ذلك كتب «التراجم» التي نشأت بدافع علمي الحديث والفقه. فإن أصحابها كانوا يعنون عناية خاصة بذكر المصادر التي يأخذون عنها.

أما أصحاب الكتب التاريخية، فإنهم كانوا شديدو الحرص على ذكر المصادر التي يأخذون عنها، وكان المؤلفون الذين يحرصون على ذكر مصادرهم يشعرون بأنهم قاموا بما عليهم، وفي أحيان كثيرة لم يعد العلماء يعتبرون العبادة «والله أعلم» تعبيراً مرضياً عند التحفظ أو عدم الجزم بالرأي.

أما النقل من الذاكرة، فلم يكن يعتبر عند العلماء المسلمين نقلاً دقيقاً، وكانوا يشيرون إليهم، وكانوا يقولون صراحة إذا نسي أحدهم المصدر الذي نقل عنه نصاً، كما فعل البيروني. وإذا أرادوا الإشارة إلى غاية اقتباس اقتبسوه مقتضباً من مصدر آخر قالوا «انتهى ملخصاً».

ومن الواضح أن العلماء المسلمين كانوا يقدرون أهل العلم من غير دينهم، ويحترمون الثقات منهم أيما احترام. وقد ألف العلماء المسلمون كتباً

لدحض آراء معينة، وكلما رأى المؤلف موجباً للنقد، فإنه يثبت آراءه وملاحظاته، وكانت القوائم النقدية لكتب المراجع تحتوي على تقدير المؤلف لكتب من سبقه من العلماء، يذكرون هذه الكتب المراجع للتدليل على أن الموضوع الذي سبقت معالجته على أيدي القدماء ما ينبغي أن يعالج مرة أخرى على ضوء المعارف الجديدة.

* * *

وبصورة عامة نستطيع القول بأن العلماء المسلمين حرصوا الحرص كله على الحفاظ على الأفكار والأخبار التي كانوا يعتقدون أن لها قيمة فعلية. . وكثيراً ما كان العلماء المسلمون يحاولون وضع مقاييس لتقرير صدق المعلومات لشعورهم بضرورة ذلك. عندما يجابهون المشاكل التاريخية التي يبحثونها. ويعتقد «الطبري» أن الظن والحدس لا يصلح أن يكون حكمًا في إثبات الحقائق. وأن الحقائق لا يمكن الحصول عليها إلا بواسطة المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا. ويوصي «رشيد الدين» عم «ابن أبي أصيبعة» المؤلفين والمؤرخين أن ينظروا في كل خبر نظراً عارياً عن محبة أو بغض، وأن يزنوه بميزان العقل والقياس وأن يتفحصوه.

ومن الظاهر أن أقوال المفكرين المسلمين في ترجمة حياتهم، تذكر لنا الصراع الفكري الداخلي حول الشك الذي كان يخامرهم، في بعض العقائد الدينية في فترة من فترات حياتهم. وقد كانت الغاية المثلى للتربية عند المسلمين أن يقرب الإنسان من الكمال ما أمكنه الاقتراب في كل ناحية من نواحي العلم في سنّ مبكرة جدًّا. فإن ابن سينا يباهي بأنه كان يجيد معرفة كل علم وفن يخطر بالبال. ولكن أكثر العلماء المسلمين لا يشاطرون ابن سينا رأيه في أن تحصيل جميع العلوم، واتقان كل الفنون أمر يسير كما تصوره هو، فإن كثيرين منهم قضوا الحياة كلها في التحصيل، ويقول القاضي الفاضل «البيساني» في رسالة بعث بها إلى عماد الدين

الأصفهاني «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا المكان لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن. ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل» فقد كان العلماء المسلمون يرون أن التغيير هو الذي يتحكم في العلاقة بين الأجيال المتتالية، ويقول: (الأزدي) في كتابه (تاريخ الممالك الإسلامية): إن الزمن لا يقف، بل إن صفته الدائمة التغيير، ولم تكن فكرة التطور الفكري المستمر من جيل إلى آخر فكرة غريبة كلياً عن التفكير الإسلامي وكان (الرازي) يرى أن تاريخ الفلسفة بناء متواصل على أسس وضعتها الأجيال السابقة، وتأخذ نظرية ابن خلدون فكرة التطور التدريجي بعين الاعتبار في مجال الطب والكيمياء لم تكن فكرة التطور والنمو التدريجي غريبة عند العلماء المسلمين. وقد اعتبروا بلوغ الكمال بمعنى أن المتأخر يتمم عمل المتقدم هو الصفة الرئيسية التي يتصف بها التطور والنمو من جيل إلى جيل.

وقد كانت نشأة العلوم في نظر العلماء المسلمين نتيجة السعي والجهد العقلي عند الإنسان أو نتيجة وحي سماوي.

٦ ـ أما الدكتورة سجريد هونكه فإنها قد قدمت للغرب دراسة خصبة ضخمة كشفت فيها بإنصاف عن دور المسلمين والعرب في مجال البحث العلمي ـ وهونكة باحثة ألمانية درست في جامعة برلين الفلسفة والتاريخ، ونفسيات الشعوب، وعن طريق أطروحة الدكتوراه التي تقدمت بها. وموضوعها (الأثر العربي في الشعر الغنائي الأوروبي) تفتح الطريق أمامها إلى معرفة قدر العرب والمسلمين، وفضلهم على الحضارة. ومن أجل استكمال البحث قامت (هونكه) برحلة إلى العالم الإسلامي. وتعرفت على ثقافة أهله. وتقول إن الذي دفعها إنصاف الفكر الإسلامي أنها لم تجد في المكتبة الأوروبية كتاباً شاملاً يوضح فيه هذا القطاع من الفكر، ويبرز هذه الحقائق التاريخية. وتقول: لو أنك اطلعت يوماً على كتب التاريخ التي

يتداولها تلامذة المدارس في أوروبا لوجدت أن ذكر العرب كشعب وحضارة وثقافة يرد على أنها علاقة عداء وحروب فقط. أضف إلى ذلك تلك الترسبات المتراكمة على عقول الأوروبيين. والناتجة عن صراع قديم. ومن خرافات خرقاء. أضف إلى ذلك أثر الدعاية السيئة ضد العرب، وأثر التصورات الغربية عن الشرق بلياليه وحريمه وأساطيره. والجهل الذي لدى الأوروبيين بحقيقة الماضي والحاضر، لأجل هذا كله آثرت أن أطلع أبناء أمتي على هذه الحقائق.

وتقول الدكتورة هونكه: يبدو أن الأوان قد حان بالنسبة للغرب. لكي يتحدث بكل صدق وإخلاص عن العرب. هذا الشعب الذي أثّر بكل عمق في مجرى الأحداث العالمية، والذي يدين له الغرب والإنسانية جمعاء بالشيء الكثير، ولعل التعصب هو الذي حمل الغرب دائمًا على تشويه منجزات العرب العظيمة. وطمس مساهمتهم الأساسية في الحضارة الأوروبية. وأن طبيعة العلاقات بين الغرب والعالم العربي منذ ظهور الإسلام إلى يومنا الحاضر لتبين كيف يمكن للعواطف والأهواء أن تملي التاريخ بصورة معينة.. أي بصورة مشوهة. وأبعد ما تكون عن الصدق.. ولكن هذه النظرة التي كانت سائدة في العصر الوسيط لم يعد يمكن القبول بها في الوقت الراهن.

وحين كانت أوروبا غارقة في ظلمات العصور الوسطى وجهالتها وقف العرب على أبوابها يرفعون مشعل الحضارة طوال سبعة قرون. ولشد ما يغبن حقهم من يكتفي بالقول أنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم بعد ما حفظوه من الدمار. فذلك يعني في الواقع التقليل من قيمتهم والسكوت عن الأمور الجوهرية في عملهم الحضاري، وجعلهم مجرد وسطاء ليس غير. والحقيقة أن سائر مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الغرب مدموغة بآثارهم.

إن قواميس اللغات الأوروبية تضج بالكلمات العربية سواء ما يتعلق منها بالحاجات اليومية أو الأطعمة أو الألبسة أو العقاقير، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالملاحة وفنونها واصطلاحاتها. وقد أخذ الغرب عن العرب فكرة البريد، كما نقلوا كثيراً من فنون الزراعة. وقد أخذ الغرب الأرقام الهندية في أواخر القرن الحادي عشر، وكانت معروفة عند الهنود منذ القرن السادس بعد المسيح، ويعود الفضل الأكبر في تعريف الغرب على الأرقام العربية إلى «الخوارزمي» الذي نقلت كتبه جميعاً إلى اللاتينية. وكانت مرجعاً هاماً للعلماء الغربيين، ولا يزال الغرب يعترف بفضل «الخوارزمي» هذا وما تزال كلمة «لوغاريتما» مشتقة من اسمه.

وكان العرب يعرفون النجوم وحركاتها، ويفهمونها أعظم من الإغريق والرومان، ويسمونها بأسمائها، ويجمعونها في كوكبات تمثل مشاهد من حياتهم اليومية. ولقد شيدوا مراقب أشهرها مراقب المأمون في بغداد ودمشق والعزيز والحكيم في القاهرة. والمرقب الذي بناه السلطان عضد الدولة في حديقة قصره في بغداد.

ونفخ العرب في العلوم الفلكية روحاً جديدة، وذلك بميلهم إلى الجمع والترجمة، وبه انتزعوا - من النسيان - ثروات القدماء العلمية، وإعانتهم على ذلك مواهبهم المرموقة للرياضيات، وحماسهم لحل المسائل بواسطة الحساب، ولعل الساعة التي أهداها هارون الرشيد إلى شارلمان عام ٨٠٧ م تشكل برهاناً ساطعاً على المقدرة الفنية التي توصل إليها العرب في ذلك الحين، وكان العرب يسعون إلى اكتشاف الجواب الوحيد على أية مسألة علمية معينة، ولا يكتفون من أجل ذلك بمشاهدة واحدة أو عشر مشاهدات، بل يقومون بالمئات منها. ولقد حسنوا دون انقطاع ما يملكون من أدوات المشاهدة، وبذلوا عناية أعظم في استقصاء السماء بحيث توصلوا إلى اكتشافات لا حصر لها. منها تحديد مدارات الشمس والقمر والنجوم

بصورة متزايدة الدقة، وتدقيق لوائح بطليموس ـ وتحسينها ووضع لوائح أخرى خاصة بهم. ظل الغرب يستخدمهـا حتى أيام كـوبر نيكـوس. وأشهرها لوائح الخوارزمي، ولوائح ابن يونس والبتاني.

* * *

ولقد توصل فلكيي بغداد في نهاية القرن العاشر إلى أقصى ما يمكن بلوغه دون عدسات أو مناظير. ولنذكر من هؤلاء الفلكيين «الفرغاني» الذي كان سباقاً إلى اكتشاف أن الشمس والسيارات ترسم مدارات في الاتجاه المعاكس للحركة النهارية. «وثابت بن قرة» الـذي حسب ارتفاع الشمس الظاهر وطول السنة الشمسية، و«البتاني» الذي حقق منجزات فلكية عديدة. و«البيروني» الذي صاغ نظرية دوران الأرض حول محـورها وحول الشمس «وابن الهيثم» الذي اشتهر في ميدان البصريات أكثر منه في مجال الفلك. فقد كان «ابن الهيثم» أول من قرر أن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين في اتجاه الأجسام المضيئة إلى العين التي تراها، بل بواسطة جسمها الشفاف، ووضع نـظرية الـظل. وكان سبـاقاً إلى استخدام الغرفة المظلمة في تجاربه. وفي مجال الجبر وقف الإغريق والهند عند حد محدود. ولكن العرب جمعوا بين حسّ الكميات الحسابية، وحسّ الكميات الهندسة. بحيث لم يخلقوا فروعاً علمية جديـدة فحسب. بل طوروا بعض الفروع الأخرى إلى درجة من النضج لم يبلغها الإغريق أو الهنود قط، ولهذا كان العرب لا الإغريق أساتذة الرياضيات في عصر النهضة، ويكفي أن نذكر هنا مؤلفات الجبر لأبي كامل والبيروني وابن سينا وعمر الخيام الذي رفع الجبر إلى قمة لم يتمكن أحد من الارتقاء إليها حتى ديكارت الفرنسي في القرن السابع عشر.

وكان العرب أول من استخدم الفاصلة للإشارة إلى الكسور، كما أسسوا علم المثلثات والحساب الستيني وقسموا الدائرة إلى ١٦٠ درجة.

ووضعوا الحساب التفاصيلي الذي أسسه ابن سينا.

وأخيراً فإن نظريات «الفارابي» ـ أكبر المعلمين بعد أرسطو ـ في الفنون الموسيقية. قد قادته قاب قوسين أو أدنى من اللوغاريتم، وإن نظريته عن المقادير المتناهية في الصغر مع نظرية ابن سينا. قد ألهمت العلماء الغربيين الذين تعمقوا بعد عدة قرون في هذه الميادين واستثمروها.

لقد كان النور الذي أحدثته الشرارات المنطلقة من العبقرية العربية فائقاً للغاية. ولعل الطب هو أهم مجاولات التفوق العربي.

في تلك الأيام كان منح البركة والتعاويذ والصلوات هي أساليب العلاج الرئيسية التي يطبقها أطباء الغرب في سبيل تخليص البشر من أدوائهم الجسدية.

ولقد كان العرب يمارسون التلقيح ضد الجدري حتى قبل الإسلام، ويكفي أن يذكر المرء «الرازي» الذي كان أحد الأطباء في كل الأزمان «وابن سينا» الطبيب الأكبر، و«ابن النفيس» الذي اكتشف دوران الدم الصغير قبل وليم هارفي الإنكليزي بأربعمائة عام. و«عبد اللطيف البغدادي» الذي قال: مهما كان احترامنا لجالينوس عميقاً، فإننا نفضل أن نصدق عيوننا الخاصة.

* * *

وكان العرب مهرة في الجراحة، وخاصة في أمراض العين، كما كانوا أول من طبق طريقة التخدير العام في العمليات الجراحية، كما كانوا يستخدمون التعقيم بواسطة الكمادات الحارة. بل لقد كانوا يطبقون طريقة المعالجة بمضادات الحيوية، وقد ترك العرب مؤلفات طبية تفوق مؤلفاتهم في أي ميدان علمي آخر. وقد خدمت هذه المؤلفات في تعليم أجيال عديدة من الأطباء الغربيين.

والعرب هم الذين نقلوا إلى العالم الغربي طراز الحكم المركزي السائد حالياً في سائر الدول الأوروبية كما علموه أنظمة الأموال والجمارك وسائر الشؤون المالية.

ولقد نادى النبي العربي بالطموح إلى المعرفة في كل مكان وزمان. لأن المعرفة تنير سبيل الإيمان، وهكذا لم ينصرم القرن الإسلامي الأول المكرس للفتوح، حتى ازدهر العلم العربي مثل محيط من الزهور. بينما كانت الكنيسة في الغرب تخنق العلم الوثني. كان العرب يستولون على الغنيمة الفكرية الضرورية من أجل ثقافتهم من الإغريق، ومن فارس، ومن لدن الصينيين والهند على السواء.

* * *

وكانت عملية إنقاذ هائلة حيث حفظ العرب مؤلفات القدماء من الدمار. لكنهم لم يخفوها تحت المكيال. بل أحيوها حين ترجموها إلى لغة القرآن الحية. وهذا ما يشكل الجذر الثاني للازدهار الفكري. لأن كل مسلم يجب أن يكون في مستطاعه قراءة القرآن وتلاوته باللغة العربية. وبالتالي أن يتعلم هذه اللغة بحيث أصبحت «روائع العلم» المترجمة في متناول سائر مواطني الامبراطورية العربية، وحين كان الغربيون يتباهون بجهلهم القراءة، والكتابة. كان الشعب العربي بأسره يؤم المدارس، ولا عجب بعد ذلك إذا ازدهرت الثقافة، وإذا عمد العرب بعدما استقوا من الينابيع المتوافرة من قبل إلى تفجير ينابيعهم الخاصة، وحين أخذت العرب هذه الأشياء جميعاً عنهم، فإنهم لم يكونوا مجرد وسطاء لنقلها فحسب، وإلا فإن الإغريق هم وسطاء أيضاً. والهنود كذلك، فكل عصر يستولي على الميراث العلمي السابق له، وبقدر ما يسقط هذا الميراث في يد خلاقه، فإنها تعدل في جوهره، وتحوله وفق ناموسها الخاص.

إن لكل عبقرية طابعها الخاص وطريقتها الخاصة. وأن مآثر العرب

الخالدة لتقوم في تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة للمعطيات العلمية الموروثة عن الإغريق، وأن العرب هم مبدعو «التجربة» بالمعنى الدقيق للكلمة، وهم الخالقون الحقيقيون للاستقصاء العلمي. فقد كانوا أول من جعل من الوقائع المعزولة عن متنها نقطة الانطلاق لكل بحث. وعندئذ أصبح الارتقاء الصبور من الخاص إلى العام. وأصبحت الطريقة الاستقرائية هي الطريقة العلمية الأساسية.

وأن الفكر الغربي لم يستيقظ من ذلك الخدر الذي أثقل عليه طوال قرون. بل طوال ألف عام. ويفرد جناحيه لكي يطير، إلا بعدما امتلك المعجزات العربية في الميادين التقنينية والإدارية، ثم تبنى هذه المعجزات على المستوى الحضاري.

٧ ـ أما العلّامة مسمر الذي كان رئيساً للبعثة المصرية في فرنسا عام ١٨٨٠ ـ فإنه قد تعرض للرد على الاتهامات التي وجهها (أرنست رينان) للفكر الإسلامي في محاضرة ألقاها في جامعة السربون، وردد فيها الكثير مما شملته كتب المبشرين وخصوم الإسلام، فيتصدى له عالم من بني جنسه باحث مقتدر. له مكانته العلمية. ففند ما أورده، ودحض ما ذهب إليه من شبهات.

يقول العلّامة مسمر: الحق أن الإسلام جاء ليوفق بين فريق كبير من بني آدم كان بعضهم يقاتل بعضاً بسبب تخالفهم في الأديان ولينشر العلم والحكم في أمم كانت قبل مجيئه تتخبط في دياجير الجهل.

ولما كان كلامنا موجهاً لمن يعرف التاريخ فلنقتصر على الإشارة إلى حالة العلم في القرن السادس من الميلاد ولنقل أن الجاهلية كانت متسلطة عليه، وأن الأفراد القليلين من الأذكياء في تلك الأثناء كانوا منهمكين في المجادلات الدينية، وإذا كانت قد نشأت للنصوص الغامضة في الدين

المسيحي تفسيرات لا يقبلها العقل، وكان المتوحشون من قبائل الجوشيين والهونبيين وغيرهم يجهزون على بقية ما كان أسسه الرومانيون من مدنيّة، فلا جرم كان العالم في هذا الوقت، أي وقت ظهور محمد في حاجة ماسة لمن ينقذه من الويلات التي كان فيها. ومن شطّ في هذا الموطن. وزعم أن محمداً كان مدعياً للنبوة. فقد زاد هذه المسألة تعقيداً بدون أن يحلها.

وقال: إن التوحيد الذي هو أساس الدين الإسلامي كان السبب الأول في نجاح دعوة محمد. وقد أصابه بعض المؤلفين في قوله: «إن اعلان محمد هذا التوحيد في عصر ملت فيه الأمم خرافات علم اللاهوت كان أفضل ما جاء به. فقد استثار العقول. حتى أنه ما كاد يفوه بالدعوة إلى توحيد الله، حتى استنار العالم بدعوته.

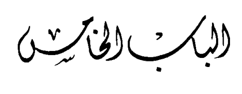
وفضل الدين الإسلامي يظهر مما جاء على لسان محمد ﷺ، وهو يسقط الأصنام التي كانت حول الكعبة. وهو: «قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً». وقوله: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. كلكم من آدم وآدم من تراب».

فهل يجوز لنا أن نجهل «حقيقة الإسلام» في عهدنا هذا. عهد المناقشات الحرة، والآراء المستقلة. فما علم نابليون بمعنى الإسلام حتى قال: النصرانية وعيد، الإسلام وعد. وما أذكى الكاتب (مراشي) الذي كان موجوداً منذ قرنين حين مدح الإسلام بقوله: إن الدين المحمدي حفظ ما كان معقولاً من الدين المسيحي وزاد عليه كل ما هو موافق لقانون الطبيعة. إلا أن هذا الكاتب لم يمكنه أن يعلل انتشار العلوم الذي صحب الإسلام منذ ظهوره، مع أن هذه العلل ماثلة في القرآن والحديث.

فإذا قيل أن ما في القرآن والحديث يوجد عند المسلمين قولاً لا فعلاً. قلنا إنك لو سألت أي سائح عن هذا الأمر لأجابك بأنه ما من

مسجد قديم إلا وفيه مكتب للتعليم. وكان من عوائدهم أن يحتفلوا أول دخول الطفل إلى المكتب فيولموا الولائم، ومن يتأمل آي القرآن يجد أن أساس الإسلام «التوحيد» وقطبية التآخي، وتحسين شؤون العالم تدريجياً بواسطة العلم. فهذه هي الأسباب الحقيقية لظهور الإسلام.

ويعرض الباحث للعلاقة الأكيدة بين الإسلام والعلم فيقول: إن صلة الإسلام بالعلم صلة جذرية. وإذا وقع العداء بين العلم وبين بعض الأديان. فإن الأمر على العكس من ذلك بالنسبة للإسلام: الذي تقوم بينه وبين العلم رابطة أكيدة. وعرض الباحث لما يتردد من اتهام الإسلام بالضعف نتيجة لفترة التخلف التي مرت بالمسلمين. وأعلن أن هذا القول باطل من أساسه. وقال: إن الدين الذي تحتفي به هذه الملايين العديدة من النفوس، وتدافع عنه بأموالها وأرواحها لا يمكن أن يكون على شفا الزوال. بل الحق أنه في طريق القوة والعلاء.



الاسلام والحضارة

كثيرون من كتاب الغرب أولئك الذين تناولوا موقف الإسلام من الحضارة من ناحية. وأثر الإسلام في بناء الحضارة الإسلامية. وقد اخترنا كاتبين علمين في هذا الصدد هما: الدكتور لويجي رينالدي والأستاذ رينيه ميليه.

أما الدكتور لويجي رينالدي فإنه يتحدث عن أثر مدنية الإسلام في الغرب فيقول:

بينما كان نجم المدنية الرومانية التي قامت على أطلال المدنيات القديمة قد أخذ في الأفول، وكانت أوروبا قد عادت وسقطت في ظلمات الجهل، كان المسلمون والعرب قد أخذوا يشرفون برؤوسهم من سواحل البحر الأبيض المتوسط، ولم يلبثوا أن قامت منهم تلك البعثة الخطيرة التي أيقظت الأمم الأوروبية النائمة. وأن ظهور المسلمين والعرب في الغرب لحدث جليل يستحق أن يذكر منا بالشكر والامتنان. لأن مدنية هذا الشعب العظيم كان لها تأثيرٌ، وأي تأثير في حياة الشعوب اللادينية.

* * *

كان العالم اليوناني وأخوه الروماني قد سقطا في كل مكان عندما أخرج «محمد العظيم» خلفاءه من أبناء الصحراء ونشرهم في أنحاء العالم، حتى شيّدوا ذلك الملك الكبير الباهر الذي كان يمتد في بلاد الهند إلى بلاد

الأندلس. ومن بحر الخزر حتى المحيط الأطلسي، وقد كانت سياستهم مع الشعوب المختلفة هي سياسة التقرب والتحبب. وذلك باحترام دياناتهم، وإعطائهم كامل الحرية في إقامة شعائرهم وقوانينهم وأنظمتهم، وتركهم لهم حريتهم الشخصية.

* * *

وقد أشار المؤرخ الإيطالي «اماري» في مؤلفه «المسلمون في صقلية» إلى أن الرعايا كانوا يعيشون في راحة وسرور تحت حكم أمراء المسلمين، وكانت حالتهم أحسن بكثير من حالة إخوانهم الإيطاليين الذين كانوا يرزحون تحت نير اللنجو رمانيين والفرغة، وبفضلهم تقدمت العلوم وارتقت الصناعات، وما تزال حتى الآن براءات ملوك النورمان مكتوبة باللغات العربية واليونانية. كذلك كانت «اللغة العربية» إحدى اللغات التي تضرب على نقوذهم. وعليها شارتا الإسلام والمسيحية، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط. بل كان يوضع عليها أيضاً نص قاعدة العقيدة الإسلامية بالعربية فقط وهي: «لا إله إلا الله. محمد رسول الله» كذلك استمر الأمراء الذين خلفوا النورمانيين في حكم البلاد على ضرب نقوذهم باللغة العربية.

ولقد كان ملكهم: فردريك الثاني كثير الاهتمام باللغة العربية وآدابها حتى ضرب فيها بسهم وافر، ولا يزال بين بعض أهل الجزيرة حتى الآن بعض عادات تشبه عادات اليمن. وقد ترك المسلمون عدداً عظيًا من كلماتهم في اللغتين الصقلية والإيطالية، ولا تزال عدة أماكن بصقلية تحمل أسماءها العربية كالقلاع مثلاً، قلعة النساء، وقلاع أخرى. وكذلك كلمة «مرسى» مثل «مرسى علي» وغيرها.

* * *

ولا تنسى أن العرب والمسلمين تركوا بعض الآثار في إيطاليا خارج

صقلية حيث وضعوا رحالهم فترة من الزمن، ولكن الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية في لغتنا الإيطالية التي تفوق الحصر. قد دخلت في اللغة لا بطريق العرب، ولكن بطريق المدنية التي كثيراً ما تؤلف وتواخي بين مظاهر الحياة المختلفة.

إن وجود هذه اللغات في اللغة الإيطالية دليل على ما كان للمدنيّة الإسلامية العربية من نفوذ عظيم في العالم الغربي، وبما كان من العلاقات التجارية بين بلادنا وبين المسلمين في المشرق. وفي إفريقيا الشرقية وصقلية.

ويستطرد لويجي رينالدي فيقول: وقد احتاج العلم الغربي حوالي عام ١٠٠٠ ميلادية إلى نفوذ إسلامي جديد، يتمثل ذلك اللقاء في «التهذيب العلمي والمدنية العربية» فإن شعب الصحراء العظيم ظهر على وجه الأرض بعد سقوط المدنيتين الرومانية واليونانية، واندثار معالمها. وبذلك قام المسلمون والعرب في ظلمات بربرية القرون الوسطى بإعادة نور الحضارة والمدنية الذي كان قد انطفأ في جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية. وقد أشار (بريس دافن) في كتابه عن (الفن العربي): أنه بعد سقوط الدولة الرومانية لم يكن هناك شعب يستحق أن يعرف غير الشعب العربي. وذلك أولاً لكثرة فطاحل الرجال الذين أخرجهم هذا الشعب العظيم. وثانياً لما أحدثته فنون هذا الشعب وعلومه من التقدم العجيب في العالم مدة قرون عديدة.

* * *

وفي أيام سقوطنا لجأ العلم إلى ظل الأديرة. وكانت مدنية العرب في القرنين التاسع والعاشر في الأندلس وصقلية قد بلغت أوج الكمال. فلما شعرنا بالحاجة إلى دفع هذا الجهل الذي كان يثقل كاهلنا تقدمنا إلى المسلمين ومددنا إليهم أيدينا، لأنهم كانوا الأساتذة الوحيدين في العالم.

وقرب العلم من إسبانيا وصقلية المسلمين إلى أوروبا. وقد تلقى جلبرت «سلفستر الثاني» دروسه كلها في مدارس العرب بالأندلس. ولما رجع إلى أوروبا. وأراد نشر ما أخذه من العلوم بين مواطنيه. ظهر لهم ما نشره بينهم غريباً جدًّا. وبينما كان الغرب في صراع مع العالم الإسلامي، والحملات الصليبية تذهب بعددها وعدّتها لانتزاع الأماكن المقدسة من أيدي العرب في الشرق. كان الغرب ينقل عن المسلمين العلم والعرفان.

ولقد كانت عادة العرب إذا دخلوا مدينة أن يؤسسوا فيها مسجداً ومدرسة. وما كان أعظم جامعاتهم في بغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وأشبيلية وصقلية. وكانت مدرسة القاهرة الجامعة المسماة «بيت زويلة» من أعظم جامعات العلم ومكانها الآن مسجد المؤيد. كذلك كان في الأندلس وحدها سبعون مكتبة، وكان في مكتبة قرطبة وحدها زهاء الستمائة ألف مجلد أيام الخليفة الحكم الثاني. الذي كان يرسل رجاله في جميع بلاد الشرق للبحث والتنقيب. وكان يجزل العطاء لهم كلما ظفروا بكتاب نافع. وقد أسس الحكم في قرطبة وحدها سبعاً وعشرين مدرسة، كان يتعلم فيها أولاد الفقراء مجاناً. حتى لقد كان كل واحد في الأندلس ـ كما روى دوزي ـ يعرف القراءة والكتابة. بينما كان الجميع في أوروبا حتى النبلاء لا يفكرون في التعليم، وكنت ترى في شخص الأمير أو الخليفة المسلم صورة الكاتب والشاعر والعالم. وكانت قصورهم محط رجال العلماء والفلاسفة، ولا يجد الإنسان صعوبة في التعرف إلى العلاقة بين الشعر العربي الأندلسي، والشعر البروفانسي لأن الشعر الإسباني والبروفانسي ينتسبان إلى الشعر العربي. ولقد أثبت المؤرخ «ماري» أن صقلية مدينة للعرب. وكذلك «إيطاليا» مدينة لصقلية بابتكار الشعر الوطني. وأن ذلك كان سبباً في نهوض الشعر الإيطالي، ولم يساعد العرب فقط على أنها من الشعر الصقلي والإيطالي، بل إنهم أمدوا قصصنا بشكلها ومادتها. فإنك لتجد

كتابهم «كليلة ودمنة» قد ترجم إلى كثير من اللغات. وهو أصل كتاب الطراز الأول لمحادثات الحيوان لمؤلفه فيرنسكو. وكذلك كتاب الفلسفة الأدبية لمؤلفه لدوني.

* * *

وقد أخذ من الأدب العربي أمثال: بوكاشيو ويوجيو وباندينو وبانلو ولافونتين. ووضعوه في كتبهم، ومن مراجعة رسالة للشاعر بترارك إلى صديقه الطبيب (جيوفاني دابادفا) يمكننا أن نفهم إلى أي حد وصل النفوذ العربي في إيطاليا. فإن الشاعر الإيطالي سجل الفخر الذي يرفع به العلماء والحكماء الإيطاليين إلى نجوم السماء علماء العرب وشعرائهم وفلاسفتهم ورياضييهم وخطبائهم.

وقد أعد (دانتي الليجيري) مكاناً مشرفاً لفيلسوف العرب (ابن رشد) إذ وضعه في قصيدته السامية (الكوميديا الإلٰهية) إلى جانب كبار العلماء والحكماء. ولا ننسى أن ابن رشد هذا هو مبتدع مذهب (الفكر الحر) وهو الذي كان يعشق الفلسفة، ويهيم بالعلم، ويدين بهما. وكان يعلمهما لتلاميذه بشغف. وكان بين فلاسفة العرب «الكندي» وقد وضعه العلّامة (كارتادو) بين الإثني عشر فيلسوفاً العظماء الذين ظهروا في العالم وكتاب (القانون) لابن سينا. كان يدرس في جميع الجامعات سواء في الشرق أو الغرب. وخصوصاً إيطاليا فإنه كان يدرس في جامعة سالرنو، أعظم مدرسة للطب في أوروبا.

* * *

وكان للمسلمين العرب الفضل في علم النبات، وعلم الكيمياء، وعلم الفلك، والهندسة وطريقة الحساب العربية. وفي اللغات العلمية في جميع مدننا الإيطالية لا تزال في معاجم اللغة كلمات كثيرة على أصلها

العربي كالطير والزعفران والزنجبيل والسكر والبن والقهوة. يرد إلينا من أمريكا ولكننا نفضل عليه البن العربي.

وكلمة «موسلين» اسم نسيج عربي كان يصنع في مدينة الموصل العربية. وكذلك كلمة (ركامو) ومعناها التطريز هي كلمة عربية، ولم يقتصروا على إجادة الفنون الجميلة. بل عنوا بها عناية كبيرة، ونبغوا فيها نبوغاً عظيمًا. وقد أتقنوا الموسيقى والنقش والحفر وهندسة المباني.

وقد يحزنني والله ويحزن غيري ممن ينصفون أن يكون بيننا نحن الغربيين من ينكرون فضل العرب والمسلمين على الحضارة. وهذا بلا شك افتراء ونكران للجميل، وما زال العربي يحتفظ بصفاته العجيبة. وذكائه النادر، ونحن لم نصل إلى ما وصلنا إليه من المعرفة إلا بفضلهم. ولا شك أنهم سينهضون لاستثمار هذه المدنية التي كانوا لها يوماً موحدين، وعلى إعلاء شأنها عاملين.

ويعرض الأستاذ رينيه ميليه لموقف الإسلام من الحضارة فيقول: لقد أتى المسلمون بعقائد سهلة ملائمة للفطرة، وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار. لقد جاءوا بمبدأ جديد، مبدأ يتفرغ عن الدين نفسه وهو مبدأ «التأمل والبحث».

في اعتقادي أن خطأ المشتغلين منا بالإسلام. هو درس هذا الدين مستقلاً عن الظروف التي كانت محيطة بظهوره. فلو عرفنا كيف كانت حال العالم حين ظهر لوقفنا على أسباب انتشاره المدهش. إن الذي ساعد على الانتشار أن الإسلام دين جاء بخلاف ما كان موجوداً. فقد اعتاض عن تعدد درجات الإدارة بسلطة واحدة يرجع إليها الحل والعقد في الأمور، ولم يقر وساطة بين الله والشعب، ولم يسنّ نظام الصوامع. وقضى على عادة التنسك والخروج من الدنيا. فقد قرر الاشتغال بالدنيا والآخرة معاً.

وبالجملة فقد أتى الإسلام بنظام ملائم لحاجات الناس، وهذا سر غلبته. ثم إن الإسلام أرجع الدين إلى حالته الطبيعية، ولم يأت بشيء من العقائد الفلسفية. بل قال بكل وضوح: لا إله إلا الله. وبذلك خلا الإسلام من الاعتقاد الذي قسم الدول.

* * *

أذكر أني أيام كنت أدرس تاريخ الإسلام كان الأساتذة يقررون سرعة انتشاره دون إيقافنا على أسبابه، وغاية ما كانوا يذكرون هو أن طبيعة العرب طبيعة حربية، وأن خيولهم جيدة تكاد تسبق ظلالها. مع أن الحقيقة أن الفتوحات العربية كانت على البغال.

إلا أن العرب أتوا بعقيدة سهلة التناول لا تثقل الجندي المجاهد، ثم إنهم فوق ذلك أتوا مشبعين بروح التسامح وذلك سر الانقلاب العظيم الذي أعطاهم ملك آسيا وإفريقيا ونصف إسبانيا.

ويمضي الكاتب فيقول: أتى المسلمون بعقيدة سهلة ملائمة للفطرة. وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار، فارتقت العلوم والفنون والآداب باجتهادهم الذي عجز عنه معاصروهم، وأتى ليُبَيِّن أنه كانت على أبصار أهل القرون الوسطى غشاوة من تنسك منعتهم من إدراك الأشياء على حقائقها.

وقد جاء المسلمون في الوقت نفسه بمبدأ في البحث جديد. مبدأ منبثق عن الدين نفسه هو مبدأ «التأمل والبحث» مالوا إلى الاشتغال بعلوم الطبيعة، وبرعوا فيها، وهم الذين وضعوا أساس الكيمياء وقد وجد فيهم كبار الأطباء ولفرط تقديرهم للحياة الدنيا نبع فيهم الشعراء المجيدين الذين قالوا شعراً قريباً من العقول يغذيها ويمتعها. وأنه أفضل من خيالات شعراء القرون الوسطى بألف مرة. ولا أطيل القول في الشيء المشهور من

أن «الحضارة العربية الإسلامية» بلغت شأواً عظيمًا في بغداد وقرطبة. وأول ما يتبادر إلى ذهن الباحث النزيه هو أن «الإسلام» أعطى أشهى ثمرة لما سرت إليه المدنية القديمة خالصة من الشوائب.

انظروا إلى قرطبة تلك المدينة التي سقطت الآن في حضيض الهوان. انظروا إليها في عهد الدولة الإسلامية عامرة آهلة، يبلغ عدد سكانها زهاء خمسمائة ألف نسمة. وعدد مساجدها ثلاثة آلاف، وعدد منازلها مائة وثلاثة عشر ألفاً. عدا (ثلاثمائة من الحمامات العامة). وإذا أردتم أن تقفوا على أخلاق أمراء المسلمين في تلك الدولة، ودرجة آدابهم ورقيهم فإليكم صورة ما جاء في وصية عبد الرحمن الأول أحد خلفاء قرطبة. وقد اخترتها عفواً من بين المستندات الكثيرة التي تتعلق بتاريخ الإسلام في إسبانيا.

تقول الوصية: ﴿إن المُلْكَ بيد الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء﴾ فعليك بتقوى الله وطاعته. واعمل خيراً للناس كافة، خصوصاً أولئك الذين وكل الله شؤونهم إليك، واعدل في حكمك وقضائك بين الفقراء والأغنياء، ولا تول أمور الناس إلا من عرفت فيهم الحكمة والخبرة. عامل جندك بالشدة واللين معاً، ليكونوا حماةً للدولة، لا عوناً للظلمة من الحكام. وواجب عليك أن تظل الزراع بحمايتك. وأن تودهم بمعونتك لأنهم مورد حياتنا. واحرص على محبة الرعية لك وتعلقهم بك».

ويمضي الكاتب مستعرضاً أثر الحضارة الإسلامية فيقول: لبثت هذه المدنية التي أتت بالمدهشات، والتي لا يزال الناس في حيرة من أمرها. زاهية زاهرة ثمانمائة سنة. فإذا أضفنا إلى ذلك المائتين أو الثلاثمائة التي اتسعت فيها دولة الأتراك، وبلغت شأواً من العظمة الحربية. علمنا أن الدولة الإسلامية ظلت صاحبة السيادة على العالم مدة ألف سنة تقريباً. وهي مدة تناهز عمر الدولتين: «اليونانية والرومانية».

لقد ألزم مسلمو الأندلس التسامح مع غيرهم، ومودتهم حتى في الزمن الذي اضمحلت فيه الدولة. فإذا أتيح لأحدكم أن يتجول في أنحاء إسبانيا الآن، يمكنه أن يقف على آثار العرب هناك، وعلى بقايا ما شيدوه ليستخلص من دراسة تلك الآثار أن الأندلس كانت بلاد غنًى ورفاهية في هذا العهد. كانت بلاد: «غرناطة» زهرة أوروبا. وكان الذين يريدون أن يستشفوا نسيم الحرية المدنية يذهبون إلى تلك البلاد فَارِّينَ من بلاد أوروبا التي كان يحكمها الأمراء. وهي مهد القسوة والظلم. حيث كان الأمراء يعاقبون من يأسرونهم في الحروب بإلقائهم إلى الكلاب المفترسة لتمزق أجسادهم.

هذا وإن كانت هناك حقيقة يجب أن نُبَيِّنَهَا فهي أنه في هذه الفترة التي تعارف فيها المسلمون والمسيحيون منذ انتهاء الحروب الصليبية إلى فتح القسطنطينية كان «الإسلام» هو العنصر المؤثِّر، والعالم الأوروبي هو العنصر المتأثر، ومن جهة العلوم والآداب فإن أوروبا لبثت ثلاثمائة عام تقريباً تقتبسها من الإسلام. وكانت المدنية الغربية خلال ذلك تجني ثمارها اليانعة.

ولقد كان استيلاء الغرب على غرناطة عملاً وحشيًّا بربريًّا لم أعهد في التاريخ أسوأ منه. فقد كانت غرناطة عروس إسبانيا وزينتها. ولقد زرت غرناطة ورأيت آثار تلك الحمامات المحكمة البناء البديعة النقوش، التي جرى هدمها. هذه الحمامات التي كان المسلمون يتنظفون بها. لقد كانت أوروبا في علاقتها مع المسلمين والإسلام فظة غليظة القلب. إن آثار التعصب لتبدو واضحة في إعطاء العهود للعرب بعد سقوط قرطبة. ثم اخلاف الغرب لهذه العهود في محاولة للقضاء على الحضارة الإسلامية.

لقد عجز الأوروبيون أن يفقهوا مدنية أجنبية عن مدنيتهم، وأن يقفوا على كنه عقول ليست من عقول إخوانهم في الجنس. وقد أدركوا

اليوم ضلال خطتهم الأولى، وأسرعوا يلتمسون خطة جديدة غايتها الوصول إلى المعرفة الصادقة.

ويهمني هنا أننا لا نستطيع أن نحكم على تلك الأمة بالسقوط، لأن الأمة التي أمكنها أن تنهض في وقت مّا، يمكنها أن تعيد نهضتها في المستقبل. لقد أفل نجم المدنية الإسلامية بعدما أثمرت وأينعت فترة طويلة من الزمن ويكفي هذه المدنية نفحة من نسيم الحياة الجديدة لتسترجع جمالها وعظمتها وجدتها.

إن تلك الصبغة العامة اللينة التي اتصفت بها مبادىء الإسلام هي التي جعلته يقبل بضروب المدنية ولا ينافيها بل يقابلها بصدر رحب.

* * *

بقيت مسألة جديرة بأن نبحث عنها وهي ما تنمو فيه من نهضة المسلمين. إن علينا أن لا ننظر بعين الكره والسخط إلى يقظة المسلمين. فإن من شأن هذه الحياة الجديدة التي بدأت تسري روحها في العالم الإسلامي أن تقرب من العالمين والمدنيتين.

* * *

ويقول البعض: إذا كان المسلمون اليوم يسيرون في طريق المدنية الغربية سيراً حثيثاً، فلماذا نتصور أن تكون هناك مدنيتان (مدنية غربية، وأخرى إسلامية) ولماذا لا تفنى المدنية الإسلامية في جسم المدنية الغربية، ما دام العلم هو أساس المدنية. على أني لا أقبل هذا الرأي. ذلك لأن المدنية الإسلامية مدنية جامعة بين المادة والروح، والعلم والدين، ولا تفصل أحدهما عن الآخر، والعلم له دائرة محدودة، ولا يمكن للعلم أن يمحو سلطان الأديان على النفوس. وعلى ذلك فلا أرى حدًّا لبقاء «الإسلام» ذلك الدين الذي أتى بأحسن العقائد ملاءمة للفطرة، والذي

سعد حظه بأن امتد ظله على ضفاف البحر الأبيض تحت سماء صافية الأديم لم تتلبد بالغيوم فظل نوره سارياً في تلك البلاد الواسعة الأطراف، ولم تستطع الأحداث أن تطفىء ذلك النور الرباني الساطع.

إن مبدأ التفريق بين عالم المادة، وما وراء المادة، قد تبينه المسلمون، فجعلهم يقبلون على علومنا ولا يـرون فيها مـا يناقض دينهم المشهـور بالتسامح.

الباب السادس

الدعوة إلى الاسلام وانتشاره



ما تزال قصة انتشار الإسلام بهذه الصورة القوية البارعة موضع التساؤل والعجب من كتاب الغرب الذين يدهشون لقدرة الإسلام على النفاذ إلى القلوب على هذا النحو السريع. وقد تناول هذا الموضوع كثير من الكتاب الغربيين، وحاول بعضهم - ان جهلاً أو تعصباً - أن يدلي بآراء غير سليمة منطقيًا أو تاريخياً.

غير أن هناك بعض المنصفين ما لبثوا أن حرروا هذه القصة وأعلنوا منها آراء منصفة قريبة إلى الحقيقة وفي مقدمة هؤلاء أدوارد مونييه وتوماس ازوالد.

١ ــ أما سير توماس أرنولد فهو من خيرة كتاب الغرب المنصفين، وهو إيرلندي الأصل، تعلم في جامعة كمبردج وعين مدرساً في كلية عليكرة الإسلامية في الهند عام ١٨٨٨ م. وهناك اتصل بالمسلمين، ودرس شريعتهم وعقيدتهم. واستطاع أن ينصف الحقائق الإسلامية في مؤلفه الضخم الذي أطلق عليه الدعوة إلى الإسلام فضلاً عن مؤلفاته الأخرى.

١ - تعليم الإسلام.
٢ - المعتزلة.
٣ - الخلافة.

ومن تلاميذه العلّامة شبلي النعماني المفكر الإسلامي الكبير الذي أنشأ دار العلوم في لكنو. والفيلسوف الإسلامي الذائع الصيت: محمد إقبال المتوفى عام ١٩٣٠.

وقد عرض توماس أرنولد إلى انتشار الإسلام، وكيف كان لقوة الإسلام الذاتية أثرها البالغ ـ لا الفتح ولا قيام الدولة الإسلامية وحدها ـ في نشر الإسلام. وهذا ملخص رأيه:

أعلن تعاليم الإسلام لأول مرة على أهل بلاد العرب «نبي» انضوت تحت لوائه قبائلها المتفرقة. فـأضحت شعباً واحداً، ثم دبت فيهم الروح القومية الجديدة، فملأتهم حياةونشاطاً. ثم سرت في جيوشهم حماسة، فملأتهم بأساً وقوة. وبهذه العدة خرج المسلمون إلى القارات الثلاث فاستولوا أول الأمر على سوريا وفلسطين، ومصر وشمال أفريقيا، وبلاد فارس، ثم انطلقوا بعد هـذا غرباً إلى إسبانيـا وشرقـاً إلى ما وراء أندونيسيا. ولم تمض على وفاة النبي مائة عام، حتى وجد المسلمون أنفسهم سادة امبراطورية أوسع رقعة من امبراطورية روما في أوج قوتها.

* * *

ورغم أن هذه الامبراطورية قد انقسمت من بعد فإن فتوح الإسلام الروحية قد بقيت لا تحول دونها الحوائل. حدث هذا برغم إغارة «المغول» عـلى بغداد ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م وقيـام حكام الأنـدلس، وعلى رأسهم فرديناند صاحب ليون وقشتاله بإخراج المسلمين من قرطبة عام ١٢٣٦ م. كان ذلك يجري والمسلمون يضعون أقدامهم في أرض جديدة يدخلون أهلها في دين الله، تلك هي جزيرة سومطرة، ثم كانوا على وشك أن يبدأوا تقدمهم الموفق في جزائر أرخبيل بالملايو. وهكذا قام الإسلام في هذه الفترة بطائفة من أعظم غزواته الروحية وفي التاريخ الإسلامي طرفان حرجان.

الأول: حين دهمهم الترك السلاجقة في القرن الحادي عشر.

الثاني: حين جاء المغول في القرن الثالث عشر.

ورغم أن الغزاة أخضعوا المسلمين لسلطانهم السياسي في كلتا الحالتين، فإنهم خضعوا لسلطان «الإسلام» ورضوه ديناً لأنفسهم. وفي مرة أخرى نجد المبشرين المسلمين في غير اعتماد على سلطان الحكم وصولة الجيش يحملون الإسلام في أواسط إفريقيا والصين وجزائر الهند الشرقية، واليوم يمتد نطاق الإسلام من مراكش إلى زنجبار، ومن سيراليون إلى سيبيريا والصين. ومن البوسنة إلى غيانة الجديدة، ولو أننا تركنا البلاد التي يسكنها عدد كبير من المسلمين كالصين وروسيا. وجاوزنا حدودهما إلى البلاد التي لم تؤمن بالإسلام لوجدنا بها بعض الجماعات الإسلامية القليلة العدد المحدودة الكيان، تشهد على قيام الإسلام، مثل ذلك لتوانيا. وقد حمل تجار الهنود الإسلام معهم إلى جزر الهند الغربية، وغيانا البريطانية والهولندية. وأخيراً نجد للإسلام أنصاراً في إنجلترا وشمال أمريكا واستراليا واليابان.

* * *

يرجع انتشار «الإسلام» في تلك المساحات الواسعة على ظهر الأرض إلى أسباب كثيرة اجتماعية وسياسية ودينية - ولكن أهم العوامل التي أحدثت هذه النتيجة المثيرة للاعجاب في جهود المسلمين المتتابعة، هؤلاء الذين اقتدوا بالنبي ﷺ نفسه، فجاهدوا في سبيل إدخال الناس في دين الله، ولم يكن واجب «الدعوة إلى الإسلام» فكرة متأخرة. بل كان أمراً محتوماً على المؤمنين منذ فجر الدعوة. ومهما تكن العوامل التي نجمت، فهناك حاجة المسلمين إلى طبقة خاصة، تختص بنشر العقيدة. فقد وجدوا ما يعوضهم عنها في ذلك الشعور الناشىء عن المسؤولية التي ألقيت على كواهل المؤمنين من الأفراد، ولما لم يكن هناك واسطة بين المسلمين، وربهم

كانت مسؤولية خلاص الشخص ملقاة على كاهله وحده. وكان المسلم أكثر تشدداً واهتماماً في أداء واجباته الدينية، وأشد تحملاً للمتاعب في سبيل الله، تعلم مبادىء دينه ومشاعره، ومهما ردد الباحثون القول بأن كل مسلم داعية إلى دينه، ويبقى هذا القول صادقاً. ومن كل أصحاب الصناعات والحرف، نجد أولئك الذين قاموا بأعمال ابتغاء نشر دينهم.

ومما يثير اهتمامنا أن نشر الإسلام لم يكن من عمل الرجال وحدهم. بل لقد قامت النساء المسلمات أيضاً بنصيبهن، فيرجع الفضل في إسلام كثير من أمراء المغول إلى تأثير زوجة مسلمة.

وحتى المسلم الأسير يغتنم الفرص في المناسبات لدعوة أسرته أو إخوانه إلى دينه. فقد تسرب الإسلام إلى أوروبا الشرقية أول الأمر بفضل ما قام به فقيه مسلم سيق أسيراً، وجيء به إلى بلاد «بتشنج» بين الدانوب الأعلى، ونهر الدون، وقد بسط بين يدي كثير منهم تعاليم الإسلام فاعتنقوه في إخلاص، ولم يمض وقت طويل حتى دخل شعب البتشنج دين التوحيد. وفي عهد الامبراطورة جهانجيز ١٦٢٨ م كان هناك عالم سني من علماء التوحيد يدعى «أحمد مجدد» تميز بقدرته على مجادلة بعض الفرق غير المسلمة في عقائدهم فاستطاعوا إدخاله السجن بتهمة تافهة. وفي خلال السنتين اللتين قضاهما في الحبس. أدخل في الإسلام عدة مئات من عبدة الأوثان، ولما رفضت الحكومة البريطانية بنفي أحد مولوية الهنود إلى جزائر «اندمان» نفياً مؤبداً، هذا المولوي أدخل في الإسلام قبل وفاته كثيراً ممن حكم عليهم. وفي إفريقيا الوسطى حدث مثل هذا.

وإذا كان المسلمون قد بلغوا مثل هذه الحماسة في نشر الدعوة إلى حد أنهم كانوا على استعداد للتحدث عنها في مناسبة وغير مناسبة. فقد كان في مقدمة هذه الأسباب: «بساطة العقيدة الإسلامية» لا إله إلا الله محمد رسول الله وكل ما يطلب من الذي يدخل في الإسلام قبول هاتين الشهادتين.

إن هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير في العادة مصاعب عقلية خاصة. ولما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية، كان من الممكن أن يشرحها أي فرد. فإذا قبل الذي يدخل الإسلام هذه العقيدة البسيطة، وتعلمها لم يكن بد عندئذٍ من أن يتعلم فرائض الإسلام الخمس.

١ ـ الشهادتان.
٢ ـ الصلاة.
٣ ـ الزكاة.
٤ ـ صوم رمضان.
٥ ـ الحج إلى مكة.

وفي الحج نجد عملاً سامياً. نرى زنجي ساحل إفريقيا الغربي يلتقي بالصيني من أقصى المشرق. ويتعرف التركي على أخيه المسلم من أهل جزائر الملايو. في عطف وحنان، ويجتمعون حول الكعبة. هذه التي يولون وجوههم شطرها في كل ساعة من ساعات عبادتهم الخاصة في أوطانهم النائية. ولم تستطع أي محاولة يقوم بها عباقرة أي دين، أن تتصور وسيلة أحسن من هذه الوسيلة تطبع في عقول المخلصين معنى حياتهم المشتركة، وإخوتهم التي ارتبطت بروابط الدين.

وإلى جانب نظام الحج نجد «نظام إيتاء الزكاة» فرضاً آخر يذكر المسلم دائمًا بأن المؤمنين إخوة، وهي نظرة دينية تتحقق على صورة رائعة تبعث على الدهش في المجتمع الإسلامي.

كذلك نجد أن أداء الصلوات الخمس كل يوم على جانب عظيم من التأثير سواء في جذب الناس أو الاحتفاظ بالمسلمين منهم. وقد أحسن مونتسكيو في قوله:

«إن المرء لأشد ارتباطاً بالدين الحافل بكثير من الشعائر منه بأي دين آخر أقل احتفالاً». إن دين المسلم يتمثل دائمًا في مخيلته. وفي الصلوات اليومية. وقد استطاع «رينان» أن يقول: «ما دخلت مسجداً قط دون أن تهزني عاطفة حادة» ومن اليسير أن ندرك كيف أن منظر التاجر المسلم في صلاته وسجداته الكثيرة. وعبادته للإله الذي لا يراه في سكينة واستغراق. قد تؤثر في الإفريقي الوثني، الذي وهب إدراكاً قوياً للقوى الخفية. وإن معارف الإسلام التي عرفها الناس على هذا النحو قد تجذب أحياناً فرداً يدخل في الإسلام. كان من الممكن أن ينصرف عنه.

ولا حاجة إلى القول بأن صيام «شهر رمضان» جزء من دليل ثابت. يدحض النظرية القائلة بأن الإسلام نظام ديني يجذب الناس عن طريق مراودتهم في لذاتهم الشخصية.

ولكن هؤلاء المسلمين يعنون بتلك الفرائض وغيرها من الشعائر الدينية دون أن يثقلوا بها كواهلهم أو تجعلهم مغمورين في الحياة. فنجد أركان العقيدة الإسلامية تلقى دون انقطاع تغييراً ظاهراً في حياة المؤمن. ومن ثم نجد أنها بعد أن أصبحت متشابكة في نظام حياته اليومي تجعل المسلم الفرد إماماً ومعلمًا لعقيدته أكثر مما هو الحال في معظم الديانات الأخرى.

ولما كانت عقيدة مصوغة في مثل هذه اللغة الموجزة البسيطة، كانت لا تتطلب الذكاء إلا قليلاً، وأن تحدد هذه العبادات وواقعيتها ودقتها ليدع المؤمن لا يختلج في نفسه أمر الشك فيما هو مكلف بأدائه، فإذا أدى هذه الواجبات اطمأن وجدانه إلى أنه قد أنجز كل أوامر الشرع. وقد نجد في هذه الوحدة بين النظامين العقلي والطقسي في هذا الدين سر السيطرة التي أحدثها الإسلام على عقول الناس.

ومن الأمور التي ساعدت على نجاح الدعوة إلى الإسلام هي: أن هذه الدعوة كانت إلى حد كبير في أيدي التجار خاصة في إفريقيا وبلاد أخرى غير متمدنة، حيث نرى التاجر غير موضع الشك والريبة، على حين نرى خبرته بالناس والأخلاق، وحنكته التجارية تنيلانه قبولاً حسناً. فالمواطن هناك لا يشك في نواياه، ولا يظن أنه قد احتمل هذه الأسفار الطوال ليدعوه إلى دين، ولما كانت نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى. فقد كان ذلك أقوى منفذاً إلى القلوب. وقد ظل أصحاب الأديان الأخرى ينعمون بدرجة من التسامح في ظل الحكم الإسلامي لم نكن نجد له مثيلاً في أوروبا حتى في عصور حديثة جدًّا.

وأن التحويل عن طريق الإكراه إلى الإسلام محرماً طبقاً لتعاليم القرآن ﴿لا إكراه في الدين﴾ وقوله: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ وأن مجرد وجود كثير من الفرق والجماعات الدينية المختلفة التي ظلت قروناً في ظل الحكم الإسلامي لدليل ثابت على ذلك التسامح، كما يدل على أن الاضطهادات التي كانوا يدعون إلى معاناتها بأيدي الطغاة والمتعصبين، إنما كانت ناتجة من بعض ظروف خاصة، وإقليمية أكثر من أن تكون منبعثة عن مبدأ مقرر من التعصب.

وأن ما حدث من التعسف في بعض المواقف لم يكن بموافقة الشرع الإسلامي في شيء. وقد ورد عديد من الآيات القرآنية التي تنهى عن الإكراه في الدين، وتوصي باعتبارها الوسيلة الشرعية الوحيدة لنشر هذه العقيدة. وقد أعلن كبير وزراء صلاح الدين «القاضي الفاضل» عبد الرحمن بن علي: «أن رجلاً قد أرغم على الدخول في الإسلام لا يصح شرعاً أن يعدّ مسلمًا».

ولم يفعل أي حاكم من حكام الإسلام الأقوياء ما فعله الإسبان

بالعرب من استئصال شأفة الرعايا من أصحاب الأديان الأخرى. أو نفيهم من بلادهم، وكان هؤلاء الرعايا في الأغلب عزلاً عن أي سلاح، وأن الذين لم يفعلوا ذلك. إنما تحرروا بتسامح الإسلام، وأقوال الشريعة السمحاء.

ولا شك أن من العوامل التي نشرت الإسلام حياة الورع والتقوى التي يحياها المسلمون. وقد أتى ذلك في عديد من الرحالة الغرباء. وأثر في الأوروبيون أيام الحروب الصليبية.

* * *

وهناك في الوقت الحاضر عاملان رئيسيان يعملان على تنشيط الدعوة إلى العالم الإسلامي. أولهما: انتعاش الحياة الدينية التي يبدأ تاريخها من حركة الاصلاح الوهابية، وحركة الوحدة الإسلامية التي تسعى إلى ربط جميع شعوب العالم برباط من المودة والتعاطف. وأن ما ستحدثه هاتان الحركتان من تأثير سيكون أبعد مدى في حياة الدعوة الإسلامية.

٢ ـ ويحاول العلّامة الفرنسي ادوار مونتيه الذي كان عام **١٩٢٩** مدرساً بمدرسة الألسن الشرقية في جامعة جنيف أن يصور في بحث مفصل انتشار الإسلام. وكان هذا الباحث قد قام بترجمة القرآن إلى اللغة الفرنسية ترجمة جيدة وصفها الأمير شكيب أرسلان بأنها كانت أقرب ما تكون إلى النص الأصلي كما صنف كتاباً باسم الإسلام أخرجه عام **١٩٣٣** ـ وقد ألقى مجموعة محاضرات عن الإسلام في الكوليج دي فرانس تلخص رأيه ومفهومه. يقول:

انتشر الإسلام بسرعة منذ أول ظهوره وقليل من الأديان التي شابهته، وانبثت دعوته إلى اليوم مثله. وأن النجاح الذي صادفه منذ انتشاره. قد كان داعياً إلى التقول في أسبابه خطأ. إذا عجب الناس كيف انتشرت سلطة محمد. وإصلاحه خارج جزيرة العرب. وقال القائلون ولا

يزالون يقولون: إن السبب الداعي إلى انتشار الدين الإسلامي كان منبعثاً من أسباب زمانية كانت من طبيعة محمد والخلفاء الأول. وقيل كل شيء دعت إليها القسوة وقوة السيف. ولكن الواقع كذب هذا الظن. إذ لم ينظر الناظرون إلى الأسباب المختلفة التي نشأت منها سرعة انتشار الدعوة إلى هذا الدين.

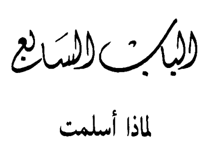
كان محمد رسولاً قام باعتقاد خالص، وأتى على الوثنية، وتوخى أن ينقذ مواطنيه من حالة في الأخلاق والمدنية منحطة كل الانحطاط. فلا مجال للشك في إخلاصه أو عقيدته الدينية التي كانت متشبعة بها نفسه وفكره، ثم نشأت جرثومة مزج «الإسلام» للسلطتين الدينية والمدنية اللتين تجلى أمرهما في الحضارة الإسلامية. وكانت سبب عظمتها ومجدها.

إن هذا الدين ما برح ينتشر إلى اليوم، ويرجع ذلك إلى أسباب دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية، ففي إفريقيا مثلاً أناس من المرابطين هم دعاة تبشير حقيقيين، وهناك طرق دينية أخذت على نفسها نشر الدين الإسلامي. على أن الإسلام ينتشر بنفسه بواسطة المسلمين أنفسهم، لأن كل مسلم هو داعية دين بحد ذاته، والمسلم على الجملة مؤمن مخلص في إيمانه.

ومن خصائص الإسلام أن يستولى على المعتقد به، فيجعله مأخوذاً به قلباً وقالباً. والإيمان بالجماعة هو خلق أساسي فيمن يدينون بالإسلام.

والمسلم يبشر بدينه، وهو متوفر على تجارته، أو عامل في صناعته. والإسلام ينتشر من نفسه بواسطة القوافل التي ترحل إلى البلاد الوثنية، ودعاة الإسلام فيها عرفوا من الغيرة يعمدون إلى ذرائع مختلفة تناسب كل حال بحسب الأقطار والشعوب التي يبثون دعوتهم بين أهلها. وللوسائط الاجتماعية والاقتصادية دخل كبير في ذلك.

وهم في كل حالاتهم يظهرون «الإسلام» بأنه دين الفطرة. والمدرسة هي إحدى العوامل الفعالة في نشر الدين. فالمسلمون على الجملة ينزلون ويتوطنون في بقعة جديدة يصرفون أول عنايتهم في إنشاء مسجد ويجعلون بجانبه مدرسة. وترى المرأة عند قبائل البجة النازلة بين النيل الأزرق، وأعالي البلاد الممتدة من شمال سطح بلاد الحبشة أرقى بعقلها من الرجل. ولذلك يختار دعاة الإسلام تعليمهن. والاعتماد عليهن في بث الدعوة على نحو ما يفعل السنوسية.



لماذا أسلمت



لم يزل الإسلام قادراً على أن يوسع آفاق دعوته، ويحقق اعتناق عدد كبير من الناس له، غير أن الظاهرة الجديرة بالتأمل والدرس، إنما هي ظاهرة اسلام الممتازين والمثقفين من العلماء أو المؤرخين، وخاصة من أبناء العالم الغربي. هذه الظاهرة جديرة بأن تدرس من خلال كتابات عدد كبير من هؤلاء المسلمين. وكنا قد قدمنا في كتابنا «الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني» طائفة منهم. وهذه طائفة أخرى تضم:

* الدكتور عبد الكريم جرمانوس: أستاذ الأدب العربي بجامعة بوخارست.
* المخرج السينمائي وكس انجرام.
* الكابتن جيم جورج ولسن.
* الكاتب المؤرخ: ليوبولد فايس «محمد أسد».
* الكاتبة البريطانية: إيفيلين كوبولد.

١ ــ ولنبدأ بالدكتور جرمانوس الذي يصور تجربته مع الإسلام فيقول:

خالجني منذ طفولتي حنين إلى أرض الإسلام، وإني وأنا الرجل الأوروبي الذي لم يجد في بيته إلا عبادة الذهب والقوة والسطوة الميكانيكية: تأثرت أعمق التأثر ببساطة الإسلام، وعظمة سيطرته على نفوس معتنقيه. بينما الأوروبيون يتجهون بملكات الكشف والاختراع إلى وسائل التدمير

والفتك، يبقى الشرق الإسلامي مستولياً على لبي روحانيته، ومثله العالية، يحافظ الإسلام على مبادئه الداعية إلى الإخاء والحرية والمساواة بين أبناء الجنس البشري. وربما التمس الأوروبيون أسباب سعادتهم في الاستزادة من نعيم البدن. بينما يقدم الإسلام لمعتنقيـه سعادة نفسيـة، إذ قامت تعاليمه على أن السعادة لا تكون في عرض زائل. وما زال الإسلام هو العقيدة المتجددة أبداً. قالوا إن الدين الإسلامي هو علامة على سقوط المسلمين، ولكني أستطيع أن أجهر بمنتهى الجرأة بعد أن قرأت كتاب المسلمين المقدس، وثقافة الإسلام بأنه لا يوجد في تعاليم الإسلام كلمة واحدة أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلم، أو يمنع زيادة حظه من الثروة والمعرفة والقوة.

«فالقرآن» كتاب ملؤه الصراحة والوضـوح لمن صدقت رغبتـه في تفهمه. وأن «محمداً» رسول الله الأعظم مصلح ثوري عرفه التاريخ.

إن حجر الزاوية في بناء هذا الدين أن الناس أمام الله سواء. ومن آمن منهم بهذا الدين وارتضى شريعته، ويطلب الإسلام من المسلمين أن ينظر أحدهم إلى الآخر كأخ له. وفي التاريخ الإسلامي الدليل الصحيح على أن المسلمين الصادقين لم يضطهدوا أحداً من جيرانهم الذين لم يؤمنوا بإيمانهم.

إن أوروبا لم تعرف الإخاء بين الناس إلا بعد الثورة الفرنسية، بينما دعا الإسلام إليه وطبقه المسلمون قبل ثورة فرنسا بنحو ألف عام.

ولقد كانت فكرة المساواة والديمقراطية من ابتكار القرن السابع عشر في أوروبا. بينما هي من حقائق الإسلام وأصوله منذ نشأ.

ولم يعترف حكام أوروبا «بالاشتراكية» إلا في السنوات الحديثة، بينما سبقهم الإسلام إلى المساواة بين المسلمين وأهل الكتاب «يهود ومسيحيين

وغيرهم» فأقام بذلك النظام الاشتراكي الصحيح، واستمتع في ظله كافة الناس بكل الحقوق الإنسانية.

ولقد حرم الإسلام الخمور، وسبق أوروبا في مجال القانون بأكثر من ألف عام. وحض على النظافة، وعلى اتباع آداب المعاملة الرفيعة، ولقنهم الفروسية.

وإني أجرؤ على القول بأن الإسلام منح المرأة حقوقاً قانونية أكثر مما كان لها في ظل المسيحية. ولقد اعترف بإباحة تعدد الزوجات في حدود معقولة. وبالأمر الواقع، أي ما تقضيه غريزة الرجل، فحال بهذا دون التعدد غير المشروع الذي يسود الجماعة الأوروبية هذه الأيام.

والمسلم إذا كان صادق العقيدة، فهو إنسان متدين روحي مستنير ذو حاسة إنسانية من طراز سام مما يثير التقدير والحب له.

إنني ما زلت متعلقاً بالإسلام، على الرغم من أني «أوروبي» خالٍ من كل دم دخيل. وذلك لاعتقادي: أن مستقبل العالم، وخلاصه من خطر الاصطدام الاجتماعي الذي يهدده لن يكون إلا في المزاوجة، السعيدة بين الحضارة بدرسها وعلمها، والروح الإسلامية التي تنطوي عليها عقائد الإسلام. وإني لآمل أن يكون الإسلام قادراً مرة أخرى على تحقيق هذه المعجزة. وهي «وحدة الجماعة الإنسانية».

٢ ـ ويقول: وكس انجرام: لماذا أسلمت، لماذا اتخذت الإسلام ديناً؟.

ذلك لأني أعتقد أن الإسلام هو الدين الذي يدخل السلام والسكينة إلى النفس، ويلهم الإنسان العزاء وراحة البال، والسلو في هذه الحياة. وقد تسرب روح الإسلام إلى نفسي فشعرت بنعمة الإيمان بالقضاء الإلهي، وعدم المبالاة بالمؤثرات المادية من لذة وألم.

إني لم أقدم على هذا التعبير لمجرد خاطر وقتي طرأ على فكري، بل إني قد درست الدين الإسلامي مدة سنتين، ولم أتخذه ديناً إلا بعد بحث قلبي عميق، وتحليل نفسي طويل، لم أغير ديني إلا لكي أجد الراحة من ضجيج الحياة الجنوني، ولأنعم بالسكينة في ظلال الهدوء والتأمل. بعيداً عن متاعب الهموم والمحن التي يسببها التكالب على الكسب، والتهالك على المال. الذي أصبح معبود البشر، والهمم، ولما أسلمت استطعت أن أخلص نفسي من براثن الإغراء، وخدع الحياة الباطلة، والشراب والمخدرات، وجنون الجازباند، نعم لما أسلمت أنقذت ذهني وعقلي وحياتي من الهدم والتدمير.

لقد كان على رجل عربي طويل مهيب. أن يقف على مأذنة ويؤذن للصلاة لتصويره في شريط سينمائي لي. وبينما كان ذلك والمصورون يصورون المنظر، وأنا أقف جانباً، أرقب ذلك كله. كان صوته في ارتفاعه وانخفاضه ينفذ إلى أعماق قلبي.

ولما انتهينا من التصوير دعوت هذا العربي إلى مكتبي، وأخذت أسأله عن دقائق الديانة الإسلامية، واعتنقت الإسلام بعد ذلك، وأخذت أُصَلِّ معه، وشعرت بقناعة النفس تغمرني رويداً. وبدأت أشعر بالسعادة. وأكره كل الرغائب التي كانت تأسر نفسي.

وكان بعد ذلك أن جاء اليوم الذي اعتقدت فيه أني لا أستطيع أن أوفق بين عملي السينمائي وديانتي الإسلامية، ولا بد أن يذهب أحدهما، وكان ثمة عراك نفسي شديد. هل أضحي بعملي ومستقبلي من أجل ديني. أم ديني من أجل مستقبلي. هكذا بقيت أسهر الليلة بعد الليلة، راقداً في فراشي وعيناي مفتوحتان حتى الصباح أفكر - في حل هذه المشكلة حتى جاءني الرد من الله.

يجب أن أترك عملي السينمائي، وأبعد عن أخاديع «هوليود» ومغرياتها. ولقد كان ذلك أليمًا عليّ حقاً. ولكني قطعت في الأمر نهائياً عندما كنت أقوم بعمل شريط سينمائي في «ينس» فقد قمت ذات ليلة أصليِّ. وبقيت أصليِّ مدة طويلة. فزادت قوتي، واشتدت عزيمتي. وفي اليوم التالي قلبت ظهري لعملي، وأعطيت جسمي ونفسي وحياتي لمحمد.

وأنا اليوم، ابن الإسلام، وإني سعيد أكثر مما كنت في أي يوم من أيام حياتي. وربما أذهب إلى إفريقيا. وإذا ذهبت فسأخلع مدنيتي الغربية مع ثيابي الغربية، وكمؤمن يدين بدين الشرق. أصبح شرقياً. وإذا ذهبت مرة فلن أرجع فحياتي كرستها لله. وعملي قد مات ونسيته.

٣ ـ ويصور الكابتن ولسن تجربته إزاء الإسلام فيقول:

ولدت في اسكتلندا من أب وأم إنجليزيين، ولم أر أبي الذي قتل في حرب البوير ١٩٠٠. وما زلت طفلاً. ومرت الأيام ونحن نعيش عيشاً رغيداً حتى قامت الحرب العظمى ١٩١٤ تطوعت في الجيش وركبت البحر إلى فرنسا. وانضممت إلى فرقة الفرسان، وتقاذفتني ميادين القتال، كأنها ديار الجحيم، وقضيت في الميدان الغربي فترة رأيت فيها من أهوال الحرب وفظائعها. ما لا طاقة لي بوصفه أواخر ١٩١٨، بعد أن أمضيت أربع سنوات في هذا الجحيم، فلما عدت وجدت أمي قد ماتت. وإخوتي الثلاثة قد قتلوا في الحرب، فهمت على وجهي ورحت أطوف الدنيا، فجست خلال الهند والصين واليابان. ولم أجد ما أقطع به الوقت سوى دراسة اللغات والديانات. وفي سوريا تعلمت العربية. ودرست مختلف الأديان. فلم أجد مثل ما وجدت من العزاء والطمأنينة في مطالعة القرآن الكريم، طالعته مراراً وتمعنت في معانيه، وأشربت روحي بروحه، فرأيت فيه سحراً حلالاً، ولم يكن يوم يمر بي دون أن أتلو آياته. وفي الثلاثينات قدمت إلى الاسكندرية، وهمت على وجهي حتى وصلت إلى دمنهور، وعلى شاطىء

ترعة هناك رقدت. وفي أثناء نومي رأيت دخاناً يتصاعد من الأرض حتى يتكاثف في السماء وينعقد. وقد أضاء نور عجيب. ثم تكونت منه كلمة «الإسلام» وصحوت وكلمة الإسلام لا تزال ملء ناظري وحواسي، وما كنت أفكر من قبل في اعتناق الإسلام، وشعرت للمرة الأولى براحة وطمأنينة. وفي الطريق ما مررت بقروي إلا أقرأني السلام ودعاني للطعام، وبذل جهده في إكرامي، وأضافني في منزله. أنا غربي وهم شرقيون. أختلف عنهم طباعاً وديناً، فما لهم يسارعون إلى إكرامي، أنا الذي رأيت كيف يرتاب الناس من بعضهم. ولو أنك مررت على فلاح في أوروبا وقرأته السلام فهل يكرمك مثل هذا الإكرام. وإذا وجدت رجلاً يأكل ووقفت إلى جانبه فهل هو مشاركك طعامه عن طيب خاطر. وهل إذا قرعت باباً يفتح لك مصراعيه فتنزل ضيفاً كريماً. تواردت هذه الخواطر على نفسي، وحاولت الإجابة عنها. وعند ذاك علمت أن «الإسلام» هو الذي جعل تلك النفوس سامية كريمة.

وَنِمْتُ مرة أخرى ورأيت عمود الدخان ينقلب حروفاً من ضوء وتتجمع فتكون كلمة «الإسلام» وأفقت وقد أيقنت أن الله اختار لي (الإسلام) ديناً. وشعرت براحة عجيبة. في أن أعتنق هذا الدين، دين الشفقة والحنو والإيثار.

٤ ـ أما العلاّمة ليوبولد فابس: «محمد أسد» فإنه يصل إلى أعماق النفس الإنسانية في تجربته الفريدة.

«لماذا اعتنقت الإسلام؟».

يجب أن أعترف بأنني لا أعرف جواباً شافياً، لم يكن الذي جذبني تعليمًا خاصًّا من التعاليم. بل ذلك البناء المجموع العجيب والمتراص. بما لا نستطيع له تفسيراً من تلك التعاليم الأخلاقية إلى منهاج الحياة العملية، ولا أستطيع أن أقول أي النواحي قد استهوتني أكثر من غيرها. فإن

الإسلام على ما يبدو لي (بناء تام) الصنعة. وكل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضاً.

ومنذ ذلك الحين سعيت إلى أن أتعلم من الإسلام كل ما أقدر عليه: لقد درست القرآن الكريم، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام. لقد درست لغة الإسلام وتاريخ الإسلام، وقضيت أكثر من خمس سنوات في الحجاز ليطمئن قلبي بشيء من البيئة الأصلية للدين الذي قام النبي العربي بالدعوة إليه. وقد تمكنت من دراسات وجهات النظر الدينية والاجتماعية التي تسود العالم الإسلامي. هذه الدراسات والمقارنات قد خلقت فيّ العقيدة الراسخة بأن الإسلام من وجهتيه الروحية، والاجتماعية لا يزال أعظم قوة نهاضة بالهمم عرفها البشر.

إن الإسلام فلك ثقافي مستقل، ونظام اجتماعي واضح الحدود.

والإنسان في الإسلام غير مجبر على أن يرفض الدنيا، وليس ثمة حاجة إلى تقشف يفتح به الإنسان باباً سرياً إلى التطهر الروحي، فالإسلام ليس عقيدة «صوفية» ولا هو «فلسفة» ولكنه نهج في الحياة حسب قوانين الطبيعة التي سنها الله لخلقه. ذلك هو السبب على ما أظن لهذا الشكل في الصلاة الإسلامية حيث يمتزج الخشوع ببعض الحركات الجسمانية.

* * *

إن بعض النقاد يجعلون هذا النوع من الصلاة برهاناً على أن زعمهم بأن الإسلام دين رسوم ومظاهر، أؤلئك الذين تعودوا أن يفصلوا تماماً بين الأمور الروحية والأمور الجسدية، كما يفعل اللبان حينما يمخض الحليب ليستخرج زبدته، ولا يفهمون بسهولة أن الحليب الصريح في الإسلام يجمع هذين العنصرين فيعيشان معاً متجانسين، ويعبران عن نفسيهما أوضح التعبير.

وكذلك الأمر في فريضة الطواف، أي السعي حول الكعبة في مكة. ما معنى هذا؟ هكذا يقولون. إن الجواب واضح تماماً. إذ نحن درنا حول شيء ما، فإننا نقرر أن هذا الشيء إنما هو النقطة المركزية لعملنا.

إن الكعبة التي يولي كل مسلم وجهه شطرها في صلاته ترمز إلى وحدانية الله، وأن الطواف حولها يرمز إلى جهود الحياة الإنسانية.

إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال الخشوع الخالص، كالصلوات والصيام مثلاً. ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضاً. إن موقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل، إنه يعلمنا أن عبادة الله الدائمة، والمتمثلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها. هي معنى هذه الحياة.

ذلك أن «الإسلام» على أنه تعليم لا يكتفي أن يأخذ على عاتقه تحديد الصلوات المتعلقة بما وراء الطبيعة فيما بين المرء وخالقه فقط، ولكنه يعرض أيضاً بمثل هذا التأكيد للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية. وعبادة الله في أوسع معانيها تؤلف في الإسلام معنى الحياة الإنسانية. هذا الإدراك وحده يرينا إمكان بلوغ الإنسان (الكمال) في إطار حياته الدنيوية الفردية، ومن بين سائر النظم الدينية نرى الإسلام وحده يعلن أن الكمال الفردي ممكن في الحياة الدنيا. ولا يؤجل هذا الكمال إلى ما بعد إماتة الشهوات الجسدية. بل يؤكد أن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية.

ومن أجل هذا نرى الإسلام وهو ليس بدين لقهر النفس يترك للإنسان مجالاً واسعاً في حياته الشخصية والاجتماعية. كيما تستطيع الصفات المختلفة من العواطف والميول النفسانية أن تجد سبيلها إلى التطور الإيجابي المتفق مع استعدادها الذاتي.

إن أساس (حرية) الاختيار في الإسلام تقوم على أساس أن الأصل في طبيعة الإنسان هو الخير، وذلك على خلاف ما تقول بعض الأديان. الإنسان خلق خاطئاً، أو دنساً، نرى الإسلام يقر أن الإنسان خلق طاهراً وخلق تامًا.

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ ثم إن الإنسان يستطيع أن يحتفظ بكماله الشخصي أو يستعيده، فيما لو فقده. إذا أدرك بوعيه الكامل وحدانية الله تعالى، ثم تقيد بشرائع الله.

وعلى هذا فليس الشر في الإسلام أساسياً أبداً ولا أصيلاً أيضاً. ولكن مما يكتسبه الإنسان أثناء حياته، ومن بين سائر الأديان نجد الإسلام وحده يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حدّ من غير أن يضيع اتجاهه الروحي دقيقة واحدة. ليس في الإسلام خطيئة أصيلة موروثة، وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للإنسانية. إن كل مسلم رهين بما كسب، فهو يحمل في نفسه جميع وجوه الإمكان للنجاة الروحية، أو للخيبة الروحية، والإسلام ينظر إلى الحياة بهدوء واحترام. ولكنه لا يعبدها، لكنه ينظر إليها على أنها (دارممر) ضرورية، فليس من حق الإنسان أن يحتقر الحياة الدنيا، ولا أن يبخسها شيئاً من حقها. من أجل هذا كان لحياة الإنسان قيمة عظمى. فليست مملكة المسلم في هذا العالم وحده، ولا مملكته ليست في هذا العالم. بل هو يختار طريقاً وسطاً. إن النجاح المادي مرغوب فيه. ولكن ليس غاية في نفسه. بل يقود الإسلام الإنسان نحو الشعور بالتبعية الأدبية في كل ما يعمل، والغاية من جميع نشاطنا العملي يجب أن يكون خلقياً.

* * *

إن الإسلام لم يقف يوماً سداً في وجه التقدم والعلم، إنه يقدر الجهود الفكرية في الإنسان إلى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة، وما من دين

ذهب أبعد من الإسلام في تأكيد غلبة العقل. وبالتالي غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة، ولكن الشيء الوحيد الذي لا يستطيع المسلمون أن يتمنوه هو أن ينظروا بعيون غربية، ويروا الآراء الغربية. إن المعرفة نفسها ليست غربية ولا شرقية، إنها عامة بالمعنى الذي يجعل الحقائق الطبيعية عامة. إلا أن وجهة النظر التي ترى فيها هذه الحقائق، وتعرض تـختلف باختلاف المزاج الثقافي في الشعوب.

إن العلوم تتعلق بملاحظة الحقائق، وبجمعها واستخراج القواعـد المعقولة منها. أما النتائج الاستقـرائية أي فلسفـة العلوم فإنها لا تتبني على الحقائق والمشاهدة فقط. ولكنها تتأثر إلى حدّ بعيد جداً بمزاجنا المتأصل فينا، والعلوم ليست في ذاتها مادية ولا روحية، ولكنها يمكن أن تتقلب إلى هذا المظهر، أو ذاك حسب استعدادنا العقلي الخاص. والغرب ذو استعداد مادي، وهو من أجل ذلك مناهض للدين في مدركاته، وكذلك نظام التربية الغربية على وجه العموم، ومن سوء الحظ أننا اعتمدنا أبداً على الوجهة الأوروبية في عرض العلم، وعلينا ألا نتردد في درس العلوم الرياضية والطبيعية حسب الأسس الغربية. ولكن يجب ألا نتنازل للفلسفة الغربية عن أي دور من أدوار تنشئـة أحـداث المسلمـين، وسيكـون من واجب العلماء، المسلمين إذا وصلوا إلى حدود البحث العلمي أن يستخدموا نظرهم العقلي مستغنين عن النظريات الفلسفية الغربية. ومن الممكن دائمًا أن ندرس العلوم من غير أن نخضع خضـوعـاً للاتجاه العقلي في الغرب، كما أن تعليم الأدب الأوروبي على الشكل الذي يسود اليوم في بعض مؤسسات التعليم في بعض الأقطار الإسلامية يقود إلى جعل «الإسلام» غربيًّا في عيون الناشئة المسلمة، مما يؤدي إلى خلق بعض التبرير لسعي الأوروبيين أن ينظروا إلى الفروق بين الشرق والغرب نظراً مبنياً على مقياس مزعوم «رومانيون وبرابرة» ثم أن براهينهم تقوم على الزعم بأن تطور العالم لا

يمكن أن ينظر إليه إلّا على أساس تجارب الثقافة الغربية.

ومن شأن قبول هذا أن يخلق شعوراً بالنقص، كما أن الأخلاق في الإسلام، وخصوصاً في إدراكها للسلوك الاجتماعي والشخصي، وللعدل والحرية، إنما هي أكثر نموًّا، وأحسن كمالاً من المدنية الغربية. لقد أبطل الإسلام العصبية العرقية (الحقد الجنسي) وشق الطريق إلى الإخاء الإنساني وإلى المساواة.

* * *

إن أهم مآتي الإسلام، تلك المآتي التي تميزه من سائر النظم المطلقة، هو التوفيق التام بين الناحية الخلقية، والناحية المادية من الناحية الإنسانية. هذا سبب من الأسباب التي عملت على ظفر الإسلام في إبان قوته أينما حل. لقد أتى الإسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتكار الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة. هذه الخاصة الظاهرة في الإسلام تجلو الحقيقة الدالة على أن «نبينا» كان شديد الاهتمام بالحياة الإنسانية في كلا اتجاهيها: في المظهر الروحي، والمظهر المادي، وسنة الرسول تالية للقرآن. وهي المصدر الثاني للشرع الإسلامي، وللسلوك الشخصي .والاجتماعي.

إن الإسلام يحمل الإنسان على توحيد جميع مناحي الحياة، وبما أن هذا الدين واسطة إلى هذه الغاية، فإنه يمثل في نفسه مجموع مدركات لا يجوز أن يضاف إليها شيء، أو أن ينقص منها شيء، كما أنه ليس في الإسلام مجال للخيرة. فإذا قبلنا تعاليمه كما بسطها القرآن الكريم فعلاً، أو كما أوردها الرسول. فيجب أن نقبلها تامة وإلا خسرت قيمتها. ومن سوء الفهم الأساسي للإسلام أن نظنه، وهو دين العقل يخضع تعاليمه للاختيار الشخصي. هذا شأن الإسلام. فإن العقل البعيد عن الهوى يقبله، وليس من شخص بعيد عن الهوى يحاول في الإسلام ليزعم أن فيه

شيئاً مخالفاً للعقل. إلا أنه مما لا شك فيه أن ثمة أشياء وراء حدود العقل الإنساني، ولكنها لا تخالفه.

إن عقلنا لا يستطيع بما يركب في طبيعته أن يحيط بفكرة (الكلية) أننا نستطيع أن نفهم من كل شيء تفاصيله فقط. إننا لا ندري ما اللانهائية، ولا ما الأزل حتى أننا لا نعلم ما الحياة. أما في قضايا الدين المبنية على أسس مطلقة، فإننا نحتاج ضرورة إلى هاد يتصف عقله بشيء فوق ما يتصف به التفكير المادي. إننا نحتاج إلى من أشرق عليه نور الله. أو بكلمة واحدة إلى «نبي» فإذا كنا نعتقد أن القرآن الكريم كلام الله. وأن محمداً رسول الله، فإننا نصبح حينئذ ملزمين بأن نتبع الرسول أدبياً وعقلياً.

نحن نعد الإسلام أسمى من سائر النظم المدنية، لأنه يشمل الحياة بأسرها. أنه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، وبالفرد والمجتمع، أنه لا يهتم فقط لما في الطبيعة الإنسانية من وجوه الإمكان إلى السمو، بل يهتم أيضاً لما فيه من قيود طبيعية، إنه لا يحملنا على طلب المحال، ولكنه يهدينا إلى أن نستفيد أحسن الاستفادة مما فينا من استعداد، وإلى أن نصل إلى مستوى أسمى من الحقيقة - حيث لا شقاق ولا عداء بين الرأي وبين العمل. إنه ليس سبيلاً من السبل، ولكنه السبيل الوحيد. وأن الرجل الذي جاء بهذه التعاليم ليس هادياً من الهداة، ولكنه «الهادي» فأتباعه في كل ما فعل، وما أمر، أتباع للإسلام نفسه. أما إطراح سنته فهو إطراح لحقيقة الإسلام.

وبعد فليس ثمة علاقة ظاهرة تدل على الإنسانية في نموها الحاضر. قد استطاعت أن تشب عن الإسلام، بل إنها لم تستطيع أن تخلق نظاماً خلقياً أحسن من ذلك الذي جاء به الإسلام. إنها لم تستطيع أن تخلق نظاماً على أساس علمي، كما استطاع الإسلام أن يفعل، أنها لم تستطع أن

ترفع قدر الإنسان، ولا أن تـزيد من شعـوره بالأمن، ولا في رجـائه الروحي، ولا في سعادته.

٥ ـ أما الكاتبة البريطانية «ايفلين كوبلد» فقد صـورت في كتابهـا (البحث عن الله) تجربتها الشائقة مع الإسلام. وهي مجموعة يـوميات كتبتها بعد أن قامت بأداء فريضة الحج بعد إسلامها عام **١٩٣٣**. والكاتبة نبيلة إنجليزية استطاعت أن تهتدي إلى الإسلام عن طريق قـراءتها في مقارنات الأديان. وقد ترجم بحثها إلى اللغة العربيـة. وهذه خـلاصة تجربتها.

تقول: سألني كثيرون كيف ومتى أسلمت؟.

وجوابي على ذلك أنه يصعب عليّ تعيين الوقت الذي سطعت فيه حقيقة الإسلام أمامي، فارتضيت الإسلام ديناً. ويغلب على ظني أنني مسلمة منذ نشأتي الأولى. وليس هذا غريباً إذا ما راح المرء يفكر في أن الإسلام هو الدين الطبيعي الذي يتقبله المرء فيما لو ترك لنفسه.

إني لأذكر أيام طفولتي، وكيف أني صرفت الشتاء مع والدي في قصر عربي بالجزائر. وكيف كنت كثيرة الرغبة. وأنا ما زلت طفلة في الذهاب إلى المسجد مع بعض الرفاق، استمتع بما يغمره من حياة روحية لطيفة رائعة: ولعمري لقد كنت مسلمة منذ ذلك العهد. وإذا كان هذا مما لم يدر في خلدي ولا ألقي في روحي.

ثم تناسيت مع الأيام بعد مغادرتي الجزائـر صلاتي في المسجـد، وذهبت الأيام بما كنت قد تلقيته من مبـادىء العربيـة الأولى: ومضت الأيام: وفيها أنا في حوار مع بعض المعارف. قلت من غير أن أدري إني من المسلمين. ولعمري ما أزال أحار في الحافز الذي دفعني إلى ذلك. وما أعلم أنني رحت أفكر في الإسلام في كثير أو قليل. ومهما يكن السبب.

فهذا نور جديد أضاء لي ما أمامي: فكان من الحق عليّ أن أقرأ كل ما يتعلق بهذا «الدين» الذي أرتضيته لنفسي. وكلما أمعنت في القراءة زاد إيماني واعتقادي بأن الدين الإسلامي أكثر الأديان طواعية وعملية قرباً من العقل: وأنه الدين الوحيد الذي يستطيع تفسير النظم المتعلقة الحاضرة والبلوغ بالإنسانية إلى ما ترتجيه وتطلبه من سلام وطمأنينة.

و«الإسلام» كلمة تعني التسليم لله، وهي تعني السلام أيضاً، ولعل أجمل ما في الإسلام ما يضطرب فيه من وحدانية إلٰهية، وإخوة إنسانية: وخلو من التقاليد والبدع، والتصاقه كل الالتصاق بما في الحياة من أمور عملية.

ولقد سئل محمد عليه الصلاة والسلام يوماً عن الإسـلام فقال: إطاعة الله ومعاملة الناس بالإحسان والإنصاف.

وسئل مرة أخرى عن المسلم فقال: المسلم من سلم الناس من يده ولسانه. والإيمان في القرآن إنما يقوم على العمل الصالح وليس هناك في الإسلام إيمان دون ما عمل صالح أبداً.

وهذا ما يجده المرء مردداً في القرآن في مختلف سوره وشتى آياته. ولقد فرض الإسلام الحج على المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ومن ينكر فضله، وما يغمر النفس فيه من انطلاق إلى المثل العليا والروحية. وانفلات من أغراض الدنيا والتوجه إلى الله بقلب سليم مع هذه الألوف المؤلفة من البشر على اختلاف أمصارهم، وتباعد لغاتهم، وتعدد مشاربهم يأتون من أقصى الأرض، ويتحملون في طريقهم المشاق. وبعد المسافات.

ولقد أشار إلى هذه الظاهرة الأستاذ سنوك فقال: لقد سبق الإسلام الحكومات الأوروبية إلى التوحيد بين الأمم والتقارب بين الشعوب بما أقره

من وجوب الحج على كل مسلم يستطيع إلى الحج سبيلاً، ولعمري أن هذه الديمقراطية والأخوة التي أقرها الإسلام وجعلها عامة بين أتباعه لما يخجل الجماعات الأخرى التي لم تفطن لها ولا دعت إليها.

أما القرآن فإن بديع أسلوبه أمر لا يستطيع له القلم وصفاً ولا تعريفاً.

وقد أشار الدكتور ماردويل إلى ما للقرآن من مزايا لا توجد في كتاب غيره فقال: أما الأسلوب القرآني فإنه أسلوب الخالق عز وجل وعلا. ذلك الأسلوب الذي ينطوي على كنه الكائن الذي صدر عنه ذلك الأسلوب لا يكون إلا إلٰهياً. والحق والواقع أن أكثر الكتاب ارتياباً وشكًّا قد خضعوا لسلطان تأثيره وسحره. وأن سلطانه على ملايين المسلمين لبالغ الحد الذي جعل المبشرين يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الأبد.

هذا هو الكتاب الذي خلق العرب خلقاً جديداً، ثم وحد صفوفهم ودفعهم إلى العالم فاقتحموه وعملوا فيه على نشر حضارتهم وثقافتهم وفلسفتهم. بينما كانت أوروبا تتخبط في جهل فادح، واختلاف داهم.

والواقع أن للقرآن أسلوباً عجيباً يخالف ما كانت تنتهجه العرب من نظم ونثر، فحسن تأليفه، والتئام كلماته، ووجوه إيجازه، وجودة مقاطعه وحسن تذييله، وانسجام قصصه، وبديع أمثاله. كل هذا وغيره جعله في أعلى درجات البلاغة، وجعل لأسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة لا يمل قارئه، ولا يخلق بترديده. وقد امتاز بسهولة ألفاظه، حتى قل أن نجد فيه غريباً. فإذا أضفت إلى ذلك سمو معانيه أدركت بلاغته وإعجازه.

وإن أثر القرآن في كل ما بلغه العرب من التقدم لا ينكر. فهو الذي دفع العرب إلى فتح العالم، ومكنهم من إنشاء امبراطورية فاقت

امبراطورية الإسكندر الأكبر، والامبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمراناً وحضارة، كما أن الإسلام هو الذي مكن العرب من بين الشعوب السامية أن ينزلوا أوروبا فاتحين حاكمين بخلاف الفينيقيين الذين نزلوها متاجرين، واليهود الذين قدموها هاربين. وقد جاء العرب إلى أوروبا ومعهم شعلة العلم في ذلك الزمان الماضي، وهو ما يحملنا على أن نبكي مصرع الأندلس. لأن مصرعها كان ضربة للحضارة الحديثة والعمران القديم.

ولقد كان العرب قبل محمد أمة لا شأن لها، ولا أهمية لقبائلها، ولا لجماعتها. فلما جاء محمد خلق هذه الأمة خلقاً جديداً يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات.

ولقد زرت القبر الشريف الذي يضم النبي محمد، ووقفت باهتة ذاهلة باكية مسترجعة من خشية الله. ذلك أن العظمة والعبقرية يهزان القلوب، ويثيران الأفئدة. فما بالك بالعظمة إذا انتظمت مع النبوة، وما بالك بها. وقد راحت تضحي بكل شيء في الحياة في سبيل الإنسانية، وخير البشرية.

رحمتك اللهم، رجل تبعث به أمة كاملة، وترسل على يديه ألوان الخير إلى الإنسانية. ثم مشيت نحو المسجد، وكانت الشمس قد أشرقت أو كادت. وكان النهار ما يزال بارداً زاهياً. فلما تلمسنا مدخل المسجد النبوي تولتني رعدة عظيمة، وخلعت نعلي وتقدمت أمشي في صحن الجامع أتابع خطوات رفيقي. ثم أخذت لنفسي مكاناً قصياً. صليت فيه صلاة الصبح، وأنا غارقة في عالم هو أقرب إلى الأحلام، وأخيراً تقدمت نحو القبر الشريف. وكان الزحام شديداً حوله، والمؤمنون سكوت يصلون في قلوبهم والقلوب واجفة، والأفئدة خاشعة، والعيون منكسة، ولم يكن هناك حوله من يصلي، ذلك أن «محمداً» منع الصلاة عند قبره، ونهى عنها حتى لا يتخذ الناس قبره موطناً للعبادة، أو كعبة يتقرب بها إلى الله، ذلك إنما

تكون الصلاة لله وحده جل جلاله، وليس في الإسلام صلاة لغير الله، ولا قبلة غير الكعبة.

ولو استطعت ما فارقت المسجد ذلك أني وجدت فيه انطلاقاً من هذا الجو الدنيوي، لم أكن أعهده ولا أعرفه. ذلك أني وجدت فيه حالة روحية جديدة ملأتني نشاطاً وقوةً ورقَّةً وحبًّا لله وعبادة، والحق أقول أن الحب عندنا. وكما يفهمه الغربيون لا يزال قريباً من الغريزة محصوراً في دائرتها على ما تلهمه هذه الغريزة لتخليد النوع وتحسينه. أما المناطق العليا التي يرتفع الحب المهذب إليها. أما الحب بمعناه الإنساني السامي من الاشتراك في تمثل الحياة لتزيد الحياة قسوة وجمالاً وسناءً. أما الحب على أنه عاطفة إنسانية سامية أساسها إنكار الذات والرقي النفسي إلى عالم الخير والجمال والحق، فهذا لا يفكر فيه أحد، أو يتصور وجوده إنسان، وهو إلى ذلك كله موجود في الإسلام متطور في هذه الأخوة الإنسانية التي تجعل من الفرد عبداً ليعمل لخير المجموع وفرداً قصارى همه أن يعمل للإحسان وبالإحسان أبداً.

وإن من طرافة الإسلام هذا السلام الذي أمر به القرآن أمراً: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردّوها﴾ وقد أشار المستر بيكتول الكاتب الإنجليزي إلى هذه الظاهرة الغريبة الفذة في تاريخ الإنسانية، وراح يضرب الأمثال بهذا الاختلاف العظيم يعم الغرب من أقصاه إلى أقصاه، ويتصل بين المرء وولده، وشقيقه ونسيبه وجاره كيف أن الإسلام يقف وحيداً في هذه الظاهرة حيث تقوم الأخوة الإسلامية فيه مقام العصبية والجوار وغيرها من الصلات والعرى.

وفي مكة طفت وسعيت في البيت وزرت الكعبة وطفت حولها. ولقد تولاني ما تولى هذه الجماعة من خشوع وذهول، وتوبة واستغفار وإيمان، فرفعت رأسي إلى السماء ودعوت مع الداعين، وبكيت مع الباكين. وطفت مع

الطائفين، وأسلمت نفسي للواحد الأحد، وغمرتني روحية الإسلام، فتناسيت نفسي وتناسيت كل شيء.

اخترت الدفاع عن الإسلام

هذا بحث كتبه المؤرخ الغربي «جيمس متشنر» في الصحف الأوروبية، فأثار ضجة كبرى عندما انتدب نفسه للدفاع عن الإسلام يقول:

إن محمداً هذا الرجل الملهم الذي أقام الإسلام. ولد حوالي ٥٧٠ م في قبيلة عربية تعبد الأصنام، ولد يتيمًا محبًّا للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين. ولما بلغ العشرين من عمره اشتغل بالتجارة وأدرك فيها النجاح ـ وأصبح يشرف على قافلة لأرملة غنية. وفي الخامسة والعشرين عرضت عليه هذه السيدة الزواج منها اعترافاً بفضله. وقد عاش وفياً لها طوال حياته. وفي الأربعين من عمره، كان أخذ الوحي ينزل عليه، وأحس محمد ككل نبي عظيم قبله بالإجفال من حمل رسالة الله إلى الناس. وقد أمره جبريل أن «اقرأ» ولم يكن محمد يعرف القراءة والكتابة. ولكن جبريل أخذ يملي عليه هذه الكلمات المنزلة التي سرعان ما أحدثت ثورة في جانب من العالم حين دعت إلى توحيد الله.

وقد عرض عليه في آخر أيامه أن يكون حاكمًا بأمره أو قديساً. ولكنه أصر على أنه ليس إلا عبداً من عباد الله أرسله الله إلى الناس بشيراً ونذيراً. وقد أحدث «محمد» بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في شبه الجزيرة العربية. وفي الشرق كله فقد حطم الأصنام بيديه، وأقام ديناً يدعو إلى الله وحده، ورفع عن المرأة قيد العبودية التي فرضتها تقاليد الصحراء، ونادى بالعدالة الاجتماعية.

والجنة التي وعد بها محمد المتقين أسيء فهمها أيضاً، فهو في هذه الصحراء الملتهبة. وفي هذه العواصف الرملية أنذر الكافرين بعذاب جهنم. ووعد المتقين جنات تجري من تحتها الأنهار فيها «حور» عين. وكلمة «الحور» غريبة على خيال الغرب. وقد حاولوا أن يترجموها بكلمة من الكلمات النازلة في اللغة الإنجليزية، وحينما قبض الله إلى جواره إبراهيم، وهو الابن الحبيب للنبي محمد كسفت الشمس. وقيل إن الله قد واساه على هذه الصورة. ولكن محمداً أعلن: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تكسفا لموت أحد ولا لمولده».

وعند وفاة محمد ظن البعض أنه لا يمكن أن يموت، ولكن خليفته قضى على هذا الوهم بخطبة من أنبل الخطب في تاريخ الأديان قال:

أيها الناس: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ويؤمن المسلمون بأنهم أتباع الله. ومحمد النبي العظيم كان إنساناً، وكان بشراً وهم يعبدون الله وحده.

ولعل القرآن هو أكثر الكتب التي تقرأ في العالم، وهو بكل تأكيد أيسرها حفظاً، وأشدها أثراً في الحياة اليومية لمن يؤمن به. وقد نزل «القرآن» باللغة العربية، وفي كل مكان في العالم الإسلامي حرص المسلمون على تعلم العربية، وهي ليست باللغة السهلة ليتمكنوا من قراءة كتابهم المقدس. وأن يؤدوا الصلاة باللغة العربية.

والمسيحي واليهودي الذي يقرأ القرآن لا يجد نفسه غريباً عما جاء في آياته المنزلة، ولو أننا قرأنا هذه الآيات التالية التي اخترناها من مئات الآيات في أي معبد لدين آخر لخيل للناس أنهم يستمعون إلى آيات من الكتب المقدسة عندهم.

* ﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾.

* ﴿ وإن يونس لمن المرسلين، إذ أبق إلى الفلك المشحون. فساهم فكان من المدحضين. فالتقمه الحوت وهو مليم ﴾.
* ﴿ قالت أنىَّ يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغيًا. قال كذلك قال ربك هو عليَّ هيّن ﴾.

ولقد ترددت في القرآن أسماء كثيرة وردت في المسيحية واليهودية. فهناك خمس سور سميت باسم نوح ويونس ويوسف وإبراهيم ومريم.

وهناك أسماء أخرى تعدد ذكرها في الآيات. مثل: عيسى، وآدم، وداود، واليسع، ويعقوب، وموسى، ولوط، وسليمان.

ومن الملاحظ أن القرآن يتسم بطابع عملي في المعاملات بين الناس، وهو في ذلك يقول: ﴿ إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾. ويقول: ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم ﴾. وهذا التوفيق بين عبادة الله الواحد، وبين التعاليم العملية جعل القرآن كتاباً فريداً، ووحدة متماسكة.

وإلى جانب القرآن ترى الإسلام يعتمد على السّنّة. وهو ما روي عن الرسول من أحاديث وأفعال. والوعيُ الإسلامي إنما يرجع إلى هذه الأحاديث التي قالها محمد.

وكل مسلم عندما يبدأ طعامه أو عمله يستهل ذلك بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم» وهي فاتحة القرآن. والمسلم إذا لقي مسلمًا أقرأه السلام قائلاً: السلام عليكم، والدعوة إلى الصلاة الجماعية أخذت أيضاً عن السنة. وهي تبدأ عادة بالأذان. وبعض هذه المبادىء النبوية أثرت في سلوك الغربيين.

وتدل كل الأحاديث على أن محمداً كان رجلاً له طباع الأطهار، وأنه نادى بتحرير الأرقاء، وحرم وأد البنات، وطالب بإعطاء الأرض

للمعدمين، ودعا إلى السلام بدلاً من الحرب، ونادى بسيادة العدالة الاجتماعية. ولكي تكون مسلمًا يجب أن تؤمن بمبادىء خمسة:

١ ـ أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وخاتم النبيين. وأنه قد حمل آخر رسالة سماوية وهي الإسلام الذي أكمل كل الرسالات.

٢ ـ إقامة الصلاة خمس مرات في اليوم، وكل الذين زاروا البلاد الإسلامية، شاهدوا منظراً فريداً في عالم الديانات. ففي مساجد أضواؤها خافتة. يقف مئات المسلمين كتفاً إلى كتف. ويركعون ويسجدون متجهين إلى بيت الله الحرام في مكة. وهذه الصلاة هي التي ولدت الأخوة في الإسلام.

٣ ـ الزكاة: وهي واجبة على المسلمين في مداخيلهم، ولهذا المبدأ أهمية بالغة عند المسلمين.

٤ ـ صوم رمضان: ويذهلك أن تعرف كم عدد الذين يحرصون على الصيام. فالصائم يتناول سحوره قبل الفجر، ويشرب آخر كوب من الماء. ويتناول آخر لقمة من الخبز، ويظل هكذا إلى الغروب مهما ترهقه حرارة القيظ.

٥ ـ حج البيت: والمسلم يجب أن يحج إلى مكة إذا كان قادراً جسميًّا وماليًّا.

ولم يحدث أن انتشر دين بهذه السرعة، فعند وفاة محمد سنة ٦٣٢ م. كان الإسلام يحتل جانباً كبيراً من شبه الجزيرة العربية، ولم يلبث بعد ذلك أن ضم إليها سوريا وبلاد الفرس ومصر. والتخوم الجنوبية لروسيا، وامتد إلى شمال إفريقيا حتى بلغ مداخل إسبانيا. وفي الزمن الذي جاء بعد ذلك كان الإسلام باهراً.

* * *

واعتقد الغرب أن توسع الإسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعتمد

المسلمون إلى السيف. ولكن الباحثين المنصفين لم يقبلوا هذا الرأي، فالقرآن صريح في تأييده لحرية العقيدة. والدليل قوي على أن الإسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان، ما دام أهلها يحسنون المعاملة، ويدفعون الجزية. وقد حرص «محمد» على تلقين المسلمين التعاون مع أهل الكتاب، أي اليهود والنصارى.

وقد عاش أهل الكتاب يعاملون معاملة طيبة. وظلوا أحراراً في عباداتهم. ومن الحقائق التي يجب أن تعرف أن كثيراً من الغربيين قد درجوا على تصديق كتب التاريخ التي تزعم بأن المسلمين برابرة. وأصبح عسيراً عليهم أن يدركوا مدى العمق الذي تأثرت به حياتنا العقلية بفضل المفكرين المسلمين في مجال العلم والطب والرياضيات والجغرافيا والفلسفة. والصليبيون الذين غزوا الأرض المقدسة وحاربوا المسلمين قد عادوا إلى أوروبا بأفكار جديدة عن الحب والشعر والفروسية، وفن القتال، ونظام الحكم، وفكرتنا عن قيام جامعة من الجامعات، وما يجب أن تكون عليه إنما تأثرنا في ذلك بعلماء المسلمين الذين أتقنوا «فن التاريخ» والذين حملوا إلى أوروبا تعاليم الإغريق.

وعلى الرغم من أن الإسلام نشأ في الجزيرة العربية. فإن العرب نسبة قليلة في العالم الإسلامي، وأقل من ربع المسلمين يتكلمون العربية كلغة أصلية. والإسلام أكثر الأديان دعوة إلى التآخي بين كل الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وشعوبهم. وقد تعددت ألوان المسلمين. فهناك السود في إفريقيا والصفر في الصين، والسمر في الملايو، والبيض في تركيا.

وإذا نظر إنسان إلى الخير العميم الذي حققه الإسلام، وخاصة في شعوب ناهضة مثل مصر وباكستان وأندونيسيا فلن يسعه إلا أن يدرك العظمة الدائمة للإسلام.

وقد درست الإسلام سنوات طويلة. وقد وجدت تعاوناً واضحاً بين الإسلام والمسيحية، ويهم العالم اليوم أن يعلم أن الإسلام كدين خصمًا سافراً للإلحاد.

ومن عجب أن الإسلام اليوم ما زال مفهوماً فهمًا سيئاً في أمريكا وأوروبا. فما زالت هناك أفلام سينمائية، وتماثيل مختلفة، تصور الإسلام بصورة لا تمثل حقيقته، فضلاً عن إطلاق اسم المحمديّين على أتباع الإسلام. وهذه كلمات ظالمة لهذه الديانة العظيمة.

لقد نادى النبي محمد بتحرير الأرقاء، وحرم وأد البنات، وطالب بإعطاء الأرض للمعدمين، ودعا للسلام بدلاً من الحرب، وسيادة العدالة الاجتماعية بين الناس من أجل هذا «اخترت الدفاع عن الإسلام».



الخاتمة

هذه الحصيلة المنوعة التي قدمناها في هذا الكتاب لأول مرة في الدراسات الإسلامية. إنما تمثل محاولة صادقة علمية لفهم الإسلام والفكر العربي الإسلامي من جانب مجموعة من مفكرين غير مسلمين تختلف جنسياتهم وأديانهم.

وقد كان علينا أن نواجه هذا التيار الجديد في الفكر العالمي وعلاماته تتزايد كل يوم دلالة على أنه قد أصبح هناك من يحاول أن يفكر خارج نطاق العقائد والفلسفات المرتبطة بحياته الحاضرة، وماضيه. ملتمساً طريقاً جديداً لتحرير فكره، أو باحثاً عن قيم جديدة خارج نطاق الفلسفات والعقائد التي تسيطر على الفكر الغربي المعاصر، وترتبط بالحضارة الحديثة.

وقد جاء هذا الاتصال بين الباحثين وبين الإسلام والفكر العربي الإسلامي من أكثر من طريق.

١ ـ جاء من طريق وضوح الحقيقة التي طالما حاول الغرب إنكارها وإخفائها. وهي أن الفكر العربي الإسلامي هو مصدر هام من مصادر الحضارة الغربية والفكر الغربي. وأن الفكر الإسلامي هو مبدع المذهب العلمي المنهجي.

وقد انقضى وقت طويل قبل أن يجرؤ مفكر غربي على الاعتراف بأن الجذور العربية الإسلامية هي مصدر الحركة العلمية.

٢ ـ جاء من تطلعات فردية لمفكرين استهدفوا دراسة الأديان والثقافات الإنسانية للبحث عن الحق مجرداً من الوراثة والبيئة.

وقد كان الاعتراف بأثر الإسلام والفكر العربي الإسلامي في جذور الحضارة والثقافة الحديثة مصدراً من مصادر التطلع إلى جوهر الإسلام. وهذه الحضارة، كما بلغ فريق من المثقفين والأعلام والمنصفين ذوي النظر الحر أن يجدوا في الإسلام حاجتهم العقلية والروحية، وأن يكشفوا عن جوهر هذا الفكر في دراستهم.

ومن هنا استطاع الإسلام والفكر العربي الإسلامي أن يحفر مجرى جديداً بدأ أول أمره ضيقاً، ولكنه توسع من بعد وعمق. والحق أن هذه المرحلة في الكشف عن جوهر الإسلام والفكر العربي الإسلامي بإنصاف قد امتدت أكثر من مائة عام على الأقل. حتى أصبح في الإمكان أن يقال أن «الإسلام» استطاع أن يلفت النظر إليه على أنه عقيدة تقدمية إيجابية حية قادرة على الحركة والحياة والالتقاء بالثقافات والحضارات المختلفة والمتتابعة. وأن هذه الخاصيّة في جوهره خاصية أنه دين ونظام مجتمع: هي مصدر حياته وقوته واستمراره، وأنها هي التي حالت دون سقوطه. بعد أن ضعفت الأمة التي تعتنقه. وقد سقط كثير من العقائد مع الأمم التي ضعفت وسقطت.

وفي ظل الحملة العنيفة على الإسلام والفكر العربي الإسلامي التي يشنها خلال أكثر من قرن ونصف قرن، وموالاة اتهامه بالضعف والقصور والتخلف، واتهام رسوله وكتابه بكل منقصة. هذه الحملة التي قادها الفكر الغربي المتمثل في القوى الاستعمارية، والنفوذ التبشيري، وما يؤيده من نفوذ سياسي وطائفي واستشراقي، وما يلقاه من تأييد المتابعين للاستعمار والتغريب من دعاة الشعوبية وأتباع المبشرين والمستشرقين في ظل هذه الحملة العتيقة يبرز هذا التيار ويستطيع بعض المثقفين التبشيريين أن يصلوا

إلى جوهر الإسلام من خلال كتابات خصومه والمتعصبين له. وأن يتاح لهم كشف الحقيقة.

ولقد اتسع نطاق هذه الظاهرة، وعمق وكان المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. قد أصدر منذ ثلاثة أعوام كتابنا «الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني» وقد حاولنا فيه تصوير المعركة بين الإسلام وخصومه وكشفنا عن نماذج من هذا التيار الذي بدأ واضحاً يلفت نظر الباحثين. غير أننا في خلال هذه السنوات استطعنا أن نكشف مزيداً من الكتابات المتعمقة العلمية الصادرة عن إنصاف ودراسة وقد توالت هذه الدراسات، واتسع نطاقها، وأصبحت تمثل «ظاهرة» تحتاج إلى أن تدرس ككل، وأن يجري البحث في مجموعها. ولما كنا نحرص على أن لا نكرر أنفسنا. فقد أقمنا قواعد هذا البحث على ضوء الوثائق والأسانيد الجديدة التي وصلنا إليها. والتي كانت منثورة هنا وهناك على أبعاد بعيدة، وكانت في جزئياتها لا تمثل إلا نظرات منوعة، فلما استطعنا جمعها وتنسيقها وفحصها وتقويمها ودراستها أمكن أن نصل إلى حقائق أساسية تكشف عن مفهوم الإسلام في نظر المثقف غير العربي وغير المسلم، ولا نسارع في إصدار الحكم على صحة هذا المفهوم، أو خطأه، ولكنا نرى أساساً أنه يمثل اجتهاد الباحث المتطلع إلى «طاقة جديدة من النور» للنفس الإنسانية، وللفكر الإنساني. وقد استطاع الإسلام أن يعطيه ذلك الفيض الذي تطلع إليه.

ويمكن القول بأن ضياء الإسلام قد استطاع أن ينفذ إلى النفس الغربية المثقفة. وبدأ يأخذ مكاناً، لا على أنه تراث أو تاريخ أو ماض كان له الفضل في تأسيس أحجار البناء في الحضارة البشرية المعاصرة فحسب، ولكنه بوصفه «قوة جديدة حية متفاعلة قادرة» على أن تقدم للإنسانية اليوم وبعد اليوم حاجتها في مجال الحياة والثقافة.

وعندي أن هذا التيار الجديد الذي بدأ ضعيفاً رقيقاً قد أخذ مجاله

يتسع اليوم ويعمق. وعندنا أن هذا التيار لن يموت. بل سيـزداد مع الأجيال القادمة قوة وتدفقاً. ولا يستبعد أن يكون مصدر الضياء الجديد الذي تترقبه الإنسانية بعد رحلة طويلة في البحث عن «منهج حياة» فقد أتيح لها منذ القرن الخامس عشر أن تطوف في آفاق المذاهب والفلسفات والعقائد خلال خمسة قرون كاملة توسع فيها العلم وبلغ مدى قدرته في الكشف عن آفاق البحث التكنيكي، ثم وصل إلى القمة عندما فجر الذرة، واستطاع أن ينفذ إلى آفاق الجو بالصواريخ والأقمار.

ولم تكن هذه المذاهب في مجموعها إلا محاولات من خلال العقل البشري لإيجاد «منهج حياة» وحين اتصل الغرب بالشرق في العصر الحديث كانت محاولته أن يفرض فلسفاته على المناطق التي سيطر عليها بنفـوذه السياسي والاقتصادي، واستطاع أن يبلغ من ذلك ما شاء، في بعض الأقمار. ومع بعض الأمم. أما في نطاق العالم الإسلامي. فإن ذلك بدا له عسيراً غاية العسر. فإن مفهوم الإسلام في عقائده وفكره وثقافته، وما ترسمه مقوماته ومفاهيمه قد حال كثيراً دون أن يخضع أو يذوب أو يتحول بالرغم من الحملات العنيفة التي وجهت إليه. وقد أصر الإسلام في حركة اليقظة التي بدأها قبل وصول الحملات الاستعمارية بوقت طويل أن يستمد مقـومات نهضتـه من قيمه الأسـاسية الـزاخرة بجـوانب القـوة والعـدل الاجتماعي والوحدة والشورى والإخاء الإنساني. وقـد استمد منـاهجه الجديدة من تراثه ووجوده أصلاً مع انتفاعه بتجارب الأمم يأخذ منها دون أن ينحاز.

بل إنه أحدث في ظل ذلك حدثاً باهراً، حيث وسع الإسلام نطاقه ونشر كلمته في آفاق العوالم الوثنية في إفريقيا وجنوب شرق آسيا فحقق نتائج باهرة أذهلت خصومه، ومحـاولي القضاء عليه فاعتنقـه في خلال القرنين الأخيرين عدد ضخم يزيد أضعافاً عن عدد أصحابه الأصليين.

بل إن الإسلام قد أسفر عن جوهره حين كشف عن أنه كان العامل الفعال الحي في حركات التحرر، وأنه كان رمزاً على مقاومة النفوذ الأجنبي، وآية الوحدة والتجمع وملاذ السود المضطهدين من جحيم التفرقة العنصرية في قلب إفريقيا. وفي قلب القارة الأمريكية.

وكانت تجربته الضخمة الباهرة قدرته على تزكية الثورة على الاحتلال في الجزائر، وبروزه كقوة فعالة في الحيلولة دون القضاء على كيان أمة كاملة ضاعت لغتها. ولكن الإسلام ظل هو عامل البقاء الوحيد. ولقد شهد الغرب هذا الموقف كله. وعجب كيف يكون الإسلام في محنة. وقد جثمت عليه قوى الاستعمار، وسيطر النفوذ الأجنبي على أرضه، فأزال وحدة دولته، ومع ذلك فقد عجز أن يزيل مقومات فكره. بل إن فكره هذا قد تجدد واستيقظ. وبدأ حركة المقاومة الضخمة الباهرة في مواجهة محاولة القضاء عليه، وكشف عن جوهره، وصحح كثيراً من المفاهيم، ورد كثيراً من الاتهامات، وواجه الحياة المعاصرة، والحضارة والثقافة الغربية بروح من السماحة والقدرة على الأخذ والعطاء. وبدا الإسلام والفكر العربي الإسلامي قادراً على الحركة الإيجابية التقدمية، وبرزت قيمه الأساسية قادرة على التلقي والامتصاص من مختلف الثقافات والحضارات دون أن تتوقف أو تجمد أو تتعصب. كانت آفاقها دائمًا متفتحة سمحة، واضحة القوة والحيوية تقدمية القيم والمفاهيم.

ولقد استطاع النفوذ الغربي المعارض للإسلام والفكر العربي الإسلامي أن يشكك أهل الإسلام في جوهر عقائدهم وثقافتهم، وحاول ذلك أيضاً مع أهل الغرب أنفسهم حتى يقول الدكتور خالد شلدريك: إنه حين أراد أن يدرس الإسلام عجز أن يجد في مكتبات وطنه كتباً منصفة. وأن كل ما وجده وهو كثير غاية الكثرة كان يحمل على الإسلام حملات متعصبة غاية في الظلم.

ومع هذه المحاولات فقد استطاع هؤلاء أن ينفذوا إلى ضياء الإسلام فيعرفوه ويواجهوه في صراحة وتجرد، ولسنا ندعي أن كل من كتب عن الإسلام كان سليمًا منصفاً. ولكنه كان على أي حال من وجهة نظره متحرراً من التعصب، أو محاولاً إلقاء الضوء غير المتحيز.

* * *

واعتقد أنه من حق الإسلام علينا، ونحن ندعو له، وندافع عنه أن ننظر في هذه الكلمات التي كتبها أكثر من ثلاثين كاتباً في وحدة متكاملة لنرى رأي كتاب منصفين في فكرنا العربي الإسلامي، وفي دين الإسلام والرسول محمد، واللغة العربية والقرآن، ولو أننا تجاهلنا هذا الذي كتب عنا من باب الإنصاف، لكان ذلك تباعداً بيننا وبين وجهة نظر جديدة تأخذ طريقها إلى الفكر الإنساني، وتشق تلك الجبهة الصماء التي كانت تحمل لواء الخصومة والتعصب منذ الحروب الصليبية إلى اليوم.

وإذا كان علينا أن نواجه اليوم رأي خصوم الإسلام، وما يثيرونه من شبهات، فإن علينا أيضاً بنفس الأهمية أن نعرف وجهة نظر من بدا لهم الإسلام قادراً على حل مشاكل الإنسانية ومنحها زاداً من القوة والحيوية هو في ذاته رأباً لصدعها، وبلسمًا لجراحها.

ونحن قد لا نرضى تمام الرضا عن كل ما يقال في باب الإنصاف، لأنه قد يصل إلى مدى إيماننا بالإسلام والنبي والقرآن، ولكننا لا نشجبه ولا نغضي عنه، لأنه يمثل وجهة نظر مفكرين بدأوا حياتهم في معسكر أعداء الإسلام، ثم استطاعوا أن ينفصلوا عنه. وأن يكونوا في إنصاف وتجرد «رأياً جديداً» يخالف ما ورثوه وما درسوه في مطالع حياتهم.

ونحن المسلمين نستفيد من هذه الآراء في مجموعها فائدة أخرى. تلك هي أننا نرى الإسلام في ضوء العقل الإنساني. ومن خلال الفكر

البشري، ومن خلال نفسيات ذات طابع خاص في حياتها وتفكيرها ربما كان مخالفاً لطابعنا ومفاهيمنا الأساسية. وبالجملة فإن هذه (ظاهرة) في تاريخ الإسلام المعاصر لا نستطيع أن نتجاهلها أو نغمض عيوننا عنها.

ومن هنا تأتي أهمية النظرة التي تعطي الثقة بأن الإسلام ما زال منذ مطالع فجره إلى اليوم، وهو يشق طريقه إلى العقل الإنساني، والنفس الإنسانية، وأنه كلما ازدادت حركة التطور الاجتماعي وإنماء الحضارة واتساع دراسات العقل والعلم والتجربة ازداد الإسلام بذاتيته العميقة قدرة على اقتحام مجالات جديدة وعقليات جديدة.

وتلك هي إحدى طوابعه الخالدة.

المراجع والمصادر

بحث علمي عن القرآن: فيليب طرازي.
تاريخ العرب العام: سيديو.
الأبطال وعبادة الأبطال: توماس كارليل.
الديانات الموجودة في الهند: دكتورة آني بيزنت.
رسول الله: اتيان دينيه. ترجمة. د. عبد الحليم محمود.
حياة محمد: إميل درمنجم.
محاسن الإسلام: دكتورة لورا فينيشيا فاليري.
الإسلام نشأته وانتشاره وتطوره: مقال لأرنولد توينبي.
الإسلام والعرب: روم لاندو.
المنازعة بين العلم والدين: درابر.
مقدمة لتاريخ العلم: جورج سارطون.
مناهج العلماء والمسلمين في البحث العلمي: فرانز روزنتال.
شمس الله تسطع على الغرب: دكتورة سيجريد هونكه.
مدنية الإسلام في الغرب: دكتور لويجي رينالدي.
الدعوة إلى الإسلام: توماس أرنولد.
الإسلام على مفترق الطرق: ليوبولد فابس (محمد أسد).
البحث عن الله: ايفلين كوبلد.

فهرس

الموضوع	الصفحة